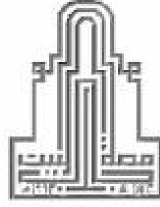


جامعة آل البيت

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

العلاقات السياسية للخلافة العباسية في عهد الخليفة

الناصر لدين الله (575-622هـ / 1179 – 1225م)

The Abbasids Caliphate Political relations during the period of the caliph al – Nasser Ledeen Allah 575-622 H. D/ 1179-1225 A.D

إعداد

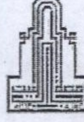
هدى إبراهيم أحمد الموسى

إشراف الدكتور

عليان عبد الفتاح الجالودي

2009م / 1430هـ

ب



جامعة آل البيت

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

العلاقات السياسية للخلافة العباسية في عهد الخليفة الناصر لدين الله

(575-622هـ / 1179 - 1225م)

The Abbasids Caliphate Political relations during the period of the caliph al – Nasser Ledeen Allah

575-622 H. D/ 1179-1225 A.D

إعداد : هدى إبراهيم أحمد الموسى

إشراف الدكتور: عليان عبد الفتاح الجالودي

أعضاء لجنة المناقشة

د. عليان الجالودي .... مشرفاً ورئيساً

أ.د. محمد الأرناؤوط .... عضواً

د. هند أبو الشعر .... عضواً

د. عيسى العزام .... عضواً

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي

في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة آل البيت

الإهداء

إلى والدي ووالدتي....

اللذين علماني أن العلم سلاحٌ لا ينكسر

إلى زوجي الحبيب....

ثائر

إلى أخي وأختي .... إلى طفلي الصغير زيد

وإلى كل أحبائي

أهدي هذا الجهد المتواضع

شكر وتقدير

الحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات وبتوفيقه تهون العقبات والصعوبات فله الحمد في الأولى والآخرة وبعد:

فلا يفوتني في هذا المقام بعد أن خرجت هذه الرسالة إلى حيز الوجـــود إلا أن أتقـــدم بعظيم الشكر والامتنان إلى أستاذي الفاضل الدكتور عليان الجالودي الذي كان له الدور الأكبر في إعداد هذه الرسالة بما قدمه من نصائح ومتابعة للبحث. وعلى ما بذله من جهد وأنفقه مـــن وقت في توجيهي الوجهة العلمية السليمة. وإنني أفخر بأن أكون من تلاميذه، فجزاه الله خيـــر الجزاء وبارك فيه وأطال في عمره.

كما أتقدم بالشكر للأستاذ الكريم الدكتور "محمد الأرناؤوط" والدكتور "عيسى العـــزام" والدكتورة "هند أبو الشعر" الكرام الذين تفضلوا بقبول مناقشة هذه الرسالة فجزاهم الله خيـــر الجزاء.

المحتويات

الرموز والمختصرات

1. يشار إلى المؤلف أولاً ثم يذكر اسم الكتاب ثم الجزء – إن وجد – ثم الصفحة. مثـــال ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص500.
2. يكتفي أحياناً للدلالة على اسم الكتاب بذكر الكلمة الأولى منه أو الكلمة الأولى والثانية مثال: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية يشار إليه بالروضتين.
3. الرموز:

ت: توفي

ص: صفحة

ج: جزء

ط: طبعة

مج: مجلد

هـــ: هجري (ملازم للسنة)

م: ميلادي (ملازم للسنة)

ع: عدد

4. إذا كان للمؤلف أكثر من كتاب فتذكر الكلمة الأولى من اسم المؤلف والكتاب مثال:

المقريزي، السلوك

المقريزي، اتعاظ الحنفا

القلقشندي، صبح الأعشى.

القلقشندي، مآثر الأنافة

ملخص الدراسة

تناولت هذه الرسالة العلاقات السياسية للخلافة العباسية في عهد الخليفة الناصر لدين الله (575-622هـ/1179-1225م) وهو موضوع بالغ الأهمية إلا أنه لم يدرس دراسة شمولية ومعمقة؛ وجل الدراسات السابقة التي تناولت هذا الموضوع قد تطرقت له جزئياً أو تناولت جوانب من علاقات الخلافة مع دولة بعينها وهي دراسات غير شاملة.

شمل التمهيد دراسة لأوضاع الخلافة العباسية في ظل التسلط السلجوقي قبيل عصر الناصر لدين الله، بإلقاء نظرة على أصل السلاجقة ثم علاقة سلاطين السلاجقة بالخلفاء العباسيين الذين سبقوا الخليفة الناصر لدين الله.

تناول الفصل الاول دراسة لشخصية الخليفة الناصر لدين الله وأهم سياساته الداخلية وخاصة تبنيه لنظام الفتوة في محاولة لإحياء الخلافة، ثم تتبعت أهم مؤسسات الدولة في عهده.

وخصص الفصل الثاني لدراسة علاقة الخلافة العباسية بالدولة الخوارزمية تتبعت فيه الدراسة هذه العلاقة بدءاً من السلطان خوارزم شاه تكش(568-596هـ/1172-1199م) والسلطان علاء الدين تكش(596-617هـ/1199-1220م) والسلطان جلال الدين منكبرتي(617-628هـ/1220-1230م) آخر سلاطين الدولة الخوارزمية وما اتسمت به هذه العلاقة من ود او عداوه، وناقشت الدراسة التهمة الموجهة الى الخليفة الناصر لدين الله بمراسلته المغول.

وتناول الفصل الثالث علاقة الخلافة العباسية بالدولة الايوبية بدءاً بصلاح الدين الأيوبي بذكر المراسلات التي تمت بينه وبين الخليفة الناصر لدين الله، ثم التطرق للخلاف الذي نشب بينهم بذكر أسبابه ونتائجه إنتقالاً الى باقي ملوك الدولة الايوبية الذين عاصروا الخليفة الناصر لدين الله.

وتحدث الفصل الرابع عن علاقة الخلافة العباسية ببعض القوى المجاورة بدءاً بسلاجقة العراق وما ساد هذه العلاقة من عداوه حتى زوالهم على يد الخوارزميين سنة590هـ/1193م ثم مع سلاطين الغور ومع الامارة العيونية في البحرين وما سادها من ود واتفاق، وما توفر من معلومات عن علاقة الخلافة بسلاجقة الروم ومع اليمن والمغرب.

خلصت الدراسة الى أن شخصية الخليفة الناصر لدين الله والسياسة التي اتبعها أسهمت بدور مهم في فرض هيبة الخلافة والمحافظة على استقلاليتها في فترة مضطربة شهدت محاولات السلاجقة والخوارزميين السيطرة على الخلافة العباسية.

وكشفت الدراسة أن الرواية التي وجهت للخليفة الناصر لدين الله حول تحالفـــه مـــع المغول غير دقيقه وفق دراسة الأسباب الأخرى التي ذكرت عن سبب مجيـــئهم الـــى ديـــار الاسلام وأثبتت الدراسة إن من غير المعقول أن يتحالف خليفه مسلم مع الكفار وهـــو اتهـــام باطل.

فنحن امام خليفة كان له الدور الاكبر في ازالة القوى المعادية للخلافة العباسية، فكان هدفه أن يسحق القوة السلجوقية وبالفعل استطاع ذلك فهدم قصورهم وأزال آثارهم.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأتم التسليم وبعد:

تتناول هذه الدراسة حقبة زمنية في غاية الأهمية حيث يمثل عصر الخليفة الناصر لدين الله أحمد (575-622هـ/1179-1225م) مرحلة مهمة في تاريخ الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة، فمنذ استيلاء السلاجقة على مقدرات الخلافة العباسية في العراق سنة447هـ/1055م استقر تقسيم السلطة بين الخليفة والسلطان حيث اختص الخليفة بالجانب الديني بينما انتقلت سلطاته السياسية والإدارية والعسكرية للسلطان ليمارسها نيابة عن الخليفة وبتفويض منه.

وبعد انتهاء عصر السلاجقة الكبار بوفاة السلطان ملكشاه سنة 486هـ/1092م، بذل الخلفاء جهوداً حثيثة للتخلص من السيطرة السلجوقية وتكللت جهودهم بالنجاح في عصر الخليفة المقتدي بالله سنة 547هـ/1052م.

وحكم الخلفاء الذين جاءوا بعد الخليفة المقتدي العراق بشكل منفرد عن التبعية للسلاطين؛ وخلال عهدهم تحققت إنجازات مهمة تمثلت بالقضاء على الدولة الفاطمية التي ناصبت الخلافة العباسية العداء لقرون عدة على يد الأيوبيين سنة 567هـ/1171م.

و يُعَدُّ الخليفة الناصر لدين الله من أبرز الشخصيات التاريخية التي تولت حكم الخلافة العباسية في فترة الاضطراب والفوضى، وقد استطاع أن ينهض بالأمة ويعيد لها حضورها من خلال السياسات التي اتبعها في حكمه.

لقد حكم الخليفة الناصر ما يقارب نصف قرن من الزمان أحيا خلالها هيبة الخلافة وأعاد لها صحوتها بعد وطأة التسلط الأجنبي عليها بالرغم من ضعف إمكانياتها السياسية والاقتصادية والعسكرية وانفراط عقد أحكامها، وخضوعها إلى حكام الأطراف اللذين لا تربطهم بالخلافة العباسية سوى رابطة التبعية الإسمية المتمثلة بالخطبة والسكة واستقلالهم بإدارة أمور أقاليمها السياسية.

بدأ الخليفة الناصر نشاطه للعمل بالاهتمام بجانب مهم ألا وهو تجديد روح الأمة بالاعتماد على الشباب من خلال تبنيه لنظام الفتوة لبث روح القوة لدى الشباب والاعتماد عليهم كقوة قتالية، بالإضافة لمباشرته الأمور بنفسه ومحاولة تقربه من فئات المجتمع البغدادي بمختلف أطيافه من سنة وشيعة.

هذه السياسة التي رسمها الناصر لدين الله لنفسه سار عليها من جاء بعده من الخلفاء. ويمثل عصر الخليفة الناصر مرحلة مهمة في تاريخ الخلافة العباسية. وكان لشخصية الخليفة والسياسة التي اتبعها خلال فترة حكمه الطويل تأثير مباشر في علاقات الخلافة العباسية الخارجية سواء مع سلاجقة خراسان أو مع سلاطين الخوارزميين أو سلاطين الأيوبيين أو مع سلاطين المغول أو سلاطين الغور وغيرهم من السلاطين والأمراء.

لذا فمن الأهمية دراسة هذه المرحلة لاستجلاء صورة علاقات الخلافة العباسية مع سلاطين وأمراء الأطراف، والتعرف على أثر السياسات التي اتبعها الخليفة الناصر على علاقات الخلافة العباسية خلال فترة حكمه الحافلة بالتغيرات السياسية التي أثرت بصورة مباشرة وغير مباشرة على الخلافة العباسية، فقد أسهمت شخصية الخليفة الناصر والسياسة التي اتبعها، بدور مهم في فرض هيبة الخلافة، والمحافظة على استقلاليتها، في فترة مضطربة شهدت محاولات السلاجقة والخوارزميين السيطرة على الخلافة العباسية.

وقد قسم البحث إلى أربعة فصول رئيسية ومقدمة وتمهيد وتحليل للمصادر والمراجع، تناول التمهيد أوضاع الخلافة العباسية في ظل التسلط السلجوقي قبيل عصر الناصر لدين الله.

وقد تناول الفصل الأول شخصية الخليفة الناصر لدين الله وسياسته الداخلية وأثرها في استعادة قوة ومجد الخلافة، ثم محاولته إحياء الخلافة من خلال التقرب من جميع فئات المجتمع من سنة وشيعة، علماء، زهاد وصوفية، عامة الناس ثم تبنيه لنظام الفتوة.

وتحدثت عن اولاده وزوجته ثم وفاته، وانتهيت بالحديث عن النظم الإدارية والسياسية في دولته.

أما الفصل الثاني فقد جعلته لدراسة علاقة الخلافة العباسية بالدولة الخوارزمية بدءاً بنشأة الدولة الخوارزمية، ثم إلقاء الضوء على علاقة الناصر بسلاطين الخوارزميين كلٌ على حدة ابتداءً من السلطان خوارزم شاه تكش ثم السلطان خوارزم شاه علاء الدين ثم السلطان جلال الدين منكبرتي وهو آخرهم وناقشت محاولتهم السيطرة على الخلافة والجلوس مكان السلاجقة واستعادة ما كان للسلاجقة من قوة وسيطرة.

ثم تناولت بشيءٍ من التفصيل التهمة الموجهة للخليفة الناصر في مراسلته للمغول والتعاون معهم للقضاء على الخوارزميين.

أما الفصل الثالث تناولت فيه علاقة الخلافة العباسية بالدولة الأيوبية متحدثاً بدءاً بنشأة الدولة الأيوبية ثم علاقة الخليفة الناصر بالسلطان صلاح الدين الأيوبي والتي سادتها روح الود والتعاون بين الطرفين رغم الخلاف الذي ذكرته المصادر بين الخليفة الناصر والسلطان صلاح الدين وأوضحت اسبابه ومظاهره.

كما تناول الفصل علاقة الخليفة الناصر بالسلاطين الأيوبيين بعد وفاة صلاح الدين من العادل إلى الظاهر إلى الكامل وما كان بينهم وبين الخليفة الناصر من اتصال ومراسلات.

أما الفصل الرابع فقد جعلته للحديث عن علاقة الخلافة العباسية ببعض الدول المجاورة بدءًا بسلاجقة إيران والعراق التي كان يغلب عليها الحرب، ثم علاقته بسلاطين الغور، ثم علاقته بالإمارة العيونية بالبحرين، مشيراً لعلاقته بسلاجقة الروم، و علاقته مع اليمن والمغرب موضحاً طبيعة كل علاقة وما سادها من تبادل مراسلات واتصال بين الطرفين.

وفي الختام، فقد اجتهدت في هذه الدراسة، وربما وجد غيري في هذا المبحث من أوجه النقص ما يحفزه على إتمامه، فما هدفت إلا خدمة العلم والوصول إلى الحقيقة، وادعوا الله تعالى أن يوفقني في بحثي وأدعوه أن لا يحرمني أجر المجتهد والمصيب والله من راء القصد.

تحليل المصادر والمراجع

اقتضت دراسة هذا المبحث التعامل مع مصادر ومراجع مختلفة ومتنوعة ويعود ذلك لطبيعة الموضوع نفسه، من طول الحقبة الزمنية التي حكم فيها الخليفة الناصر لدين الله، فضلاً عن أهمية حكمهُ، فقد رجعت إلى جل المصادر والمراجع التي يمكن تصنيفها إلى المجموعات التالية:

1. كتب التاريخ العام.
2. كتب التراجم والسير.
3. كتب الرحلات.
4. كتب الأدب

كما أفادت الدراسة من المراجع والدراسات الحديثة والمقالات والرسائل الجامعية التي تناولت عصر هذا الخليفة الممتد من 575-622هـ / 1179 - 1225م.

أولاً: كتب التاريخ العام

وفي طليعة هذه الكتب كتاب "الكامل في التاريخ" لعز الدين أبو الحسن علي بن محمد (ت 630هـ / 1232م)، يعد ابن الأثير من أبرز مؤرخي القرن السابع وكتابه الكامل من المصادر المهمة للتاريخ الإسلامي عامة، فهو مؤلف جامع لتاريخ أخبار ملوك الشرق والغرب وما بينهما، يأتي فيه بالحوادث والكائنات من أول الزمان متتابعة يلو بعضها بعضاً إلى عصره[1].

فهو كتاب يعالج تاريخ العالم القديم حتى ظهور الإسلام وتاريخ العالم الإسلامي منذ ظهور الإسلام حتى عصره. والتزم في كتابه بالمنهج الحولي في تسجيل الأحداث فهو يسجل أحداث كل سنة على حدة.

لم يكن ابن الأثير في كتابه ناقل أخبار أو مسجل أحداث وإنما كان محللاً ممتازاً وناقداً بصيراً، حيث حرص على تعليل بعض الظواهر التاريخية ونقد أصحاب مصادره وناقش كثيراً من أخبارهم وقد كتب ابن الأثير تاريخه بأسلوب نثري لا تكلف فيه؛ مبتعداً عن الألفاظ الغريبة بإيراده مادة خبرية بعبارات موجزة واضحة.

أما كتاب "مرآة الزمان في تاريخ الأعيان" لأبي المظفر شمس الدين يوسف قزعلي المعروف بسبط ابن الجوزي (ت 654هـ / 1256).

---

(1) أنظر فاروق عمر فوزي، التدوين التاريخي عند المسلمين، ط1، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، 2004م، ص44 وسيشار اليه لاحقاً فوزي، التدوين التاريخي.

تحدث فيه المؤلف عن تاريخ البشرية منذ بدء الخليقة وابتداء العالم وحتى وفاته سنة 654هـ/1255م ورتبه على السنين، وهو معاصر للأحداث ويعد سجلاً لأحداث بغداد.

ويعد كتاب عبد اللطيف البغدادي (557-629هـ/1161-1231م) أخبار مصر من المصادر التي تتناول الفترة المتأخرة من الخلافة العباسية، إلا أن الكتاب لم يصلنا بل وصلنا منه قطعة تتناول المجاعة الكبرى في مصر سنة597هـ/1200م بعنوان "الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر" موجه إلى الخليفة الناصر لدين الله.

وترد فيه معلومات عن شخصية الناصر لدين الله نشرها كلود كاهن في مجلة المعهد العلمي الفرنسي وهي ترجمة وافية للخليفة الناصر.

ويعد كتاب "البداية والنهاية في التاريخ" للحافظ ابن كثير (ت 774هـ/1372م) من مصادر البحث المهمة، فهو كتاب قيم وشيق تحدث فيه المؤلف عن التاريخ منذ بدء الخليقة حتى سنة 767هـ/ 1365م ورتب ابن كثير كتابه على السنين؛ ويضيف إلى حوادث كل سنة بعض التراجم المهمة[1].

فضلاً عن كتاب "مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس" لظهير الدين علي بن محمد البغدادي (ت697هـ/1297م) المعروف بابن الكازروني. فالمؤلف أفضل ما ينقل عنه في الفترات الأخيرة لخلافة بني العباس حيث أنه من أهل بغداد ومن العلماء في هذا الفن، يتبع المؤلف أسلوب كتب التراجم؛ فكان يذكر اسم الخليفة وأهم أحداث عصره وبالتالي فقد أعطانا صورة مركزة عن عصر الخليفة الناصر لدين الله تحدث عن أولاده ووزرائه وقضاته وحجابه.

وقد سار عبد الرحمن سنبط قينتو الأربلي (ت 717هـ / 1317م) على نفس المنهج في كتابه "خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك" وبالتالي أعطى صورة مختصرة لعصر الخليفة الناصر لدين الله. والمؤلف عالم من مدينة أربيل في كردستان العراق عاش في العهد العباسي الأخير.

ويعد كتاب "المختصر في أخبار البشر" لأبي الفداء إسماعيل بن علي (ت732هـ/1331م) من المصادر المهمة لموضوع البحث فهو كتاب مختصر عن مطولات

---

[1] عليان الجالودي، تطور مفهوم السلطنة وعلاقتها بالخلافة خلال العصر السلجوقي،رسالة دكتوراه غير منشوره،اشراف عبدالعزيز الدوري،الجامعة الاردنية،1996، ص14،وسيشار اليه لاحقاً الجالودي، تطور مفهوم السلطنه.

ومدونات كتب التاريخ الإسلامي حتى زمن المؤلف رتب التواريخ الإسلامية على السنين حسب تأليف الكامل لابن الأثير.

وأفادت الدراسة من مؤلفات القلقشندي (ت 821هـ/1418م) في كتابه "مآثر الأنافة في معالم الخلافة" وفيه يتتبع أخبار الخلفاء وذكر الأحداث البارزة في عهد كل منهم ويضم الجزء الثالث منه ذكر المكاتبات الصادرة عن الخلفاء وولاة العهد بالخلافة.

كما أن كتابه "صبح الأعشى في صناعة الانشا"، يضم مجموعة من الوثائق التي تتصل بالبراءات والرسائل الصادرة عن الخلفاء والسلاطين.

فضلاً عن كتاب "الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير "لإبن الساعي (ت674هـ/ 1275م) فهو كتاب حولي ينتهي بسنة 656هـ زاخر بالمعلومات حيث كان صاحبه على علاقة بالخلافة ورجال الدولة في بغداد فتحدث فيه عن الشؤون الداخلية للخلافة. وهو كتاب مفقود لم يصلنا منه سوى الجزء التاسع.

وأفادت الدراسة من كتاب "العبر وديوان المبتدأ والخبر" لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت808هـ / 1405م) المؤرخ الشهير، ويعد من كبار العلماء، فقد قدم نظريات كثيرة وجديدة في علمي الاجتماع والتاريخ ويعد كتابه العبر من أهم كتبه فقد امتاز بقدرته على استعراض الآراء ونقدها ودقة الملاحظة بالإضافة لموضوعيته في كتاباته عن التاريخ.

ثانياً: كتب التراجم والسير

تكمن أهمية هذه الكتب في المساعدة على توضيح الكثير من الروايات التاريخية وتلقي الضوء على الأشخاص وتعطي ترجمة وافية لهم؛ تذكر فيها بعض الأحداث التاريخية والنواحي الاجتماعية في عهد كل شخص.

إن كتاب "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان" لابن خلكان (ت681هـ / 1282م) من أهمها والذي رتب وفياته على حروف المعجم فهو يزودنا بمادة تاريخية قيمة عن السلاطين والخلفاء.

وأفاد البحث من مؤلفات الذهبي (ت748هـ/1347م) وفي مقدمتها كتاب "سير أعلام النبلاء" والذي يعد من أمتع كتب التراجم التي يستفيد منها القارئ والباحث، وهو عبارة عن اختصار لكتابه تاريخ الإسلام، فرتب الكتاب على الطبقات وترجم فيه للصحابة والتابعين والعلماء وكذلك تراجم الخلفاء والقادة والسياسيين وكذلك الزعماء السياسيين، الذين أثروا في التاريخ الإسلامي أمثال جنكيز خان.

وأفاد البحث من كتابه الآخر "العبر في خبر من غبر" والذي يتناول فيه سرد الأحداث والوقائع التاريخية وذكر وفيات الأعيان، وقد رتبه على حسب الطبقات التاريخية فيذكر في كل سنة ما حدث فيها وقد أنهى الكتاب بسنة 772هـ/1370م.

ثالثاً: كتب الرحلات:

أهمها رحلة ابن جبير (ت614هـ / 1217م) يعد ابن جبير من أشهر الرحالة المسلمين الذين قاموا برحلات إلى المشرق العربي دون خلالها الكثير من المعلومات التي تعد وثائق من الدرجة الأولى، وتعد رحلته من المصادر المهمة للباحثين في مجال التاريخ في القرنين السادس والسابع الهجري.

أورد لنا معلومات غنية عن عاصمة الخلافة بغداد وخططها وأسوارها ويعد ما أورده مهم لأنه شاهد عيان فقد زار بغداد سنة 580هـ / 1184م وشاهد الخليفة الناصر لدين الله بنفسه وقام بوصفه وأعطانا صورة واضحة وتغطية عن الحالة الاجتماعية وعلاقة الخليفة بالرعية.

رابعاً: كتب الأدب:

وفي مقدمتها "رسائل ابن الأثير" لضياء الدين ابن الأثير (ت637هـ / 1239م) والذي اورد الرسائل المتبادلة بين الخليفة الناصر لدين الله وبين صلاح الدين الأيوبي فضلاً عن الرسائل المتبادلة بين الخليفة وملوك دولة بني أيوب.

وأول كتاب يتناول تاريخ السلاجقة هو كتاب محمد بن علي بن سليمان الراوندي (ت603هـ / 1206م) "راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية" فقد أرخ لهم من بداية ظهورهم حتى زوال دولة سلاجقة إيران والعراق سنة 590هـ / 1193م كان المؤلف معايشاً للأحداث ويعمل في دواوين السلاجقة. هذه الأمور تجعله ثقة لما أورده من معلومات؛ والكتاب بالأصل باللغة الفارسية وقد ترجم للعربية سنة 1960م. في القاهرة من قبل إبراهيم الشواربي وعبد المنعم حسنين وفؤاد الصياد.

كذلك أفاد البحث من كتاب "أخبار الدولة السلجوقية" أو "زبدة التواريخ" لناصر ابن علي الحسيني (ت 622هـ / 1225م) تناول المؤلف في كتابه الدولة السلجوقية منذ قيامها سنة 426هـ / 1034م إلى نهايتها سنة 590هـ / 1193م بعد أن قدم لأصل السلاجقة ودخولهم الإسلام وصراعهم مع الغزنويين وعلاقات السلاطين بالخلفاء والصراعات على السلطنة[1].

---

[1] عليان الجالودي، تطور مفهوم السلطنة، ص9.

ومن بين أهم المصادر التي أرخت للدولة الأيوبية كتاب "الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية"لأبي شامه عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت665هـ / 1267م)وقد انطلق أبو شامة واضعاً كتابه هذا عن الدولة النورية (نسبة إلى نور الدين) والدولة الصلاحية (نسبة إلى صلاح الدين) باحثاً وراء نماذج العدل في الحكم، فقد بدأها من سنة 540هـ / 1145م إلى وفاة صلاح الدين الأيوبي سنة 589هـ / 1193م ويمتاز الكتاب بالدقة والضبط حيث حوى العديد من الوثائق كالكتب المتبادلة بين الخليفة الناصر وصلاح الدين الأيوبي وهذا الكتاب زاخر بما فيه من مادة تاريخية معاصره.

أما كتاب "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية "لبهاء الدين أبو المحاسن (ت 632هـ 1234م) يعد أهم كتاب أرخ لصلاح الدين الأيوبي ولعصره ولحروبه مع الفرنجة ولتحريره القدس، فصاحبه من أقرب الناس لصلاح الدين في السنوات الأخيرة وفي حديثه عن سيرة صلاح الدين وحروبه وردت اشارات لعلاقته بخليفة بغداد الناصر لدين الله.

ويعد كتاب "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" لجمال الدين محمد بن واصل (ت697هـ / 1297م) من المصادر المهمة لموضوع البحث وقد أرخ فيه للدولة الأيوبية منذ قيامها إلى نهايتها في تفصيل وافٍ وتحقيق شامل دقيق؛ فقد أورد بعض معلوماته عن مشاهدة وبعضها عن مشاركة فيها، فكان كتابه الأصل والمرجع الذي أخذ عنه المؤرخون اللاحقون اتصل المؤلف بالكثير من ملوكهم في الشام ومصر، واورد معلومات وافية عنهم وعن صلاح الدين وعلاقته بالخليفة الناصر وغيره من ملوك بني أيوب، بالإضافة لإيراده بعض النصوص والمكاتبات المتبادلة بين الجانبين.

ويعد كتاب "السلوك لمعرفة الدول والملوك" لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت845هـ / 1442م) من أبرز كتب التاريخ الوسيط، جمع فيه وسجل معلومات حول عصري الدولتين الأيوبية والمملوكية من سنة 577هـ/1181م إلى السنة التي سبقت وفاته سنة 845هـ/1442م.

اما كتابه "اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء "كتب فيه حول تاريخ مصر في زمن الدولة الفاطمية.

أما كتاب العماد الأصفهاني (ت597هـ / 1200م) "سنا البرق الشامي" فهو سجل الحوادث الواقعة في دولة نور الدين محمد بن زنكي والسلطان صلاح الدين الأيوبي ورتب كتابه على السنين وبعد حكاية كل وقعة ينقل الوثائق الرسمية المتعلقة بها.

بالإضافة لكتابه "الفتح القسي في الفتح القدسي" ويعد المؤلف كاتب صلاح الدين وهو بالتالي عاصر الأحداث التي يذكرها وشارك فيها، فهو غني بالوثائق التي تدل على العلاقة بين الخليفة الناصر لدين الله وملوك بني أيوب وفي طليعتهم صلاح الدين الأيوبي.

ويعد كتاب "سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي" لمحمد بن أحمد النسوي (ت 639هـ / 1241م) من أهم الكتب التي أرخت للدولة الخوارزمية.

ومؤلفه التحق بخدمة جلال الدين منكبرتي آخر حكام الدولة الخوارزمية،و كان رسوله في كثير من سفاراته إلى حكام المسلمين فكان ملازماً لجلال الدين منكبرتي قضى معه الشطر الأكبر من حكمه، وكان موضع ثقته يشاوره في كل أمر[(1)].

وكتابه هذا لم يقتصر على سرد تاريخ حياة السلطان جلال الدين منكبرتي، بل سرد حوادث المغول في وطنهم الأول، وتتبعهم إلى أن حطوا رحالهم على حدود الشرق الإسلامي. وتحدث عن الدولة الخوارزمية في عهد علاء الدين محمد خوارزم شاه وعن الدولة الخوارزمية في عهد آخر سلاطينها.

- الدراسات الحديثة والمراجع:

إن أبرز الدراسات الحديثة التي أفاد منها الباحث رسالة ماجستير بعنوان "سياسة الخليفة الناصر لدين الله الداخلية" لأحلام النقيب فهي تمس موضوع البحث عن قرب فهي تتحدث عن شخصية الناصر لدين الله وسياسته الداخلية والتي كان لها تأثير على علاقاته الخارجية. وأشارت إلى نسب الخليفة الناصر وأولاده وعن التنظيمات السياسية والإدارية داخل دولته.

كذلك أطلعت الباحثه على ما كتبه أحمد كمال حلمي عن السلاجقة في التاريخ والحضارة وما كتبه رشيد الجميلي عن السلاجقة في كتابه تاريخ الدولة العربية الإسلامية.

وأفادت الباحثه من كتابات عفاف صبره عن الدولة الخوارزمية فقد تحدثت بالتفصيل عن هذه الدولة وكيفية تأسيسها، وألقت نظرة على المغول وصراعهم مع الخوارزميين موضحة أسبابه ونتائجه.

ومن بين الدراسات المهمة دراسة نافع توفيق العبود "الدولة الخوارزمية" فقد أعطى صورة كاملة عن علاقة الخوارزميين بالخلافة العباسية في عهد الناصر لدين الله متسلسلاً بأسماء السلاطين الذين عاصروا الناصر كلاً على حدة.

---

(1) أنظر النسوي، محمد بن احمد(ألفه بعد سنة 639هـ/1241م)، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي،ط1، تحقيق حافظ حمدي، مصر، 1953م،ص14 وسيشار اليه لاحقاً النسوي،سيرة السلطان منكبرتي.

والدراسات التي تتناول علاقة الخلافة العباسية بالدولة الأيوبية في عهد الناصر كثيرة وأفادت البحث في الفصل الذي تناول هذا الموضوع. وتعد دراسة مصطفى الحياري "صلاح الدين القائد وعصره" في مقدمة الدراسات.

ودراسة محمد صالح القزاز "الحياة السياسية في العراق في العهد العباسي الأخير" والتي تطرقت فيها لدراسة علاقة الخلافة بالدولة الأيوبية والدولة الخوارزمية كذلك ألقى نظرة على الاتهام الموجه إلى الخليفة الناصر بمراسلة المغول وأبدى رأيه في ذلك.

وأفادت الدراسة من الدراسة التي قام بها صادق السوداني على "العلاقات الخارجية للخلافة العباسية في عهد الخليفة الناصر" والتي تحمل نفس عنوان البحث فتحدث في نظره شمولية على العلاقات بالدولة الأيوبية والدولة الخوازمية وسلاطين السلاجقة. كما أفادت الدراسة مما كتبه فرانز تيشنرعن الفتوة وعلاقتها بالخليفة الناصر بالإضافة لما كتبه جيرارد زالنغر عنها وما كتبه مصطفى جواد.

وأفادت الدراسة من كتاب وليد نويهض عن صلاح الدين الأيوبي حيث تطرق لدراسة الخلاف الواقع بين صلاح الدين والخليفة الناصر موضحاً أسبابه.

وأفادت الدراسة مما كتبه فاروق عمر فوزي عن السلاجقة في سياق حديثة عن الخلافة العباسية في مرحلة السقوط والانهيار.

بالإضافة لبعض الدراسات التي تناولت عصر الخليفة الناصر لدين الله ضمن سياق دراستها للخلافة العباسية في عصورها المتأخرة أو ضمن دراسة علاقات الخلافة بدولة من دول الأطراف.

تمهيد

أوضاع الخلافة العباسية في ظل التسلط السلجوقي قبيل عصر الخليفة الناصر لدين الله

أصل السلاجقة ونشأتهم

السلاجقة إحدى القبائل التركية التي عرفت بإسم (القنق) أتوا في الأصل من السهول الواقعه شمالي بحر قزوين[1]، عرفوا بهذا الاسم نسبة إلى جدهم سلجوق بن دقاق[2] أحد رؤساء الأتراك الأفذاذ الذين يسكنون بلاد ما وراء النهر[3] ونتيجة لضيق ديارهم وازدحامهم وضيق مراعيهم اضطروا أن ينزحوا من تركستان إلى ما وراء النهر فكانت منازلهم في الشتاء نوربخارى وفي الصيف سمرقند[4].

لم يكن السلاجقة من الأمم العريقة في الحضارة والسياسة بل كانوا أناساً تعدادهم كبير ومالهم وفير، ولهم قدرة وشوكة، يمتازون بالتقوى والدين لا علم لهم بأخبار الملوك ومآثرهم[5].

يرجع الفضل في توطيد كيان السلاجقة إلى سلجوق بن دقاق الذي استطاع أن يوحدهم وأن يجمعهم تحت رأيه وزعامته فقوي أمرهم وصارت لهم كلمة خاصة بين الأتراك الغزية[6]. فعندما أراد ملك الترك بيغو[7] المسير إلى بلاد الإسلام نهاه دقاق عن ذلك فحدث نزاع بينهما على ذلك[8]..

أنجب دقاق ولده سلجوق الذي أصبح مقرباً من ملك الترك بيغو ولقبه سباشي ومعناه قائد الجيش، نتيجة لما ظهر عليه من الهمة العالية وحسن التدبير فاستمال له عدداً من رجال الدولة فقامت زوجة بيغو بتحريض زوجها عليه لانقياد الناس إليه وأغرته بقتله[9]. فوصل الخبر إلى سلجوق فقام بالرحيل إلى دار الإسلام واعتنق الإسلام واتخذ مدينة جند مقر وقاعدة له، وطرد عمال ملك الترك منها فأصبحت للمسلمين[10].

---

(1) البستاني، دائرة المعارف، مج9، ص716، Bosworth, the cambridge History of Iran, VoL 5 .p16

(2) دقاق باللغة التركية تعني القوس الحديدي وقد ورد هذا الاسم على صور مختلفة في المصادر فقد ذكره الحسيني (يقاق) أنظر اخبار الدولة السلجوقية، ص1، وابن الأثير ذكره (تقاق) أنظر الكامل في التاريخ، ج8، ص22، وفي بقية المصادر (دقاق) أنظر المقريزي، السلوك ج1، ص136.

(3) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص1، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص22، القرماني، أخبار الدول، ص270.

(4) الراوندي، راحة الصدور، ص145.

(5) المصدر نفسه، ص145.

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص22.

(7) لقب السلطان الأعلى عند الترك الغربيين وهو أبو الفوارس شاه ملك ابن علي المتوفي سنة 998م والذي كان حاكم مدينة جند وقد ذكر ابن الأثير حول خدمته عند ملك الترك أنظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص162.

(8) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص1، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص22.

(9) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص2، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص22.

(10) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص2، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص 22، Bosworth, The Cambridge History of Iran, Vol5. p18.

وهكذا علت كلمته في بلاد ما وراء النهر، فقام في سنة 375هـ / 985م بالتعاون مع السامانيين[1]. ضد الترك الكفار بعد مهاجمتهم لحدود السامانيين في بلاد ما وراء النهر وبعث لهم بإبنه أرسلان على رأس جيش استطاع أن يسترد ما أخذه الأتراك من السامانيين[2].

توفي سلجوق بن دقاق وقد خلف أولاداً هم الأمير ميكائيل وموسى وبيغو أرسلان المدعو اسرائيل، وبقي ابنه ميكائيل على ما كان عليه من غزو الترك فقتل في حروبهم ومات شهيداً[3].

خلف ميكائيل من الأولاد بيغو وطغرلبك وينال وجغري بك داوود، فنزلوا بالقرب من بخارى[4]. لكن أميرها أساء جوارهم فرجعوا إلى بغراجان ملك تركستان وجاوروه[5] وتعاهد طغرلبك وأخوه داوود إلا أن يجتمعا عند بغراجان وحاول علي ألا يجمعهما فلم يطق فقبض على طغرلبك وأرسل عسكره إلى أخيه داوود فهزمهم داوود وأكثر فيهم القتل. ثم خلص أخاه وانصرفا إلى جند قرب بخارى فأقاما هناك[6].

وقام صاحب بخارى علي تكين بالعمل على إيقاع بعضهم ببعض فأرسل إلى يوسف بن موسى ابن سلجوق وهو ابن عم طغرلبك ووعده بالاحسان وبالغ في استمالته وأحضره إلى بلاده وفوض إليه التقدم على جميع الأتراك بولايته، وأقطعه أقطاعاً كثيراً وهدفه من كل هذا الاستعانة به على طغرلبك وداود وضربهم ببعض ولكنه علم مراده وهدفه فلم يطعه فقام بقتله[7].

بعد مقتله سار طغرلبك وأخوه إليه للانتقام فهزم عسكر علي تكين، فعظم ذلك عليه فجهز جيشاً كثيفاً قصد به السلاجقة وأوقع بهم، وأخذت أموالهم وسبيت نساؤهم فقاموا

---

(1) ينتسبون إلى أسرة فارسية عريقة بدأ نجمهم يرتفع في القرن الثالث هجري/ التاسع الميلادي فأصبحوا ولاة على بلاد ما وراء النهر وكانت العلاقة بينهم وبين الخلفاء العباسيين تقوم على أساس المودة، أنظر حسنين، عبد المنعم حسنين، سلاجقة إيران والعراق، ط2، الناشر مكتبة النهضة المصرية، 1970م، ص8، وسيشار إليه لاحقاً حسنين، سلاجقة إيران والعراق.

(2) البستاني، دائرة المعارف، مج9، ص716.

(3) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص2، المقريزي السلوك ج1، ص136 وقد ورد في الراوندي (ص146) أن له من الأولاد إسرائيل ميكائيل يونس، موسى بيغو.

(4) من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلها كانت قاعدة ملك السامانية وهي مدينة قديمة نزهة كثير البساتين واسعة الفواكه وليس بما وراء النهر وخراسان بلده أهلها أحسن قياماً بالعمارة على ضياعهم من أهل بخارى أنظر ياقوت، معجم البلدان، ج1، ص353.

(5) المقريزي، السلوك، ج1، ص136.

(6) المصدر نفسه، ص136.

(7) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص23، المقريزي، السلوك، ج1، ص137.

بالعبور، إلى خراسان[1]. وخيموا بظاهر خوارزم سنة 425هـ / 1034م واتفقوا مع خوارزم شاه هارون بن التونتاش فغدر بهم وحبسهم فقاموا بالتوجه إلى مرو[2].

بعد ذلك قاموا بمراسلة مسعود بن محمود بن سبكتكين في طبرستان وطلبوا منه الأمان فرفض، وقام بإرسال جيش لهم فتمكن من هزيمتهم في شعبان من عام 426هـ / 1035م[3].

لكنهم تمكنوا فيما بعد من تحويل الهزيمة إلى نصر وتخليص أسراهم من يد الغزنويين واستعادة ما غنم قائدهم. ندم مسعود على رفضه طلب السلاجقة وأحس بعجزه عن دفعهم عن خراسان[4].

قام مسعود بعد ذلك باستمالتهم فطلبوا منه إطلاق عمهم أرسلان الذي قبضه محمود بن سبكتكين فشرط حضورهم لكنهم رفضوا[5]. فلجأ مسعود إلى حبسه مره أخرى وعاد إلى غزنة، في ذلك الوقت شغل السلاجقة بالاستيلاء على بلخ وطوس وغيرها وما أن حل عام 429هـ / 1038م حتى كانوا قد استولوا على معظم البلاد[6].

وانهزمت عساكر السلطان مسعود منهم مرة بعد مرة واستولى الرعب على أصحابه خاصه مع بعده عن غزنه، فكتب نوابه إليه يستغيثون ويشكون إليه ويذكرون ما يفعل السلاجقة في البلاد لكنه لم يجبهم وأعرض عن خراسان واشتغل بأمور الهند[7] فلما اشتد أمرهم بخراسان اجتمع وزراؤه وأرباب الرأي في دولته وقالوا أن عدم اهتمامك بخراسان سيؤدي إلى تملكهم البلاد، عند ذلك شعر بعظم الأمر فجهز العساكر الكثيرة وسار إليهم فدارت بين الفريقين معركة فاصلة هي معركة داندنقان سنة 429هـ / 1038م[8]. كانت هزيمة الغزنويين بمثابة إعلان نهاية سيطرتهم على ما وراء النهر وخراسان والعراق وبمثابة إعلان بداية استقرار السلاجقة في تلك البلاد، فاندفعوا تحت قيادة طغربك نحو مدينة نيسابور

---

(1) ابن الأثير الكامل في التاريخ، ج8، ص23، المقريزي السلوك، ج1، ص137-138.

(2) المقريزي، السلوك، ج1، ص138، البستاني، دائرة المعارف، مج9، ص717.

(3) المقريزي، السلوك، ج1، ص138، عباس إقبال، الوزارة في عهد السلاجقة، ترجمة أحمد كمال الدين حلمي، مطبوعات جامعة الكويت، 1984م، ص31، وسيشار إليه لاحقاً إقبال، الوزارة في عهد السلاجقة.

(4) اقبال، الوزارة في عهد السلاجقة، ص31.

(5) المقريزي، السلوك، ج1، ص138، Bosworth, cambridge History of Iran, vol 5, p51-52

(6) اقبال الوزارة في عهد السلاجقة، ص32. Bosworth, cambridge History of Iran, vol5, p22.

(7) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص24.

(8) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص24، الراوندي راحة الصدور، ص158.

Bosworth, Cambridge History of Iran, Vol5, p22.

ودخلوها وجلس طغرلبك على عرش مسعود[1]. ولقب بالسلطان المعظم ركن الدين والدنيا أبو طالب[2].

ونتيجة لإحرازهم النصر في عدد من المعارك ازدادوا قـوة ولحقـت بـه جيوشـهم المتفرقة من أطراف خراسان، فاشتد وقعهم في القلوب، وتقرر الملك لهم ولم يبق أمامهم سوى الحصول على اعتراف الخليفة العباسي ليكسب حكمهم صفة شرعية[3].

فقاموا في سنة 432هـ / 1040م بالاتصال بالخليفة العباسي القائم بأمر الله للحصول على هذا الاعتراف وأرسلوا بالرسالة التالية إلى الخليفة العباسي:

"إننا معشر آل سلجوق قوم أطعنا دائماً الحضرة النبوية المقدسة واحببناها من صـميم قلوبنا ولقد اجتهدنا دائماً في غزو الكفار، وإعلان الجهاد، وداومنا على زيارة الكعبة المقدسة، وكان لنا عم مقدم محترم بيننا اسمه إسرائيل بن سلجوق قبض عليه يمين الدولة محمـود بـن سبكتكين بغير جرم أو جناية، وأرسله إلى قلعة كالنجر ببلاد الهند فبقي في أسره سبع سنوات حتى مات، واحتجز كذلك في القلاع الأخرى كثيراً من أهلنا وأقاربنا، فلما مات محمود وجلس في مكانه ابنه مسعود لم يقم على مصالح الرعية واشتغل باللهو والطرب فلا جرم إذا طلـب منا إعيان خراسان ومشاهيرها أن نقوم على حمايتهم إلى أن قالوا: وشكراً لله على مـا أفـاء علينا من فتح ونصر فنشرنا عدلنا وإنصافنا على العباد وابتعدنا عن طريق الظلـم والجـور والفساد ونحن نرجو أن نكون في هذا الأمر قد نهجنا وفقـاً لتعـاليم الـدين ولأمـر أميـر المؤمنين"[4].

فاستحسن الخليفة العباسي هذه الرسالة ووجد فيهم قوة جديدة يمكن أن يكون لها أكبـر الأثر على مجريات الأمور في حاضرة الخلافة العباسية.

وبدأ يفكر في الاستعانة بهم للتخلص من التسلط البـويهي، بالإضـافة لعلـو شـأن البساسيري الذي راح يهدد الخلافة العباسية باستدعاء المستنصر بالله الفاطمي والقيام بالخطبة له[5].

---

(1) الراوندي، راحة الصدور، ص158، عبد المنعم حسنين، سلاجقة، إيران والعراق، ص28.
Bosworth, Cambridge History of Iran, Vol5, p35.

(2) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص9.

(3) الراوندي، راحة الصدور، ص165.

(4) المصدر نفسه، ص166–167.

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص80، وللمزيد من التفاصيل أنظر التمهيد.

ودخل طغرلبك بغداد سنة 447هـ / 1055م بدعوه من الخليفة العباسي القائم بأمر الله وبدخوله أصبح العراق تحت الحكم السلجوقي[1]. الذي دام أكثر من مائة عام وانتهى بصوره فعلية في العراق بوفاة السلطان مسعود سنة 547هـ / 1152م ووفاة السلطان سنجر سنة 552هـ / 1157م إلا أن نفوذهم الأسمي على الخلافة العباسية بقي حتى سنة 590هـ / 1184م.

علاقة الخلفاء العباسيين بسلاطين السلاجقة قبيل عصر الناصر لدين الله

يمكن تكوين فكرة مناسبة حول أحوال الخلافة العباسية في ظل التسلط السلجوقي عبر تقسيم هذه الفترة إلى عدة مراحل: المرحلة الأولى وتمتد من عام (447هـ/1055م) حتى (512هـ/1118م) وهي فترة السلاطين السلاجقة الكبار، المرحلة الثانية فهي فترة ضعف السلطنة السلجوقية وتنافس أمرائها على السلطة وتمتد من عام (512هـ/1118م) حتى (530هـ/1135م) أما الفترة الثالثة فتكونت بعد عام (530هـ/1135م) وفيها أصبحت الخلافة مستقلة عن سلطة السلطان السلجوقي حيث أصبحت العلاقة بين الطرفين علاقة تنافس بعد أن كانت علاقة سيطرة من قبل السلاطين على الخلافة.

يلاحظ في الفترة الأولى أن الخلافة خضعت خضوعاً تاما لسلطة السلاجقة،تقديراً للدور الذي قاموا به في إعادة تثبيت الخلافة بعد سقوطها إثر حركة البساسيري[2] والتي احل مكانها الدعوة للخلافة الفاطمية، وقد عبر الخلفاء العباسيين عن تقديرهم للسلاطين السلاجقة من خلال تفويضهم سلطتهم الزمنية، وبث دعاية دينية لصالحهم عن طريق منحهم الألقاب مثل لقب سلطان والذي منحه الخليفة القائم لزعيم السلاجقة طغرل بك[3]. بالإضافة إلى ألقاب أخرى مثل ركن الدين وركن الدولة وملك المشرق والمغرب[4].

---

(1) للمزيد من التفاصيل أنظر التمهيد.

(2) هي حركة قام بها أبو الحارث ارسلان التركي القائد العسكري للقسم الغربي من بغداد وذلك سنة (450هـ–1058) واسقط من خلالها الخطبة للخلافة العباسية وأقامها للخلافة الفاطمية لكن حركته فشلت بعد دخول طغرلبك السلجوقي لبغداد، حيث انتهت الثورة بقتله، انظر الحسيني، صدر الدين أبي الحسن علي (ت 622هـ/1225م)، أخبار الدولة السلجوقية، اعتنى بتصحيحه محمد إقبال، دار الآفاق الجديدة بيروت، ص 17–19، وسيشار إليه لاحقاً الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية.

(3) الراوندي، محمد بن علي بن سليمان الراوندي (ت 601هـ/1204م)، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ترجمة إبراهيم الشواربي وعبد المنعم حسنين وفؤاد الصياد، دار القلم، القاهرة، 1960م، ص169 وسيشار إليه لاحقاً الراوندي، راحة الصدور.

(4) ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد (ت 630هـ/1232م)، الكامل في التاريخ، ط6، دار الكتاب العربي، بيروت، 1986م، ج8، ص 80، وسيشار إليه لاحقاً ابن الأثير، الكامل في التاريخ.

أما بخصوص السلاطين فقد بالغوا في إظهار احترامهم وتبعيتهم للخلفاء سواء عن طريق تقبيل يد الخليفة أو تقبيل عتبة داره أو المبالغة في إظهار الطاعة له واعتبار طاعته من طاعة الله سبحانه وتعالى[1].

عظم نفوذ طغرل بك بعد الانتصارات التي حققها ضد أعدائه وأعداء الخلافة، وشعر أنه صاحب فضل على الخلافة العباسية فهو الذي أعاد الخلافة بعد سقوطها وهو الذي أطلق الخليفة من محبسه ورده إلى بغداد[2]، فاستتب له الأمر في العراق ولقبه الخليفة القائم بأمر الله بلقب جديد هو ركن الدين[3] في الوقت الذي اضمحل فيه مركز الخليفة العباسي، وضعف شأنه أمام السلطان فلم يعد له دور يذكر في سياسة الدولة، ولم يستطع التصرف في ممتلكاته وأصبح يعيش على اقطاعات مقدرة تكفي لسد نفقاته[4] واستبد طغرلبك بالخلافة وبالغ في تحدي الخليفة فأمر أن تحمل موارد العراق المالية إلى خزانته بدلاً من خزانة الخليفة القائم بأمر الله[5].

وعلى الرغم من العلاقة الحسنة ظاهرياً بين الطرفين، إلا أن سلاطين السلاجقة قاموا بمشاركة الخلفاء بشارات الخلافة الرئيسية في ذكر أسمائهم على المنابر، وضرب أسمائهم على السكة إلى جانب أسماء الخلفاء، وضرب الطبول على باب دار المملكة في الصلوات[6].

حاول السلاجقة منذ بدايات سيطرتهم على الخلافة اضفاء المزيد من الشرعية على حكمهم عبر دخولهم في المصاهرة مع عائلة الخليفة، مستغلين ضعف الخليفة مما كان له دوره السلبي على العلاقة بين الطرفين، فالسلطان طغرلبك تزوج من ابنة الخليفة القائم بأمر الله، ذلك الزواج الذي رفضه الخليفة بكل قوة[7]. وانزعج منه إلا أنه وافق على هذا الزواج مضطراً بعد أن تدهورت العلاقات بينه وبين السلطان على إثر رفض الخليفة مصاهرته، وتم عقد الزواج سنه 454هـ/1062م[8].

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص80.

(2) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت 597هـ/1200م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ط1، مطبعة دار المعارف العثمانية، حيدر آباد، 1359هـ، ج8، ص181، وسيشار إليه لاحقا ابن الجوزي، المنتظم.

(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج8، ص 182، الراوندي، راحة الصدور، ص 175.

(4) الراوندي، راحة الصدور، ص 176.

(5) المصدر نفسه، ص 176.

(6) عقله، عصام مصطفى عقله، الخلافة العباسية في ضوء رسائل امين الدوله، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية ، اشراف محمد عبد القادر خريسات، 1997م، ص 56، وسيشار إليه لاحقا عقله، رسائل أمين الدولة.

(7) الراوندي، راحة الصدور، ص 176–177، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص 92، 93.

(8) البنداري، أبو الفتح على بن محمد (ت 643هـ/ 1245م)، تاريخ دولة آل سلجوق، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص 21–22، وسيشار إليه لاحقاً البنداري، تاريخ آل سلجوق.

أما ملكشاه (465-485هـ/1072-1092م) فإنه بدوره زوج ابنته للخليفة المقتدي بأمر الله وكان له منها ولد سماه جعفراً، وكناه أبا الفضل[1].

لم يتمكن الخليفة من استرداد سلطاته الدنيوية، حيث خضعت بلاد الخليفة تحت سيطرة السلاجقة، فاتخذ السلاجقة عاصمة لهم غير بغداد، فقد اتخذ السلطانين طغرلبك وألب ارسلان من مدينة الري [2]، عاصمة لهما. واتخذ ملكشاه من مدينة أصفهان[3]عاصمة له [4] وبالتالي أصبح هناك عاصمتان، وأوكل السلاطين إدارة أمورهم المالية والادارية في بغداد إلى موظف يدعى العميد وآخر يدعى الشحنة ويعاون العميد والشحنة عدد كبير من العسكر وبالتالي أصبحت بغداد على الرغم من كونها حاضرة الخلافة العباسية ولاية تابعة لمملكة مركزها في الري ثم أصفهان[5].

ومنع الخلفاء -خلال هذه الفترة- من إنشاء جيش خاص بهم، بل ترك أمر الدفاع عن بغداد إلى القوات السلجوقية مما جعل الخلفاء غير قادرين على مواجهة السلاجقة كما اصبحوا غير قادرين على حماية أنفسهم دون مساعدة القوة السلجوقية في بغداد[6].

بعد وفاة طغرلبك سنة 455هـ/1063م وتولي ابن أخيه الب أرسلان (455-465هـ) سعى هذا للحصول على تفويض بالسلطة من الخليفة القائم بأمر الله، فعمل على التقرب إليه وكسب رضاه وذلك عن طريق إعادة ابنة الخليفة -زوجة طغرلبك- إلى بغداد لعلمه أن الخليفة كان غير راضٍ عن هذا الزواج، فرحب الخليفة برسل السلطان ومنحهم التقليد له بالسلطنة[7].

كان لانتصار السلطان الب ارسلان على الامبراطور البيزنطي رومانوس ديوجينيس في معركة ملاذكرد سنة (463هـ/1070م)، أثر مهم في تدعيم نفوذ السلاجقة السياسي والديني في العالم الاسلامي عامة، والعراق خاصة فأرسل الخليفة القائم بأمر الله رسالة تهنئة إلى السلطان لقبه فيها بأضخم الألقاب وخاطبه فيه "الوالد السيد الأجل المؤيد، المنصور المظفر السلطان الأعظم ملك العرب والعجم، سيد ملوك الأمم، ضياء الدين، غياث المسلمين

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج9، ص 38، ابن الأثير الكامل في التاريخ، ج8 ص 129.

(2) هي مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن كثيرة الفواكه والخيرات وهي محطة الحاج على طريق السابله وقصبة بلاد الجبال بينها وبين نيسابور مائه وستون فرسخاً أنظر الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار الكتاب العربي، بيروت، ج3، ص116 وسيشار إليه لاحقاً ياقوت، معجم البلدان.

(3) مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها ويسرفون في وصف عظمتها أنظر الحموي، معجم البلدان، ج1، ص 206.

(4) الراوندي، راحة الصدور، ص 177، 206.

(5) المصدر نفسه، 206.

(6) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص 20.

(7) ابن الجوزي، المنتظم، ج8، ص 234، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص 98.

ظهير الإمام، كهف الأنام، عضد الدولة القاهر تاج الملة الباهرة سلطان ديار المسلمين برهان أمير المؤمنين حرس الله تمهيده وجعل من الخيرات مزيده"[1].

عاصر القائم بأمر الله سلطانين من سلاطين السلاجقة وهما طغرلبك وألب أرسلان، وإثر وفاته سنة (467هـ/1074م)، بويع بالخلافة من بعده ولده أبو القاسم عبدالله بن محمد الذي تلقب بالمقتدي بأمر الله ولم يكن له أية سلطة فعلية في ظل السلاجقة، ولم يكن له سوى الاسم ولم ينفذ حكمه. وإن التدبير يرجع إلى السلطان ملكشاه، وعندما ولي الخلافة انفذ وزيره عميد الدولة بن جهير إلى السلطان ملكشاه لأخذ البيعة[2].

وخلال زيارة ملكشاه الأولى إلى بغداد سنة (479هـ/1086م)، جرى حفل تفويض نقل فيه الخليفة سلطاته الدنيوية إلى السلطان، فقال وزير الخليفة على لسان الخليفة: "ياجلال الدولة، سيدنا أمير المؤمنين الذي اصطفاه الله لعز الخلافة، واجتباه لشرف الإمامة، واستدعاه للأمة، واستخلفه للدين والملة، قد أوقع الوديعة عندك موقعها واصطفى الصنيعة عندك موضعها، وقلدك سيفين لتكون قوياً على أعداء الله تجوس بلادهم، وتذل رقابهم ولا تألو في مصلحة الرعية مقاماً، ولا تدخر عنها اهتماماً فبطاعته تقبل عليك الخيرات من جوانبها، وتدر البركات بسحائبها"[3]. ولم تتوتر العلاقة بين الطرفين إلا عندما بايع الخليفة لولده المستظهر بالله أحمد بولاية العهد من بعده، لأنه الأكبر ولكن السلطان ملكشاه تدخل في هذا التعيين وهذه المرة الأولى التي يتدخل فيها سلطان سلجوقي بولاية العهد والتي هي حق من حقوق الخلافة العباسية حيث طلب من الخليفة بأن يعهد بولاية العهد لأبنه الأصغر أبا الفضل جعفر، وهو ابن الخليفة من ابنة السلطان وعندما رفض الخليفة الانصياغ لرغبة السلطان، طلب ملكشاه من الخليفة المقتدي، مغادرة بغداد فأنزعج الخليفة من هذا انزعاجا شديدا وأعطاه مهلة عشرة أيام ليتجهز لذلك لكن السلطان توفي قبل انتهاء المدة[4].

توفي المقتدي بأمر الله سنة (487هـ/1094م) وتلاه في الخلافة ابنه المستظهر بالله واستمر في الخلافة حتى سنة (512هـ/1118م) في فترة شهدت صراعات بين أبناء ملكشاه على عرش السلطة، لكن المستظهر بالله وقف موقف المتفرج من كل الصراعات، ولم يحاول

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج8، ص 260-265، الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص 53.
(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 8، ص 120-121، البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص59.
(3) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص 79-80.
(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج9، ص 62.

استغلال هذه الأحداث لإعادة هيبة الخلافة، بل كان ينتظر لمن تـرجح كفتـه ويبـادر إلـى الاعتراف به[1].

ويلخص البنداري فحوى وضع الخلافة تحت سيطرة السلاجقة بقوله "وكان أهون مـا عندهم (أي السلاطين) خلاف الخليفة وعناده، وتمـردهم عليـه بـأن يحـصل مـرادهم لا مراده...... ولهم مطالب من الديوان العزيز لا يفي بها خواصه، ...والحـرم مـن جنايـاتهم خائف، والشرف لمهاباتهم عائف، وشريعة الشريعة مكدرة، والدماء والفروج مستباحة مهـدره والخليفة يغضي ويغضب ويُعتب ولا يَعتب، ويقْدر عليه ولا يَقدر ويُغدر به وهو على العهـد لا يغدر." [2]..."

استمر الخلفاء العباسيون بالتمسك بسلطاتهم الدينية، وقاوموا كل محاولة للاستئثار بها أو التقليص منها، كما عملوا جاهدين للمحافظة على ما كسبوه من نفوذ زمني.

في عهد المسترشد بالله (512-529هـ/1118-1134م) تبدأ مرحلة جديدة وتعد نقطة البدء في مقاومة الخلافة العباسية للنفوذ السلجوقي، مستغلة حالة الـضعف التـي اعتـورت السلطنة السلجوقية بعد وفاة السلطان ملكشاه، واشتداد الصراع على عرش السلطة بين أبنائـه وأشقائه، مما ساهم في تراخي قبضة السلاطين السلاجقة علـى العـراق، وأغـرى الخلفـاء العباسيين ابتداءً من الراشد بالله بإعادة ما كان للخلفاء من سلطات سياسية وإدارية في السابق.

في ظل هذه الأوضاع بدأ المسترشد كفاحه لاسترداد هيبة الخلافـة، وإنهـاء التـسلط السلجوقي عليها، فاستهل حركته لمحاولة الاستقلال بإدارة شؤونه بنفسه بعيـداً عـن سـلطة السلاجقة، فبدأ بتكوين جيش نظامي خاص، بالإضافة إلى تحصين مدينة بغداد وبنـاء سـور حولها[3].

رأى سلاطين السلاجقة أن حركة الخليفة هذه تنذر بتهديد خطير على حكمهم في بغداد وخارجها، فقد بدأ تهديد الخليفة المسترشد لسلطة الـسلاجقة فـي بغـداد عنـدما أحـس أن باستطاعته تحرير الخلافة العباسية من نير سلطة السلاجقة، حيث جـرد الممثلـين للـسلطة السلجوقية في عاصمته من جميع مسؤولياتهم، فبدأ الخليفة بأحمد بن نظـام الملـك الـوزير

---

(1) حلمي، أحمد كمال الدين حلمي، السلاجقة في التاريخ والحضارة، ط1، دار البحوث العلميـة، الكويـت، 1975م، ص 160، وسيشار إليه لا حقاً حلمي، السلاجقة في التاريخ.

(2) البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، ص 216.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 8، ص 314.

السلجوقي في بغداد، واعفاه من كافة مسؤولياته وتولاها الخليفة بنفسه، وقام بإستدعاء وزيره جلال الدولة بن صدقة وسلمه مهام منصب الوزارة[1].

عد السلاجقة هذه الحركة من قبل الخليفة عملاً استفزازياً وخروجاً عن النظام السلجوقي كما قام الخليفة المسترشد بالله بأعمال جذبت إليه الناس، فدعاهم إلى الجهاد ضد المتمردين الذين أظهروا الفساد في بغداد وما حولها خاصة دبيس بن صدقة المزيدي[2] وقد انخرط الناس تحت راية الخليفة وقادهم منتصراً على دبيس المزيدي، هذا الانتصار الذي كان له الأثر الأكبر على نفوس الناس، وأعطى الخلافة قوة معنوية[3].

حاول الخليفة أن يستغل الصراع بين الأمراء السلاجقة، ولكن كان السلطان محمود قد عزم على قصد بغداد لفرض سيطرته على الخلافة وتحديد سلطة الخليفة المتزايدة، فحاول الخليفة المسترشد صده عن ذلك، لكن دون جدوى، مما دعى الخليفة إلى الاستعداد لملاقاته واجتمع لديه من الجند ثلاثون ألف مقاتل من أهل بغداد والسواد؛ وأمر بحفر الخنادق وعندما اقترب السلطان من بغداد أمر الخليفة بجمع السفن والعبور إلى الجانب الغربي، كما أمر بإغلاق أبواب قصره عدا باب النوبي[4] وحين وصل السلطان بغداد لم يجد أحداً من جند الخليفة في الجانب الشرقي منها، فعمل على إقناع الخليفة بالرجوع، إلا أنه رفض ثم قرر بعدها العبور إلى الجانب الشرقي بجيشه وهاجم جيش السلطان، مما اضطرهم إلى الخروج خارج بغداد، غير أن الأمور تغيرت لصالح السلاجقة بسبب انضمام الأمراء إلى السلطان محمود فاضطر الخليفة المسترشد بالله الأمورالقبول للصلح وترددت الرسل بينهما واصطلحا[5].

بعد وفاة السلطان محمود سنة (525هـ/1130) حاول المسترشد بالله تعزيز سلطته مستغلاً خلافات الأمراء السلاجقة، حيث كان الخلاف الداخلي السلجوقي بين السلطان سنجر[6]

---

(1) المصدر نفس8، ص 313.

(2) هو أبو الاعز دبيس بن سيف الدولة أبي الحسن صدقة بن منصوربن دبيس الأسدي، أحد أمراء بني مزيد بالحلة تولى الامارة لفترة طويلة ما بين 501هـ/1117م إلى أن قتله السلاجقة سنة 529هـ / 1134م أنظر ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد (681هـ/1282م)، وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ج8، ص463 وسيشار إليه لاحقاً ابن خلكان، وفيات الأعيان.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 8، ص 318.

(4) هو الباب الرئيسي لقصر الخليفة ببغداد أنظر مصطفى الحياري، صلاح الدين القائد وعصره، ص 158.

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 8، ص 321-322.

(6) هو أبو الحارث سنجر بن ملكشاه بن ألب ارسلان بن داؤد بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق سلطان خراسان وغزنه وما وراء النهر تلقب بالسلطان الأعظم معز الدين كان من أعظم الملوك همه وأكثرهم عطاء ولد سنة 479هـ بظاهر مدينة سنجار لذلك سمي سنجر توفي سنة 552هـ، أنظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص 428.

والذي أخذ جانب طغرل الثاني بن محمد واراد تنصيبه مكان السلطان محمود، وبين مسعود بن محمد الذي أراد أن يخلف السلطان محمود، حيث رأى في نفسه أنه أحق من طغرل الثاني[1].

نشب الصراع على السلطة السلجوقية بين السلطان مسعود وعمه السلطان سنجر، وانتهى بهزيمة السلطان مسعود، وبادر سنجر إلى إجلاس طغرل بن محمد على عرش سلطنة العراق وعاد إلى خراسان[2].

وفي الصراع الذي نشب بين السلطان طغرل وابن شقيقه داؤد بن السلطان محمود، اتخذ الخليفة داؤد إثر لجوئه إلى بغداد وانزله بدار السلطنة سنة (526هـ/1131م) وبعد ذلك استقبل الملك داؤد والملك مسعود وانزلهما بدار السلطنة وخلع عليهما وأجاب طلبهما بالخطبة لمسعود ومن بعده لداؤد بالسلطنة[3]، وبعد عدة معارك بين السلطانين مسعود و طغرل هزم طغرل، وفي سنة (528هـ/1133م) يبرز نجم طغرل من جديد ويضعف أمر مسعود، ويهرب إلى بغداد، ويحتضنه الخليفة ويزوده بكل ما يحتاج إليه من أجل حرب طغرل، إلى أن توارت الأخبار بوفاة السلطان طغرل[4].

شعر الخليفة المسترشد أن له الفضل الأكبر في نجاح السلطان مسعود والتغلب على منافسيه، وأن باستطاعته الاستقلال بشؤون خلافته عن سلطة السلاجقة[5]. حيث بدأ بحذف اسم السلطان مسعود من الخطبة، وأمر بإيقاف الدعاء له على منابر بغداد بعد اسم الخليفة، فأعتبر السلطان مسعود هذا التصرف من قبل الخليفة عملاً عدائياً لا يمكن السكوت عنه، ولا بد من محاربة الخليفة، وتقابل الجيشان في معركة هزم فيها الخليفة هزيمة ساحقة وأخذ أسيراً، وحبس في خيمة إلى أن وثب عليه رجال من الباطنية وقتلوه ومثلوا به[6].

خلف المسترشد في الحكم ابنه الراشد بالله (529–532هـ/1134–1137م) والذي سار على نهج والده في محاولته الاستقلال عن السيطرة السلجوقية، فكان عهده امتداداً للصراع بين الخلافة والنفوذ السلجوقي.

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 8، ص 336، 337.
(2) المصدر نفسه، ص 336، 337.
(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 8، ص 338–340.
(4) المصدر نفسه، ص 342–345.
(5) الغامدي، سعد بن محمد بن حذيفة الغامدي، أوضاع الدول الاسلامية في الشرق الاسلامي، كلية الآداب، جامعة الرياض، ط2، 1983م، ص 53 وسيشار إليه لاحقاً سعد الغامدي، أوضاع الدول الإسلامية.
(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 8، ص 347–348، البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، ص 165.

وكانت أول بوادر الاصطدام بينه وبين السلطان السلجوقي مسعود، رفض الخليفة الراشد بالله دفع الضريبة السنوية للسلطان، كما قام بقطع الخطبة[1]، نتيجة لهذا الموقف تحرك السلطان مسعود نحو بغداد لمحاصرتها، فهرب الراشد لأن الخلافة العباسية في تلك الفترة لم تكن تمتلك من القوة ما يمكنها من التصدي للسلطنة السلجوقية، ولجأ إلى الأمير زنكي في الموصل[2] فلم يطل به المقام حيث نبذه صاحب الموصل فهرب.

في هذه الفتره لجأ السلطان مسعود إلى الحيله لإقصائه عن منصبه، فتودد إلى العلماء والفقهاء وزوّر خطاباً على الخليفة، واستطاع أن يأخذ موافقة الجميع على خلعه وقطع خطبته ومبايعة المقتفي، فحاول الراشد الاستعانه بحكام آخرين لمحاربة مسعود لكن الأمر انتهى بقتله سنه 532هـ/1137م[3].

وتختلف الروايات حول الكيفية التي قتل فيها الراشد وهوية الفاعلين ونياتهم، فهناك من ينسب قتله إلى خدمه من الخرسانية[4]، وهناك من حمل الباطنية تبعية قتله[5]، وهناك من ينسب قتله إلى الجند الذين في معيته[6] ويجعلها ابن الجوزي بثلاث أقوال أحدهما أنه سقى السم ثلاث مرات والثاني أنه قتله أحد الفراشين الذين كانوا في خدمته والثالث أنه قتل على يد الباطنية[7] ويذهب القلانسي أن قتل الراشد تم بأمر قدر له، وعَمل عُمل له[8].

عقب وفاة الراشد جلس على كرسي الخلافة العباسية المقتفي لأمر الله (532-555هـ/1137-1160م)، ومعه تبدأ مرحلة جديدة من مراحل الصراع بين الخلافة العباسية والسلاجقة خاصة بعد وفاة السلطان مسعود سنة (547هـ/1152م). فقد كانت وفاته إيذاناً بإنهيار نفوذ السلاجقة في العراق، حيث استغل المقتفي لأمر الله صراع الأمراء السلاجقة و قام بتقوية مركز الخلافة عن طريق الإيقاع بين ملكشاه وبين السلطان مسعود، كما أمر العامة بحمل السلاح، وقام بإصلاح سور بغداد[9] . ومن ناحية ثانية قام بتعيين عون الدين ابن

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 8، ص 352.
(2) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص 108.
(3) المصدر نفسه، ص 109، حلمي، السلاجقة في التاريخ، ص 162.
(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 8، ص 362.
(5) الراوندي، راحة الصدور، ص 331.
(6) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص 109.
(7) ابن الجوزي، المنتظم، ج10، ص76.
(8) ابن القلانسي، ابي يعلي حمزة ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908م، وسيشار إليه لاحقاً ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق.
(9) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 21.

هبيره[1] وزيراً له، ليكون عوناً له في محاربة السلاجقة وذلك لسداد رأيه ومقدرته مع كفاءته العاليه[2].

تحرر الخليفة المقتفي من العهود التي كان قد ارتبط بهـا أمـام السـلاجقة، ونـشط لاستكمال سيطرته على البلاد، فنجح في تحقيق النصر على قوة سلجوقية كانت في طريقهـا إلى بغداد لفرض السلطان محمد على الخليفة وارغامه على إعلان الخطبة باسـمه، واسـتعد الخليفة سياسياً وعسكريا لمواجهة السلطان محمد، وقرر الزحف نحو دار الخلافة وطلب مـن قطب الدين مودود اتابك الموصل مساعدته، فأمده بفرقه مـن العـسكر بقيـادة نائبـه علـي كوجك[3]. فلما اقترب السلطان محمد من بغداد أرسل إلى الخليفة المقتفي طالباً الاعتراف لـه بالخطبة باسمه، إلا أن الخليفة رفض ذلك[4]. وكان المقتفي قد أعد العدة لمواجهة الموقف فبالغ في تحصين بغداد ونصب المنجنيقات وبنى المراكب والسفن، وفرق السلاح على الجند والعامة فأجمعت عليه العساكر من كل مكان[5]، واشتد القتال بين السلاجقة وجند الخليفة انتهي بهزيمة محمد بن محمود وقام الخليفة بتفويض السلطنة إلى سليمان شاه سلطاناً على خراسان بعـد أن تعهد للخليفة بالنصح والموافقة ولزوم الطاعة وعدم التعرض للعراق بسوء[6].

استقبل أهل بغداد هذا النصر بالسرور، وكان لهذا النصر الذي أحرزته الخلافة أهمية كبيرة فهو من جهة أشعر سلاطين السلاجقة بالخطر على نفوذهم، ووضع من جهـة أخـرى الخلافة من موضع التحدي المباشر لسلطنة السلاجقة، وفي هذا يقـول المـؤرخ البنـداري: "إجتمعت بغداد وقد أتاها الله بالفرح ...ونصر الحق وحق النصر...... وانتشرت عساكر أمير المؤمنين في البلاد...... وعرفت الأعاجم أنه لا مطمع بعدها في بغداد"[7].

---

(1) وهو يحيى بن محمد بن أبو المظفر بن عون الدين ابن هبيره (490-560هـ/1095-1164م) وزيـر الخليفة المقتفي لأمر الله (532-555هـ / 1137 – 1160م). كان حنفي المذهب ديناً خبيراً عالماً يسمع حديث النبي (صلى الله عليه وسلم) وكان ذا رأي سديد أنظر ابن خلكان ، وفيـات الأعيـان، ج6، ص 230-231..

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 26.

(3) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص 228-229.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 9، ص51.

(5) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص 134-135.

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 9، ص48-49.

(7) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص 135.

شمل نفوذ الخليفة العراق بأسره، يوضح البنداري هذا بقوله: "وملك الخليفة العراق من اقصى الكوفة إلى حلوان ومن ناحية تكريت إلى عبدان، واقطع واسط وأعمالهـا، والبـصرة وأنهارها ومعاقلها وولاياتها، والحلة والكوفة،.......... إلى نواحي حلوان"[1].

جرت محاولات من قبل سلاطين السلاجقة، تهدف إلى إعادة مالهم مـن نفـوذ فـي الخلافة العباسية بعد سنة (552هـ/1157م) وبالرغم من أن السلطان محمد بن محمـود بـن ملكشاه ظل طوال سنة (552هـ/1157م) يهيئ نفسه لاستعادة سلطة السلاجقة، لكن مرضـه حال دون تنفيذ ما يزعم عليه [2]. وتوفي سنة 554هـ/1159م[3].

وصلت الخلافة العباسية إلى نوع من الاستقلال والحيوية مقارنة بما كانت عليه خلال الفترات السابقة، وطوال عهد المقتفي بقيت الخطبة في بغداد والعراق بأجمعه للخليفة وحده[4].

وبعد وفاة المقتفي لأمر الله سنة 555هـ/1160م بويع ابنه المـستنجد بـالله (555-566هـ/1160-1170م) فسار على سياسة ابيه في محاولاته للاستقلال عن السلاجقة حيـث رفض طلب السلطان أرسلان شاه بن طغرل الذي خلف السلطان سليمان شـاه بالخطبـة لـه وأعاد رسوله على أقبح حال[5].

وأعاد سيطرته على مدينة الحلة بعد أن أجلى عنها بني أسد وقتـل بعـضهم بـسبب فسادهم، ولأنهم لم يدعموا موقف الخليفة عند مجابهته للسلاجقة، لذا رأى أن يسند أمـر إدارة الحلة إلى بني معروف[6] ولكن سرعان ما توفي بتدبير بعض أعوانه[7].

بويع بعد وفاته المستضيئ بأمر الله (566-575هـ/1170-1179م) ويعد عـصره امتدادا لعصر من سبقه من الخلفاء حيث بقي العراق بعيداً عن أيدي المتنازعين من سـلاطين السلاجقة ويعود ذلك لضعف السلاطين أنفسهم بالإضافة لهيبة الخلافة وسطوتها التي امتـدت إلى أماكن جديدة كانت قد فقدتها في السابق، ويعود ذلك لجهود أمراء الأطراف وفي مقـدمتهم نور الدين محمود صاحب أتابكية حلب ودمشق، حيث نجح صلاح الدين يوسف بـن أيـوب

---

(1) المصدر نفسه، ص 216-217.
(2) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص 143.
(3) الراوندي، راحة الصدور، ص 387، البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص 262.
(4) القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت 821هـ/1418م)، مآثر الانافة في معالم الخلافة، ط1، تحقيـق عبد الستار أحمد فراج، عالم الكتب، بيروت،، 1964م، أعيدت طباعة بالاوفست 1980م، ج2، ص 39، وسيشار إليه لاحقا القلقشندي، مآثر الأنافة.
(5) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص 268.
(6) القلقشندي، مآثر الانافة، ج2، ص 46.
(7) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 9، ص108 .

بالسيطرة على مصر وأعيد ضمها للخلافة العباسية سنة 567هـ/1118م، وقطع خطبة الخليفة العاضد بمصر وأقامها للخليفة المستضيء فارتفعت مكانة الخلافة العباسية[1].

ويمكن اعتبار عصر الناصر لدين الله (575-622هـ/1179-1225م) عصر استقلال الخلافة عن السلاجقه فقد حكم سبعاً وأربعين سنة، تمكن خلالهما من التخلص من سلاجقة العراق، وبلغت الخلافة العباسية في عهده قمة مجدها، حيث أصبحت في حل من أي ارتباط مع السلاجقة وباتت تتمتع باستقلال تام والذي سوف تتم دراسته بشكل مستقل عبر فصول هذه الرسالة.

---

[1] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 9، ص111، ابن واصل، جمال الدين محمد (ت 697هـ/ 1297م) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، 1980، ج1، ص 200، سيشار إليه لاحقاً ابن واصل، مفرج الكروب، القلقشندي، مآثر الأنافة، ج2، ص 51.
Bartold, caliph and sultan, P 133.

الفصل الأول

شخصية الخليفة الناصر لدين الله وسياسته الداخلية

- **الناصر قبل الخلافة:**

هو أبو العباس أحمد بن الحسن، أبوه المستضيئ بأمر الله وجده المستنجد بالله، وهو عباسي هاشمي عربي يرجع نسبه إلى مؤسس الخلافة أبي جعفر المنصور، كانت ولادته يوم الاثنين عاشر رجب سنة 553هـ/1158م[1].

أما أم الناصر فهي أم ولد تركية اسمها زمرد خاتون، وقد أثبت لنا التاريخ العباسي وسير الخلفاء العباسيين أنهم فتحوا قلوبهم وقصورهم لكافة العناصر غير العربية، وهذا ما يؤكده لنا زواج أغلب خلفاء بني العباس بنساء غير عربيات حتى صار أمراً طبيعياً وقد كانت صالحة عابدة كثيرة الإحسان، والبر، والصلاة، والأوقاف، بنت لها تربه إلى جانب قبر معروف الكرخي[2]، عاشت في خلافة ولدها أربعاً وعشرين سنة توفيت سنة 599هـ/1202م ودفنت في التربة التي بنتها لنفسها واستمر العزاء بسببها شهراً[3].

يبدو أن عادة خلفاء بني العباس في إعداد أولادهم لتحمل المسؤولية في المستقبل قد استمرت حتى العصور العباسية المتأخرة، فنجد الخليفة المستضيئ بالله قد عني بتربية أبنائه لذلك نجد الكثير من صفات الفروسية متوفرة في الناصر منذ أن كان ولياً للعهد حيث تصفه مصادرنا التاريخية بالشجاعة والشهامة وأنه بصير بالأمور سائسٌ مهيبٌ مقدام[4].

تدرب الناصر على ركوب الخيل والصيد في البر والبحر والرماية وكان مولعاً بها، كذلك كان يفضل التقرب إلى الناس والظهور على الرعية، إن حبه للرعية وتودده لها في تلك الفترة من حياته يفسر لنا سبب إهتمامه ببناء دور الضيافة والمساجد والرُّبط [5] فقد بني رباط

---

(1) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت 911هـ/1505م)، تاريخ الخلفاء، ط1، نظر فيه وزاد في حواشيه محمد كمال الدين علي، عالم الكتب بيروت، 2003م، ص 414، وسيشار إليه لاحقاً السيوطي، تاريخ الخلفاء.

(2) هو أبو محفوظ، معروف بن فيروز الكرخي، من المشايخ المعروفين بالزهد والورع صحب داود الطائي، توفي سنة 200هـ، أنظر ابن جبير، أبو الحسن محمد الأندلسي (ت 614هـ / 1217م)، رحلة ابن جبير اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك، ط1، تعليق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، ص176، وسيشار إليه لاحقاً ابن جبير، الرحلة.

(3) ابن الساعي، ابو طالب علي بن انجب تاج الدين (ت 674هـ/1275م)، الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، تعليق مصطفى جواد، المطبعة السريانية الكاثوليكية 1934، ج9، ص 55، وسيشار إليه لاحقا ابن الساعي، الجامع المختصر. ابن كثير، أبي الفداء (ت 774هـ / 1372م)، البداية والنهاية في التاريخ، ط7، مكتبة المعارف، بيروت، ط7، 1988م، ج13، ص36 وسيشار إليه لاحقاً ابن كثير، البداية والنهاية، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص261.

(4) ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (ت 709هـ/ 1309م)، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر بيروت، ص 322، وسيشار إليه لاحقاً ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية.

(5) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص 322،

الخلاطية بمشرعة الكرخ ورباط الحريم[1]، كذلك بني رباط المزربانية علـى شـاطئ نهـر عيسى[2].

يبدو أن ظروف تولي الناصر الخلافة لم تكن طبيعية، فقد كان هناك تنافس بين ولدي المستضيئ أبي العباس وأبي منصور فكان رجال الدولة فريقين فريق مؤيد وفريق معـارض. ويظهر ذلك في قول الذهبي: "كان المستضيئ قد تخوف منه فحبسه ومال إلـى أخيـه أبـي منصور وكان ابن العطار وكبراء الدوله ميلهم إلى أبي المنصور، وكانت حظية المستـضيئ بنفشا والمجد ابن الصاحب وطائفة مع أبي العباس" [3].

على أن الناصر لم ينسَ موقف ابن العطار[4]. وابن الصاحب[5].منه كما سنرى ذلـك بعد توليه الخلافة.

كانت حياة الناصر قبل الخلافة حياة صعبة وحساسة بسبب ماتعرض له من مضايقات حول ولاية العهد ويبدو أن هذه المشادة حول ولاية العهد كانت تظهر وتتكرر بين حين وآخر خلال العصر العباسي، ولم يتعظ بها الخلفاء بل إن الناصر نفسه في قرارته المتعلقة بولايـة العهد قد كرر الموقف نفسه، رغم الظروف والأسباب التي قد تختلف من عهد إلى آخر ومـن خليفة إلى آخر[6].

---

(1) ابن الكازروني، ظهير الدين علي بن محمد (ت 697هـ/1297م)، مختصر التاريخ من أول الزمان إلـى منتهى دولة بني العباس، تحقيق مصطفى جواد، مطبعة الحكومة بغداد، 1970، ص 246 وسيشار إليـه لاحقا ابن الكازروني، مختصر التاريخ.

(2) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص 99.

(3) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت 748هـ/1374م)، سير أعلام النبلاء، ط1، تحقيق بشار عـواد معروف ومحيي هلال السرحان، مؤسسة الرسالة بيروت، ط1، 1985م، ج22، ص 193، وسيشار إليه لاحقا الذهبي، سير أعلام النبلاء.

(4) هو ظهير الدين أبي بكر منصور بن أبي القاسم نصر بن العطار، كان تاجراً في بداية أمره ثم اسـتوزره الخليفة المستضيء، وكان ثقيل الوطأه على الرعية فكانت العامة تبغضه فبقي إلى أن مات المستـضيء وولي الناصر، أنظر ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص 321.

(5) هو مجد الدين أبو الفضل هبه الله بن علي المشهور بإبن الصاحب كان شيعياً وولي حجابة البـاب زمـن المستنجد وولاه المستضيء أستاذيه الدار وأقره الخليفة الناصر في منـصبه ورد إليـه أكثـر الأمـور فارتفعت منزلته إلى أن قتل سنة 583هـ/1187م، أنظر الذهبي، سير أعلام النـبلاء، ج21، ص164-165.

(6) فوزي، فاروق عمر فوزي، الخلافة العباسية السقوط والانهيار، دار الشروق للنـشر، 1998م، ج2، ص 208، وسيشار إليه لاحقاً فاروق عمر، الخلافة العباسية..

الناصر خليفة للمسلمين:

تولى الخليفة أبو العباس أحمد بن المستضيء بالله الملقب بالناصر سدة الخلافة العباسية بعد وفاة والده الخليفة المستضيء بالله في مستهل ذي القعدة سنة 575هـ/1179م[1]. تولى أخذ البيعه له ظهير الدين بن العطار صاحب المخزن، واستاذ الدار مجد الدين أبو الفضل بن الصاحب[2]. وكان عمره يوم البيعة له ثلاثاً وعشرين سنه وشهراً، خطب له ونثرت الدنانير على المنابر، ومدحه أمين الدولة أبو الفتح بن عبيد الله سبط ابن التعاويذي، وهو من فحول شعراء العراق بقصيدة أولها:

كيف لا يفضل السواد وقد أضحى شعاراً على بني العباس
أمناء الله والكرام وأهل الجود والعلم والتقى والباس
ولقد زينت الخلافة منهم بإمام الهُدى أبي العباس
ملكٌ، جل قدسه عن مثال وتعالت آلاؤه عن قياس
يالها بيعه أجدت من الاسلام بالي رسومه الأدراس
وإلى الله أمرها، فله المنه فيها عليه، لا للناس[3]

بايعه حكام أقاليم الخلافة ودول الأطراف وخطب له في بلاد الأندلس والصين[4]، كذلك سيرت الرسل إلى الآفاق لأخذ البيعة فسير صدر الدين شيخ الشيوخ[5]، إلى البهلوان[6]صاحب همذان وأصفهان والري فامتنع من البيعة فراجعه صدر الدين وأغلظ له القول أمام عسكره وحرضهم على أن يخلعوه فاضطر لأخذ البيعة وأرسل رضي الدين القزويني مدرس النظامية إلى الموصل لأخذ البيعة فبايع وخطب للخليفة الناصر لدين الله في الستة[7].

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 148.

(2) ابن العبري، غريغورس أبي الفرج بن اهرون الملطي (ت 685هـ/1286م)، تاريخ مختصر الدول ص 217، وسيشار إليه لاحقا ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص 90. الاربلي، عبد الرحمن سنبط قنيتو (ت 717هـ/1317م)، خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك، ط1، تصحيح مكي السد جاسم، مكتبه المثنى بغداد، ط1، 1964م، ص 280 وسيشار إليه لاحقا الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص 89-90.

(4) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 416.

(5) هو شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن اسماعيل قدم رسولا على صلاح الدين من بغداد مراراً توفي بالرحبه سنة 580هـ/1184م، أنظر أبو شامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بذيل على الروضتين، ص 17. وشيخ الشيوخ وظيفة دينية مهمتها النظر في بعض المؤسسات الدينية والاجتماعية مثل الخوانق والربط ومؤسسات الصوفية والزهاد والمنقطعين إلى الله من الرجال والنساء.

(6) هو ابن الاتابك الدكز من كبار الملوك كوالده مات أبوه هو وسلطان رسلان شاه بن طغرلبك في سنه واحده عام 570هـ فتملك البهلوان وأقام في السلطنة مع طغرلبك بن أرسلان توفي سنة 581هـ/1185، أنظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج21، ص 144-145.

(7) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 149.

وبايعه الوزراء والكبراء والعامة وكان قد خطب له على المنابر في حياة أبيه قبل موته بيسير، فقيل أنه أنما عهد له قبل موته بيوم وقيل بأسبوع ولكن قدر الله أنه لم يختلف عليه اثنان بعد وفاه أبيه[1] وجعل نقش خاتمة "رجائي من الله عفوه"[2].

ثم جلس للمبايعة البيعة الخاصة يقول الذهبي: "فجلس للمبايعة في العتبة، فبدأ أخوه وبنو عمه وأقاربه ثم دخل الاعيان فبايعه الاستاذ دار مجد الدين هبه الله ابن الصاحب، ثم شيخ الشيوخ ثم فخر الدوله أبو المطلب، ثم قاضي القضاة على ابن الدامغاني[3]، وصاحب ديوان الانشاء أبو الفرج محمد بن الانباري[4]، والحاجب ابو طالب يحيى بن زيادة[5]، ثم طلب الوزير ظهير الدين بن العطار وكان مريضاً فأركب على فرس، ثم تعضده جماعة وأدخل وبايع"[6].

ثم جلس الناصر بعد ثلاثة أيام في دار الملك للبيعة العامة ولتلقي التهاني من وفود الاقاليم ومن وجوه وأعيان الناس فيها وكان من بينهم ضياء الدين الشهرزوري الذي جاء برسالة التهنئة من صلاح الدين الأيوبي، وكانت وفود بلاد الشام والثغور ومصر قد حضرت ومعها شعراؤها للتهنئة والبيعة، فكانت مناسبة أظهرت فيها مؤسسه الخلافة العباسية في بغداد مظاهر الأبهة والابتهاج والبشرى بالعاهل الجديد، كما شارك الناس في هذه الاحتفالات وتمنوا أن تكون أيام الناصر أيام خصب ورفاهية بعد ما عانوه من سني البؤس واليأس في السنين الماضية[7].

أراد الخليفة الناصر أن يحل محل والده في الخلافة، فلما آلت إليه أخذ الحذر من أهله وأقاربه ووجد أن أسلم طريقة للخلاص منهم في إعتقالهم ومنعهم من الاتصال بأحد من الناس.

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص 305.

(2) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص 243، الاربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص 280، الذهبي، سير اعلام النبلاء، ج 22، ص 193.

(3) هو أبو الحسن على بن أحمد بن الدامغاني أول قضاة الخليفة الناصر لدين الله توفي سنة 583هـ/1187م، أنظر ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص 203.

(4) هو كاتب السر للخلافة، سديد الدولة، محد بن عبد الكريم بن ابراهيم بن رفاعة الشيباني ابن الأنباري أقام في كتابه الانشاء خمسين سنه، وناب في الوزارة، ونفذ رسولاً إلى الشام وإلى خراسان، أنظر الذهبي، سيير أعلام النبلاء، ج20، ص 350-351.

(5) هو رئيس ديوان الانشاء قوام الدين أبو طالب يحيى بن سعيد بن هية الله بن علي ين زيادة الواسطي ثم البغدادي كان رب فنون وفقه وأصول وولي المناصب الجليلة وولي نظر واسط توفي سنه 594هـ انظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج21، ص 336-337.

(6) الذهبي تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ط1، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط1، 1966م، حوادث ووفيات 571-580هـ، ص 36، وسيشار إليه لاحقا الذهبي، تاريخ الاسلام.

(7) فاروق عمر، الخلافة العباسية، ج2، ص 208.

ويشير ابن جبير إلى ذلك عند زيارته بغداد في صفر سنة 580هـ/1185م، بقوله: "أما الشرقية فهي اليوم دار الخلافة وكفاها بذلك شرفاً واحتفالاً ودور الخلافة في آخرها وهي تقع منها في نحو الرابع أو أزيد لأن جميع العباسيين في تلك الديار معتقلين إعتقالاً جميلاً لا يخرجون ولا يظهرون ولهم المرتبات القائمة بهم[(1)]".

ويعد الناصر لدين الله من أبرز الخلفاء العباسيين الذين عاصروا سلطنة السلاجقة، ومن اكثرهم سعياً لإعادة هيبة الخلافة. فقد جعل همه خلال حكمه الطويل أن يحيي الخلافة ويعيد لها ماضي هيبتها وجلالها، وقد بذل في سبيل ذلك جهوداً كبيرة ومتشعبة ولجأ إلى سياسات متناقضة تناسب الظروف لدرجة اختلف فيها المؤرخون المعاصرون له والمحدثون في تقييم شخصيته.

وقبل الحديث عن صفاته الخُلقية لا بد من إلقاء نظرة على صفاته الخَلقية فقد كان أبيض، معتدل القامة، تركي الوجه، مليح العينين، أنور الجبهة أقنى الأنف، خفيف العارضين، أشقر، رقيق المحاسن[(2)].

ويصفه الأربلي بقوله: "كان أبيض مدور الوجه مليح العينين صغيرهما"[(3)]. في حين يصفه ابن جبير في رحلته فقد شاهد الخليفة نفسه حيث يقول: "هو في فتاء من سنه، أشقر اللحية صغيرها كما اجتمع بها وجهه حسن الشكل جميل المنظر أبيض اللون، معتدل القامة، رائق الرواء سنه نحو الخمس والعشرين....." [(4)].

أما بالنسبة لصفاته الخُلقية فنجد القلقشندي يصفه بقوله: "أنه كان قبيح السيرة في رعيته ظالماً لهم، خرب في أيامه العراق، وتفرق أهله في البلاد"[(5)].

ووصفه ابن الطقطقي "بأنه من أفاضل الخلفاء وأعيانهم، بصيراً بالأمور مجرباً سائساً مهيباً، مقداماً عارفاً شجاعاً، متأيداً حاد الخاطر والنادر، متوقد الذكاء والفطنة بليغاً غير مدافع عن فضيلة عام ولا نادرة فهم، يفاوض العلماء مفاوضة خبير، ويمارس الأمور السلطانية ممارسة بصير"[(6)].

---

(1) ابن جبير، الرحلة، ص178.
(2) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص 243، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 22، ص 193، العبر في خبر من غبر، ط1، تحقيق صلاح الدين المنجد، التراث العربي سلسلة تصدرها وزارة الإعلام في الكويت، ج5، ص 340–341، وسيشار إليه لاحقاً الذهبي، العبر.
(3) الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص 280.
(4) ابن جبير، الرحلة، ص 179.
(5) القلقشندي، مآثر الانافة، ج2، ص 56.
(6) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص 322.

ويصفه اليافعي "كان فيه شهامه وإقدام وعقل ودهاء مستقلاً بالامور بالعراق متمكنا من الخلافة[1]".

ووصف بأنه "كان قبيح السيرة في رعيته ظالماً لهم خرب في أيامه العراق، وتفــرق أهله في البلاد"[2].

في حين وصفه ابن العماد الحنبلي "بأنه فيه شهامة واقدام وله عقل ودهاء وهو أطول بني العباس خلافة"[3].

وقيل دانت السلاطين للناصر، ودخل في طاعته من كان من المخالفين، وذلت له العتاه والطغاة وانقهرت بسيفه الجبابرة، واندحض أعداؤه، وكثر أنصاره، وفتح البلاد العديدة[4] وقد وصفه الذهبي بقوله: "فيه شهامه واقدام، وله عقل ودهاء كان مشتغلا بالأمور بالعراق متمكناً من الخلافة يتولى الأمور بنفسه"[5]، وهناك من يراه رديء السيرة في رعيته، ظالماً عــسوفاً خرب العراق في أيامه، وتفرق أهله في البلاد فأخذ أموالهم و أملاكهم"[6].

وهناك بعض المصادر تصفه بأنه عندما ولي الخلافة بسط العدل وأمر بالنــداء فــي الناس به وأمر بكسر الملاهي، وأراقة الخمور، وإقامة الحدود، ومنع مــن التظــاهر بــشرب الخمر والمنكرات[7].

وهكذا نرى أن كل مؤرخ يصور لنا الناصر من وجهة نظره رغم أن عدداً منهم لــم يعاصر الناصر ولم يره وهو بعيد عنه إما زمانياً أو مكانياً.

ويبدو أن السياسات التي اتبعها الناصر هي وراء هذا التناقض لدى المــؤرخين فــي وصفه والذي أراه أن الناصر شخصية عظيمة حيث استطاع أن يقضي على التسلط الأجنبــي المتمثل بالسلاجقة وإعادة مجد الأمة وقام بتوحيد الأمة عن طريق نبــذ الخلافــات المذهبيــة واهتمامه بالشباب عن طريق تنظيم الفتوه وبالتالي فهو نهض بالخلافة من الضعف إلى القوة.

---

(1) اليافعي، ابي محمد عبد الله بن أسعد (ت 768هــ/1366م)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفــة مــا يعتبر من حوادث الزمان، ط1، وضع حواشية خليل المنصور، دار الكتب العلمية بيروت، 1970م، ج4، ص40 وسيشار إليه لاحقاً اليافعي، مرآة الجنان.

(2) أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل (ت 732هــ/1331م)، المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت، ج3، ص135–136، وسيشار إليه لاحقا أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر.

(3) الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد، (ت 1089هــ/1678م) ، شذرات الذهب في أخبار من ذهــب، ط1، دار المسيره بيروت، 1979م، ج5، ص 97، وسيشار إليه لاحقا الحنبلي، شذارت الذهب.

(4) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 416.

(5) الذهبي، العبر، ج5، ص 87–88.

(6) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت 845هــ/1442م)، السلوك لمعرفة الدول والملوك، ط1، تحقيــق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت، 1997م، ج1، ص 340–341، وسيشار إليه لاحقــاً المقريزي، السلوك.

(7) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص 91.

- سياسة الناصر لدين الله الداخلية

عاش الناصر في عصر حفل بتغيرات كبيرة في العالم الإسلامي، فقد بدأت قوة السلاجقة بالتلاشي بعد فترة من الصراع والتمزق السياسي، وظهرت على حسابها دول جديدة في مشرق العالم الإسلامي كالدولة الخوارزمية والدولة الغورية والدولة القره خطائية. وفي هذه الفترة خرجت مصر من عزلتها الفاطمية وعادت إلى دائرة العالم الإسلامي السني على يد نور الدين محمود وأسد الدين شيركوه ومن بعده صلاح الدين الأيوبي، وبدأت تبرز على مسرح الأحداث في هذا العصر الدولة المغولية الوثنية وهذا مايفسر نشاط الخليفة الناصر السياسي المتعدد الوجوه، في ظل تضارب مصالح هذه الدولة وتنافسها على السيادة فحاول أن يجدد قوة الخلافة ويحافظ على استقلاليتها التي أرسيت قواعدها في عهد الخليفة المقتفي، ونظراً لعدم تحقق الوحده السياسية التي ينشدها حول دولة الخلافة فعلى الأقل فرض هيبته واحترامه على هذه القوى ولو على الأقل هيبته المعنوية فسعى إلى تجديد مؤسسة الخلافة بإعطائها سلطة أخلاقية جديدة[1].

حرص الناصر على التقرب من جميع فئات الشعب في بغداد فحاول التأليف بين الإتجاهات السنية والشيعية معاً. وقد مرت سياسة الناصر في تعامله مع السنة والشيعة بثلاث مراحل تمثلت المرحلة الأولى في محاولة التقرب من الشيعة في الفترة الزمنية (575-583هـ/1179-1187م)، وتمثلت المرحلة الثانية في محاولة التقرب من السنة وذلك في الفترة الزمنية (583-590هـ/1187-1193م)، أما المرحلة الثالثة فتمثلت في تبني الناصر الفتوه في الفترة ما بين (590-622هـ / 1193 - 1235م) وهذا ما تعكسه رواية عبد اللطيف البغدادي المعاصر له يقول: "ظهر التشيع بسبب ابن الصاحب ثم انطفأ بهلاكه، وظهر التسنن المفرط ثم زال، وظهرت الفتوه والبندق والحمام الهادي وتفنن الناس في ذلك ودخل فيه الاجلاء ثم الملوك....." [2].

كان الخليفة يسعى إلى التقرب من السنة والشيعة معاً ليخلق نوعاً من التماسك الداخلي حول الخلافة في وجه الطامعين بها من أمراء الأطراف.

---

(1) كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ، سينا للنشر القاهرة، ص 242، وسيشار إليه لاحقا كلود كاهن، الشرق والغرب.

(2) عبد اللطيف البغدادي، موفق الدين أبو محمد (ت629هـ/1231م)، الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، ط1، تحقيق أحمد غسان سبانو، دار قتيبه، دمشق، 1983، ضمن كلود كاهن، ترجمة الخليفة الناصر، ص107 وسيشار إليه لاحقاً كلود كاهن، الخليفة الناصر، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج22، ص 149.

فقد كان أهل السنة يمثلون أكثرية سكان العراق في هذه الفترة، كما أنهم كانوا يمثلون الأكثرية من سكان بغداد إذا استثنينا بعض المناطق التي كانت تجّمع لأهـل الـشيعة كمـشهد الإمام موسى الكاظم(1) والمختارة بالإضافة إلى أماكن أخرى.

حيث كانت الظروف السياسية التي تعرضت لها البلاد في منتصف القـرن الـسادس الهجري الثاني عشر الميلادي قد فرضت على سكان بغداد التجمـع علـى أسـاس مـذهبي فاشتهرت أحياء كباب الازج وسوق السلطان و مشهد أبي حنيفة في الجانب الـشرقي وبـاب البصرة(2)، والحربية(3) في الجانب الغربي بأنها مسكن أهل السنة كما اشتهر حي الكرخ بأنـه مسكن أهل الشيعة(4).

وقد تبدلت أحوال الشيعة عندما تولى الناصر الخلافة وتحكم استاذ داره ابن الصاحب في سياسة الدولة فقد أطلق العنان لهم وأعاد احتفالاتهم الدينية حتى أصبحت تقام أمام حجـرة الخليفة مباشرة، فحاول الناصر أن يتقرب من الشيعة وان يعمل على كسب تأييدهم حتى أتهـم بأنه إمامي الرأي(5)، فقد جعل من مشهد موسى أبي جعفر مقاماً آمناً وسمى الطيـور بأسـماء الأئمة الاثني عشر(6)واستوزر من الشيعة أربعـة وزراء(7) وافـسح المجـال لهـم فأعـادوا احتفالاتهم الدينية ولكن هؤلاء الموظفين لم يقدروا هذا التسامح فـاغتنموا الفرصـة للـبطش والانتقام من أهل السنة وسفك الدماء مما فوت على الخليفة أهدافه.

---

(1) هي مدينة الكاظمية اليوم وهي إحدى المدن المقدسة في العراق لدى الشيعة على بعد خمسة كيلو متـرات عن شمال بغداد وقامت فيها موضع مقبرة قريش الكبرى وقد دفن فيها الإمام موسى بن جعفـر الملقـب بالكاظم في سنة 183هـ/799م، فنسبت إليه ولما توفى حفيده الإمام محمد بن علي الملقب بالجواد فـي سنة 220هـ/835م، دفن إلى جواره فبنى شيعتها عماره حول القبرين ثم وسعوا فيها فـصارت مـشهد موسى الكاظم أو مشهد الكاظمية، أنظر كي لسترانج، بلدان الخلافة الشرقية، ط2، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة بيروت، 1985م، وسيشار إليه لاحقاً لسترانج بلدان الخلافة الشرقية.

(2) هو أحد أبواب مدينة بغداد في الجنوب الشرقي، وهو يفض إلى الارباض الممتدة على ضفة دجلة حيـث تصب فروع نهر عيسى المختلفة أنظر لسترانج، بلدان الخلافة الشرقية، ص 48.

(3) محلة كبيرة مشهورة ببغداد عند باب حرب قرب مقبرة بشر الحافي وأحمد بن حنبل وتنسب إلى حرب بن عبد الله البلخي ويعرف بالراوندي بها أسواق من كل شيء بينها وبين بغداد نحو ميلين وينـسب إليهـا طائفة من أهل العلم ياقوت، معجم البلدان، ج1، ص237.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 172.

(5) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص322.

(6) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص417.

(7) حكموا معظم فترة خلافته وهم مؤيد الدين ابن القصاب الذي تولي النيابة والوزارة أكثر من ثلاث سنوات ثم ناصر بن مهدي وقد تولاها مدة اثنتي عشرة سنه ثم فخر الدين ابن امسينا تولاها مدة سنتين وآخرهم مؤيد الدين بن القمي الذي تولى الوزارة من سنة 606هـ ثم تولاها للظاهر ثم للمستنصر حتـى قـبض عليه المستنصر وحبسه في باطن دار الخلافة مده فمرض وأخرج مريضاً فمات في سنه 629هـ، أنظر ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص 324-328، القزاز، محمد صالح داود القزاز، الحيـاة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير، مطبعة القـضاء النجـف، 1971م، ص 167-168، وسيشار إليه لاحقاً القزاز، الحياة السياسية في العراق.

أما ظهور التشيع في الفترة الأولى (575–583هـ) فقد كان سببه تحكم ابن الصاحب بالأمور في بغداد. وسبب تحكمه في الأمور عائد إلى ظروف تولي الناصر للخلافة فقد كـان المستضيء والد الناصر يتبع سياسة سنية حيث قرب منه أهل السنة فكان ابن العطار متحكما في أمور الدولة وكان شديداً على الشيعة وأهل الكرخ. هذه السياسة أدت إلى اضعاف شـأن الشيعة في بغداد حتى قيل "في أيامه اختفى الرفض ببغداد ووهى"[1].

لكن الأمر لم يكن بهذه الصورة فقد كان استاذ الدار شيعياً وهو ابن الصاحب وهناك ابن العطار وهو سني، حيث كان للمستضيء ولدان هما: أبو العباس وأبو منصور وكان السنة يؤيدون ابا منصور والشيعة يؤيدون أبا العباس وقد تمكن السنة في البداية من إثارة المخاوف لدى الخليفة من ولده أبي العباس فحبسه ومال إلى أخيه أبا منصور[2] لكن الأمر بالنهاية لـم يكن كما أراد ابن العطار حيث بويع للناصر بولايه العهد[3] وقد تولى أخذ البيعة له على الناس استاذ الدار ابن الصاحب[4].

نتيجة لهذه الظروف نجد الناصر يتخذ موقفاً من ابن العطار فتقدم في اليوم الخـامس من البيعة إلى عماد الدين صندل المقتفوي وسعد الدولة نظر المستنجدي الحبشي بالمضي إلى دار ابن العطار في عده من المماليك للقبض عليه فجاءوا ودخلوا عليه من غير إذن وقبـضوا عليه بين الحريم[5]. ثم نقل إلى التاج وقيد وطلبت ودائعه وأمواله ثم أخرج ميتـاً علـى رأس حمال سراً فغمز به بعض العامة فثار به العامة وألقوه عن رأس الحمـال وكـشفوا سـوءته وشدوا في ذكره حبلاً وسحبوه في البلد وكانوا يضعون بيده مغرفه ويقولون: وقع لنا يا مولانا إلى غير ذلك من الأفعال الشنيعة ثم خلص من أيديهم ودفن[6].

وفي نفس الوقت رفع من شأن ابن الصاحب حتى صار متحكماً في الدولة لدرجة أنـه يذكر اسمه على المنابر يوم الجمعة بعد اسم الخليفة مباشرة ولم يبـق للخليفـة معـه كلمـة تطاع[7].

---

(1) الذهبي، العبر، ج4، ص 224.
(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج22، ص 194.
(3) نفس المصدر، ص 194.
(4) الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص 280.
(5) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ووفيات 571–580هـ، ص 36.
(6) ابن العبري، تاريخ مختصرالدول، ص217–218، ابن الطقطقي، الفخري فـي الآداب الـسلطانية، ص 323، أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص 62، القلقشندي، مآثر الأنافة، ج2، ص57.
(7) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 189، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 12، ص 328.

قال عنه ابن الأثير "إنه كان متحكماً في الدولة ليس للخليفة معه حكم وكــان رافــضياً سباباً أحيا شعار الإمامية وبسط الخليفة يده وقربه تقريباً زائداً فــراج الــرفض فــي زمانــه وشمخت المبتدعة وسفك الدماء وسب الصحابة وبطر بطراً شديداً"[1].

استغل ابن الصاحب مكانته هذه في إظهار التشيع فارتفع شأن الشيعة حتى نسب إلــى بعضهم الخروج إلى الشوارع وسب الصحابة قائلين "لم يبق كتمان بعد اليوم"[2].

ويتهمه السبط بأنه كان السبب في إعادة الاحتفالات بذكرى عاشوراء بــصفه رســميه حتى أقيمت وراء دار الخلافة.

ويذكر محمد بن القادسي صاحب ذيل المنتظم "وفي عاشوراء 582هـــ فرش الرمــاد في الأسواق وعلقت المسوح وناح أهل الكرخ والمختارة وبغداد وخرجت النــساء حاســرات يلطمن وينحن من باب البدرية إلى حجرة الخليفة، والخلع تفاض عليهن وعلى المنشدين مــن الرجال وتعدى الأمر إلى سب الصحابة، وكان أهل الكرخ يصيحون ما بقي كتمان، وأقــاموا امرأة يقال لها ابنة قرابه على دكه تحت منظرة الخليفة في الرياحين وحولها ألف من الرجــال والنساء وهي تنشد أشعار العومي وغيره وتسب عائشة (رضي الله عنها) وتذكر حادثة الإفــك قال: وكل هذا منسوب إلى استاذ الدار ابن الصاحب"[3].

ومما ساعد هذا الأمر تسامح الخليفة الناصر مع الشيعة ففي سنه 580هـــ/1185م جعل الخليفة مشهد والجواد أمناً لمن لاذ به فحصل بذلك بلاء ومفاسد[4] وكان يدافع عن معتقداتهم ويعاقب من يظهر مخالفتهم وقيل عنه أنه كان يتشيع بخلاف آبائه[5].

يعني أنه كان يتشيع ويميل إلى مذهب الاماميه، وهو خلاف ما كان عليه آباؤه من القادر إلى المستضيء فإنهم كانوا يذهبون مذهب السلف[6].

ويظهر أن تسلط ابن الصاحب على الخلافة أشعر أهل السنة بالخطر فتعاونوا على التخلص منه فأشاعوا بأنه قد عزم على تغيير الدولة وأكثروا السعاية فيه إلى الخليفة وعظموا عليه أمره وأشاروا بقتله وإلا صعب أمره حتى أمر الخليفة بذلك[7].

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 189.
(2) الذهبي، العبر، ج4، ص247.
(3) سبط ابن الجوزي، ابو المظفر يوسف بن قزأوغلي التركي، (ت654هـــ/1256م)، مرآة الزمان في تاريخ الاعيان، ط1، مطبعة مجلة دائرة المعارف العثمانية بحيد أباد الــدكن-الهنــد، 1951م، ج8، ص 386 وسيشار إليه لاحقاً سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان.
(4) الذهبي، سير أعلام النبلاء،ج22، ص 205.
(5) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 416، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 22، ص200.
(6) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج22، ص200. نقلا عن ابن واصل، مفرج الكروب.
(7) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 189، أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص74.

وفي نفس الوقت كانت السنة تلقى كل الدعم ,فكان الناصر يدعو شيخ الحنابلة عبد الرحمن بن الجوزي لعقد مجلس الوعظ ,ويحضر الخليفة هذه المجالس[1] وأمر سنة 608هـ / 1211م بأن يقرأ مسند الإمام احمد بن حنبل بمشهد موسى بن جعفر[2] .ومما يدل على تقربه من السنه والشيعة أنه اشتهر عدة أشخاص وصلوا إلى مراكز متقدمة في الدولة منهم ناصر بن مهدي الذي ولي نقابه الطالبيين ثم فوض إليه أمور الوزارة[3] ومنهم ابن العلقمي فقد كان شيعياً وتولى مناصب عليا في الدولة.

من الاجراءات التي قام بها الخليفة الناصر للتقريب بين السنة والشيعة هو نظام الفتوه والذي سوف أتحدث عنه بالتفصيل لاحقاً. وهذه الاجراءات كلها تدل دلاله واضحة على أن الناصر كان حريصاً على التقريب بين السنة والشيعة للنهوض بالخلافة وإعادتها إلى قوتها ومكانتها السابقة.

وهناك ملاحظة هامة وردت في رحلة ابن جبير عند وصفه للحرم الشريف في مكة المكرمة حيث يقول: "وللحرم أربعة أئمة سنية، وإمام خامس لفرقة الزيديه وأشراف أهل هذه البلدة، وهم يزيدون في الأذان حي على خير العمل فأول الأئمة السنية رحمه الله لأنه المقدم من الإمام العباسي"[4].

هذه الحقيقة تشير إلى مساعي الخليفة الناصر لدين الله في جمع كل أصحاب المذاهب الرئيسية الأربعة الحنفي والشافعي والحنبلي والمالكي من حوله حتى تزداد الألفه بين أصحاب هذه المذاهب وذلك بإشاعة نظرة التسامح والمساواة في ما بينهم.

وعرف عن الأمير طاشتكين[5] زعيم خوزستان و أمير الحج في زمن الناصر أنه كان متشيعاً[6].

حرص الناصر على تقريب العلماء والزهاد ورجال الصوفية في بغداد، وبناء المدارس والمساجد والأربطة[7] ففي سنة 585هـ/1189م فتح الرباط الذي بناه الخليفة بالجانب الغربي من بغداد وحضر الخلق العظيم فكان يوما مشهوداً[8].

---

(1) ابن جبير، الرحلة، ص 173.
(2) الذهبي ، تاريخ الاسلام، حوادث ووفيات،601-610، ص 35.
(3) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص 325، ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 43.
(4) ابن جبير، الرحلة، ص 81.
(5) هو طاشتكين بن عبد الله المقتفوي، أمير الحاج ولقبه فخر الدين، حج بالناس ستاً وعشرين سنة ت سنة 602هـ، أنظر العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 120.
(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 205.
(7) الاربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص 281.
(8) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 283.

وفي سنة 589هـ/1193م جدد الخليفة خزانة كتب المدرسة النظامية ببغداد ونقل إليها ألوفاً من الكتب الحسنة المثمنة[1] وفيها فرغ من عمارة الرباط الذي أمر بإنشائه بالحريم الطاهري، غربي بغداد على دجلة، وهو من أحسن الربط، ونقل إليه كتباً كثيرة من أحسن الكتب[2].ووقف خزائن كتب محتوية على جميع العلوم النافعة وجعلها وقفاً على المسلمين ولم يبلغ أحد ممن قبله ما إستجد من الأبنية التي يبقى ذكرها ويضوع نشرها[3].

ولمزيد من التقرب من العلماء والفقهاء اشتغل الناصر في وسط ولايته برواية الحديث حيث أجاز له أبو الحسن اليوسفي[4] وعلي بن عساكر البطائحي[5] وشهده الكاتبة [6] وطائفة وجماعة غيرهم[7]. استناب الناصر نواباً في الاجازة عنه والتسميع، وأجرى عليهم جرايات، وكتب للملوك والعلماء أجازات وجمع كتاباً سبعين حديثاً وصل إلى حلب على يد

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآه الزمان، القسم الأول، ج8، ص 422، ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص6.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 229.

(3) ألاربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص 281.

(4) هو الشيخ عبد الخالق أحمد بن عبد القادر بن محمد بن يوسف البغدادي ولد سنة 494هـ وسمح الحـديث وكان اثبت أقرانه توفي سنة 575هـ/1179م أنظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج20، ص550-552.

(5) هو إمام القراءات مقدم في هذا الشأن حتى صار مقرئ العراق كما روي الحديث ولد سنة 490هـ وتوفي 572هـ أنظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج20، ص 548-550.

(6) هي فخر النساء شهده بنت أبي نصر أحمد بن الفرج عمد الأبري الكاتبة كان لها السماع العالي فاشـتهر ذكرها وذاع صيتها وهي دينوريه الأصل بغدادية المولد والوفاة توفيت سنة 574هـ انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص477

(7) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج22، ص 193، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص414.

السهروردي[1]وسمعه الناس[2] سماه "روح العارفين ثم أجاز لجماعة من أهل العلم وأصحاب الحديث وقرئ هذا الكتاب بجوامع مدينة السلام وغيرها من البلاد وروي في الآفاق وسمع وانتشر[3].فالخليفة كان متفننا في العلوم يقول ابن خلدون "وله تآليف في فنون متعددة"[4]وجاء في الفخري "كان الخليفة الناصر يفاوض العلماء مفاوضة خبير ويمارس الأمور السلطانية ممارسة بصير وصنف كتاباً وسمع الحديث النبوي وأسمعه"[5].

عمل الخليفة الناصر على نشر هذا الكتاب فقد سيره سنة 622هـ/1225م إلى الشام ومصر وغيرها ليسمع وقرئ هذا الكتاب في جوامع بغداد[6].

وأجاز العديد من العلماء تدريس هذا الكتاب فكانوا يحدثون عنه ويتنافسون في ذلك ويتفاخرون[7].

ووصل على يد ابن النجار إلى الحرمين ودمشق والقدس وحلب وبغداد وأصبهان ونيسابور ومرو وهمذان[8].

وفي سنه 607هـ/1210م أظهر الخليفة الناصر لدين الله الاجازة التي أخذت له من الشيوخ وأجاز للأكابر فكتب "أجزنا لهم ما سألوا على شرط الاجازة الصحيحة، وكتب العبد الفقير إلى الله أبو العباس أحمد أمير المؤمنين" وسلمت إجازة الشافعية إلى الإمام ضياء الدين عبد الوهاب بن سكينة[9]، المتوفي في هذه السنة وأجازة الحنفية إلى ضياء الدين أحمد بن

---

(1) ينتسب شهاب الدين السهروردي إلى قرية سهرورد بإقليم زنجان وقد أقام هذا الرجل معظم أيام حياته في بغداد وتمتع بثقة الخليفة الناصر كان من كبار رجال الصوفية توفي سنة 632هـ/1234م، أنظر النسوي،سيرة السلطان منكبرتي

(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج22، ص 197، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 416.

(3) الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص 281.

(4) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ/1405م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، منشورات مؤسسة الأعلمي بيروت، 1971، ج3، ص535 وسيشار إليه لاحقا ابن خلدون، العبر.

(5) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص 322.

(6) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص228، المقريزي، السلوك، ج1، ص50.

(7) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج22، ص 193.

(8) المصدر نفسه، ص 198.

(9) هو عبد الوهاب بن علي بن عبيد الله الامام المحدث العالم مسند العراق وشيخها المعروف بابن سكينة نسبة إلى جدته ولد سنة 519هـ، وتوفي سنة 585هـ، في دمشق عندما ذهب إليها رسولاً، أنظر الذهبي، تاريخ الإسلام، ص 236.

مسعود التركستاني[1]، وأجازه الحنابلة إلى عماد الدين نصر عبد الرزاق الجبيلي[2]وإجازه المالكية إلى تقي الدين علي بن جابر المغربي[3] التاجر[4].

ولاشك أن الناصر كان يهدف من وراء نشر هذا الكتاب إلى أهداف سياسية أهمها كسب الرأي العام وتثبيت قدسية الخلافة في نفوس الناس وملوك الأطراف، بالإضافة لتأكيد زعامته الدينية على المسلمين بعد فشل قواته العسكرية في نشر نفوذه على القسم الشرقي من الخلافة فأخرج كتابه "روح العارفين" الذي جمع فيه الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة.

ومن مظاهر سياسة الناصر اهتمامه برجال الصوفية خاصة الشيخ شهاب الدين أبو حفص السهروردي فقد قربه الناصر منه كثيراً وأسكنه الرباط الذي بناه في المزربانية الذي عزم أن ينقطع فيه ويترك الخلافة زهداً في الدنيا[5]. تذكر المصادر أنه هّم في وسط خلافته بترك الخلافة والانقطاع إلى التعبد وكتب توقيعاً بذلك قرئ على الأعيان[6] وقد بلغ من منزلة السهروردي عند الناصر أنه أرسله رسولاً إلى عدة جهات، وكان الملوك يبالغون في إكرامه واحترامه إعتقادا فيه وتبركاً[7]، ولمزيد من التقرب بالصوفية عمل الخليفة له ثياباً كبيرة بزي أهل التصوف وكان يلبسها ويتردد إليهم ويحادثهم في الرباط الذي بناه لهم، بل إنه إتخذ داراً لنفسه بجانب الرباط الذي كان يتردد إليه[8].

ومن سياسته أيضا حرصه على تفقد أحوال الرعية، ففي عام 604هـ/1207م رتب عشرين داراً للضيافة ليفطر فيها الصائمون من الفقراء، يطبخ لهم في كل يوم فيها طعام كثير ويحمل إليها أيضاً من الخبز النقي والحلواء شيء كثير[9]وفي شهر رمضان من السنة نفسها أمر الخليفة ببناء دور في المحال ببغداد للفقراء يطبخ فيها اللحم الضأن والخبز الجيد وجعل

---

[1] هو فقيه حنفي قدم بغداد وتفقه حتى انتهت إليه الرياسه في المذهب ودرس بمشهد أبي حنيفة أرسله الناصر إلى النواحي رسولاً توفي سنة 610هـ أنظر الذهبي، تاريخ الإسلام ص 318.

[2] هو فقيه حنبلي ولد سنة 564هـ درس وافتى وناظر وبرع في المذهب ولي القضاء للخليفة الظاهر بأمر الله واوئل خلافة المستنصر توفي سنة 633هـ أنظر الذهبي تاريخ الإسلام، ص156.

[3] هو أبو الحسن علي بن جابر بن علي الدباج من أهل الفضل والصلاح ولد سنة 566هـ وكان شيخ القراء والنحاة بالأندلس توفي سنة 646هـ بإشبيليه أنظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج23، ص 209–210.

[4] الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ووفيات 601–610، ص29، الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي، الوافي بالوفيات،ط2، فرانز شتايز بفيسبادن، 1982، ج6، ص 316، وسيشار إليه لاحقاً الصفدي، الوافي بالوفيات.

[5] الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص282.

[6] الذهبي، سير الأعلام النبلاء، ج22، ص202.

[7] المصدر نفسه، ص195.

[8] المصدر نفسه، ص202.

[9] ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 47، ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص 229.

في كل دار من يوثق بأمانته فكان يعطي كل إنسان قدحاً مملوءاً من الطبيخ واللحم ومناً من الخبز فكان يفطر كل ليله على طعامه خلق كثير[(1)].

كما حرص على تقديم خدمات للحجاج الذين يمرون ببغداد. فأمر في سنة 605هـ/1208م ببناء دار الضيافة ببغداد بالجانب الغربي منها جعلت للحجاج والمارة لهم الضيافة ما داموا بها فإذا أراد أحدهم السفر منها زود وكسي وأعطي بعد ذلك ديناراً[(2)].

ومما يدل على حرص الخليفة الناصر على التقرب من الرعية ما فعله سنة 614هـ/1217م عندما زادت دجلة زيادة عظيمة وأشرفت بغداد على الغرق، وركب الوزير والأمراء والأعيان كافة وجمعوا الخلق العظيم من العامة لعمل القورج حول البلد، وقلق الناس لذلك وأعدوا السفن لينجو بها، فظهر الخليفة على الناس وحثهم على العمل وهو يقول: "لو كان بعدي ما أرى بمال أو غيره لفعلت، ولو دفع بحرب لفعلت، ولكن أمر الله لا يرد[(3)].

كما قام بإجراءات من شأنها المحافظة على الأمن والاستقرار فوضع نقاط حراسة على طول طريق الحج وأكثر من بناء القناطر والجسور على الأنهار المتفرعة من نهر دجلة والفرات ووضع عليه حراسة وقد وصفها ابن جبير في رحلته فيقول:

"فلا يكاد المرء يمشي ميلاً إلا وجد قنطرة على نهر متفرع من الفرات فتلك الطريق أكثر الطرق سواقي وقناطير وعلى أكثرها خيام فيها رجال محترسون للطريق اعتناءً من الخليفة بسبيل الحاج دون اعتراض منهم للاستنفاع بكديه أو سواها"[(4)].

كان لهذه الاجراءات أطيب الأثر في نفوس عامة الناس في بغداد وخاصة الفقراء منهم.

ومن سياسته أيضاً مباشرته للأمور بنفسه بحيث لا يخفى عليه شيء من أمور الرعية ولا يفوته أمر مما يجري في بلاده وغيرها من بلاد الإسلام[(5)]. لذلك اهتم بأن يكون له في كل مكان رجال يطالعونه بأخبار البلاد الكلية والجزئية والظاهرة والباطنة داخل العراق وخارجه، فكانوا يبالغون في نقل الأخبار إليه صغيرها وكبيرها، وإن دلّ هذا انما يدل على تشديد الخليفة

---

(1) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص230، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص298، الأربلي، خلاصة الذهبي المسبوك، ص281.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 51، الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص 281.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص319، الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ووفيات 611-620هـ، ص 15.

(4) ابن جبير، الرحلة، ص168.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص91، Bartold, Caliph and sultan, p133.

عليهم في نقل الأخبار إليه مهما صغرت أو كبرت بالإضافة إلى طلبه منهم عدم الاستهانة بأي خبر مهما كان صغيراً لذا لم تكن تغيب عنه أي صغيرة أو كبيرة من أخبار الرعية[1].

واحب مباشرة أحوال الرعية بنفسه فقيل أنه كان يتمشى في الليل في دروب بغداد ليعرف أخبار الرعية وما يدور بينهم[2].

حتى أن أهل العراق يخاف الرجل منهم أن يتحدث مع امرأته لما يظن أن ذلك سوف يطلع عليه الخليفة ويعرفه[3]، ويروى عنه أنه كانت له حيل لطيفة ومكائد غامضة وخدع لا يفطن لها أحد، ويوقع الصداقة بين ملوك متعادين وهم لا يشعرون، ويوقع العداوة بين ملوك متفقين وهم لا يفطنون[4].

ويروي المؤرخون حكايات كثيرة عن الناصر تبين مدى اطلاعه على أحوال البلاد وأخبارها فذكر أن رجلاً ببغداد عمل دعوه وغسل يده قبل أضيافه، فطالع صاحب الخبر الناصر بذلك، فكتب في جواب ذلك "سوء أدب من صاحب الدار، وفضول من كاتب المطالعة"[5].

وحكي أن رسول مازندران[6] اختلى بإمرأه دخلت إليه سراً، فجاءت إليه في اليوم التالي ورقة من الخليفة تصف كل شيء[7]. وهناك غيرها الكثير حتى قيل أنه كان مخدوماً من الجن[8] لذلك خافه الناس خوفاً شديداً، وهابوه فكان الانسان لا يجسر أن يجري في بيته وخلوته ما يخاف الانكار عليه لأنه أصبح يتوهم أن أخص الناس إليه من أهل بيته ينقل الخبر إلى الخليفة[9] وقيل أنه ملأ القلوب هيبة وخيفة حتى كان الملوك والأكابر بمصر والشام إذا جرى ذكره في خلوتهم خفضوا أصواتهم هيبه وإجلالاً[10].

---

(1) المقريزي، السلوك، ج1، ص 340–341، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 414.
(2) ابن الطقطقي، الفخري، في الآداب السلطانية، ص 322.
(3) المقريزي، السلوك، ج1، ص 340–341.
(4) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 414، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج22، ص 195.
(5) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 416 نقلا عن ابن واصل.
(6) اسم ولاية طبرستان انظر ياقوت، معجم البلدان، ج5، ص41.
(7) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج22، ص196.
(8) المصدر نفسه، ص196.
(9) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص 91.
(10) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 416.

كان الناصر يحرص على سياسة جمع الأخبار ليفرض هيبته على الرعية داخل بغداد وخارجها، فكان شديد الاهتمام بالملك، لا يخفى عليه شيء من أمور رعيته، كأنه يشاهد جميع البلاد دفعة واحدة[1].

قيل عنه كان أسد بني العباس، تتصدع لهيبته الجبال، وتذل لسطوته الأجيال، قد ملأ القلوب هيبة وخيفة، فكان يرهبه أهل الهند ومصر كما يرهبه أهل بغداد، فأحيا بهيبته الخلافة[2].

ذكر عنه أشياء غريبه فكان يقول للرسل والوافدين عليه: فعلتم في مكان كذا وكذا وفعلتم في الموضع الفلاني كذا حتى ظن بعض الناس، أو أكثرهم أنه كان يكاشف أو أن جنياً يأتيه بذلك[3].

ومن سياسة الناصر حرصه على جمع المال[4]؛ وذلك لما للمال من أهمية ودور كبير في تقوية الخلافة، وإعداد جيش قوي لها فكان يسلك من أجل ذلك كل طريق ممكنه ففرض الكثير من الضرائب والمكوس[5]. وضاعف الخراج المفروض على الأرض فمثلاً: قرية بعقوبا كان يؤخذ منها في كل سنة عشرة آلاف دينار قبل عصر الناصر، ففرض عليها الناصر مبلغ ثمانين ألف دينار. ومن الوسائل التي كان يستخدمها في جمع المال والإكثار منه أنه كان يستخدم بخزانه الخلافة صنجة لقبض المال وأخرى لإعطاء المال فكانت الصنجة التي يقبضون بها تزيد عن الذي يعطون بها في كل دينار حبه، وبالتالي يتحصل من ذلك مال كثير[6].

بالإضافة لمحاسبته الدقيقة لعماله، وتشدده في تحصيل الأموال المستحقة لديوان الخلافة وما كان يلحق بالناس من عسف بسبب هذه الاجراءات وهي التي كانت وراء اتهامه بالظلم والعسف[7].

- نظام الفتوة

ومن المظاهر الملفتة لسياسة الخليفة الناصر لدين الله عنايته بنظام الفتوة، فالفتوة في اللغة صفة الفتى والفتوة كما جاء في التاج الكرم والسخاء، وفي عرف أهل التحقيق أن يؤثر

---

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج22، ص 195.
(2) السيوطي ،تاريخ الخلفاء، ص 415.
(3) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 105-106.
(4) المقريزي، السلوك، ج1، ص 340-341.
(5) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 105-106.
(6) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص 137.
(7) يحيى حسين، الفتوه في بغداد في العصر العباسي الأخير، ص 30.

الخلق على نفسه بالدنيا والآخرة، وصاحب الفتوه يقال له الفتى ومنه "لا فتى إلا علي" وقال الشاعر:

فإن فتى الفتيان من راح واغتدى   لعز عدو أو لنفع صديق

فالفتى في عرف المجتمع العربي–الجاهلي هو الذي تتجسد فيه الصفات التي تتطلبها القبيلة، كالفروسية والشهامه والشجاعة والكرم وغيرها من الفضائل[1].

أما في صدر الإسلام فانتقلت هذه المثل العليا بعد أن طعمت بالفضائل التي جاءت بها العقيدة الإسلامية، فكان هم الفتيان مساعدة الفقراء من الناس والوقوف في وجه الطغيان والتجبر، وللفتيان نواد وأماكن خاصة كانوا يقصدونها، وقت فراغهم ويجتمعون بها ويتبادلون الأخوة والمحبة كما كانت تقام لهم حفلات ورئيس النادي هو رأس الحزب[2].

ويخيل أنه كان في نفوس الفتيان حرمة خاصة لعلي بن أبي طالب صهر النبي (صلى الله عليه وسلم)، ورابع الخلفاء الراشدين فقد كان في نظرهم المثل الأعلى للفتى للقول المأثور "لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي"[3].

ويحدثنا ابن جبير صاحب الرحلة عن طائفة من الدماشقة يعتنقون الفتوه ويسمون بالبنوية كانوا يقاتلون الشيعة المغالين الذي أطلق عليهم اسم الحشاشين في أدب الحروب الصليبية. فبعد أن يذكر ابن جبير بمناسبة وصفه لدمشق (وكان فيها في ربيع الثاني سنة 580هـ/1185م) خبر هؤلاء الشيعة المغالين فيقول: "وسلط الله على هذه الرافضة طائفة تعرف بالبنوة سنيون يدينون بالفتوة وبأمور الرجولة كلها، وكل من ألحقوه بهم لخصلة يرونها فيه، يحزمونه السراويل فيلحون بهم، ولا يرون أن يستعدي أحد منهم نازلة تنزل به، لهم في ذلك مذاهب عجيبة وإذا أقسم أحدهم بالفتوة بر قسمه وهم يقتلون هؤلاء الروافض أين وجدوهم وشأنهم عجيب في الأنفة والأئتلاف"[4].

وهي امتداد لحركات العيارين والشطار التي تمثل تكتلات شعبية لا تلتزم بنظام أخلاقي معين، ولا بعرف اجتماعي حتى قام الناصر لدين الله بتنظيمها وتوحيدها في حركة

---

(1) كلود كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ط2، ترجمة بدر الدين القاسم، دار الحقيقة للنشر بيروت، 1977، ص 143 وسيشار إليه لاحقاً كاهن، تاريخ العرب.

(2) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص225.

(3) فرانز تيشنر، الفتوة والخليفة الناصر، "في كتاب المنتقى من دراسات المستشرقين، ترجمة صلاح الدين المنجد، مطبعة الجنة القاهرة، 1955، ج1، ص 190، وسيشار إليه لاحقا تيشنر، الفتوة والخليفة الناصر.

(4) ابن جبير، الرحلة، ص 218.

واحدة هي الفتوة هدف من ورائها مواجهة خصوم الخلافة ومقاومة التهديد والتسلط الخارجي[1].

يعد الناصر من المتحسسين بأوضاع الأمة الإسلامية الحرجة وكان يرى أن العالم الإسلامي، في حالة من التشتت والضعف والإختلاف والانحراف والتمادي في التنازع وإثارة الشر بينهم. يحتاج إلى تجديد قوته وإحياء همته وإعادة توحيده لمقاومة الافرنج، والعراق مقر الخلافة العباسية مستهدف لمطامع الدولة السلجوقية الكبرى.

بالإضافة إلى كثرة حركات التمرد والعصيان التي كانت تقوم بها بعض الإمارات والأقاليم ضد الخلافة العباسية فأراد أن يجدد شباب الأمة بهذه الفتوة وإنه لا أمل في إحياء العالم الإسلامي وإيقاظه إلا بالفتوه لإحياء السنة الإسلامية والتقاليد العربية، فأعتبر الفتوة المنار في ذلك واحسن ما يتبع[2].

لذلك أولاها عناية خاصة وعمل على تعميمها، وتولى الاشراف عليها بنفسه حيث يقوم نظام الفتوة على مبادئ سامية أساسها الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله وقول الحق واجتناب المحارم والإخلاص والوفاء بالعهد، وغيرها من المبادئ والقيم والمفاهيم التي تضمنها الدين الإسلامي الحنيف وأكدتها سنة النبي (صلى الله عليه وسلم) [3].

اشتهر الخليفة الناصر بتنظيمه الفتوة على أسس وقواعد جديدة حتى عرفت باسمه وأضيفت إليه فقيل: الفتوة الناصرية، حيث كان انتماء الخليفة الناصر للفتوة في وقت مبكر من خلافته سنة 578هـ/1183م، حيث تفتى إلى الشيخ عبد الجبار بن صالح البغدادي[4] ولقب بشرف الفتوه عبد الجبار وخلع عليه وكان النقيب أبو المكارم أحمد بن محمد بن دازي النيلي، وفتى الناصر في ذلك الوقت ولد رفيقه علي بن عبد الجبار، وخلع عليه وعلى النقيب.

---

(1) النجار، محمد رجب النجار، حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي، عالم المعرفة، الكويت، 1981، ص 154، وسيشار إليه لاحقا محمد النجار، حكايات الشطار.

(2) السوداني، صادق حسن السوداني، العلاقات الخارجية للخلافة العباسية في عهد الخليفة الناصر"، مجلة المورد العراقية، العدد 4، 1973، وسيشار إليه لاحقا صادق حسن، العلاقات الخارجية للخلافة العباسية.

(3) الجميلي، رشيد عبد الله الجميلي، تاريخ الدولة العربية الإسلامية، ط1، الجامعة المستنصرية، 1989، ص 79، وسيشار إليه لاحقاً رشيد الجميلي، تاريخ الدولة العربية.

(4) هو عبد الجبار بن يوسف البغدادي المتوفي سنة 583هـ أنظر الذهبي' سير أعلام النبلاء، ج22، ص 204.

كان عبد الجبار هذا في بدء أمره شجاعاً مشهورا تهابه الفتيان وتخافه الرجال ثم ترك ذلك ولزم العباده وبنى لنفسه موضعاً، فأمر الخليفة بإحضاره حيث تضوع عبير أخباره وتفتى إليه وجعل المعوّل في شرعها عليه[1].

ومما جاء عن الخليفة الناصر لدين الله أنه أمر سنة 580هـ/1185م بأن يعمر صومعة للشيخ عبد الجبار مقدم الفتيان تحت بغداد يكون دائرها سور، فعمرت وانتقل إليها الشيخ وكثر تردد الخليفة إليه والحديث عن الفتوة ومعرفة الفتيان وكان الناس يمضون إليه ويزورونه ويخدمونه ويتقربون إليه لأجل الخليفة[2].

تركزت نشاطاته في الفتوة في الفترة ما بين (578هـ-599هـ/1183-1202م) بالاهتمام ببعض الممارسات المرتبطة بالفتوة من رياضة رمي البندق[3]والحمام المناسيب الذي يستخدم في نقل الرسائل من منطقة إلى أخرى [4] فانتشرت الفتوة انتشارا كبيرا وانضم إليها الكثير من العلماء والفقهاء والأعيان والأخيار وعامة الناس.

ويذكر ابن الساعي المؤرخ البغدادي في حوادث سنة 604هـ/1207م مايلي:

"في هذه السنة أهدرت الفتوة القديمة، وجعل أمير المؤمنين الناصر لدين الله رضي الله عنه القبلة في ذلك والرجوع إليه فيه، وقد شرف عبد الجبار بالفتوه، وكان شيخا متزهدا، فدخل في ذلك الناس كافة من العام والخاص، وسأل ملوك الأطراف الفتوه فنفذ إليهم الرسل ومن ألبسهم سراويلات الفتوه بطريق الوكاله الشريفة وانتشر ذلك ببغداد ويفتي الأصاغر إلى الأكابر"[5].

ويبين لنا ابن الأثير بعض وجوه الاصلاح في الفتوة فيقول: "وجعل همه في رمي البندق، والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة فبطل الفتوة في البلاد جميعها إلا من يلبس سراويل يدعى إليه، ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة، وكذلك أيضا من الطيور المناسيب لغيره إلا ما يؤخذ من طيوره ومنع الرمي بالبندق إلا من ينتمي إليه"[6].

ويوجز ابن الطقطقي في ذكر ذلك فيقول:

---

(1) الذهبي، تاريخ الاسلام، حوادث ووفيات 571-580، ص 47، ابن الساعي، الجامع المختصر، ص 223، الذهبي، العبر، ج4، ص 232، سير أعلام النبلاء، ج22، ص 204، اليافعي، مرآه الجنان، ج3، ص 310.

(2) الأيوبي، محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه، مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق حسن حبشي، عالم الكتب، 1968، ص177، وسيشار إليه لاحقا الأيوبي، مضمار الحقائق.

(3) البندق: كرات تصنع من الطين والحجارة والرصاص وغيرها ترمى بواسطة الأقواس كالنبال ومنها البندقية التي اخترعت فيما بعد لرمي الرصاص أو البندق، أنظر المقريزي، السلوك، ج1، ص 172، ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص 308.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 360-361.

(5) ابن الساعي، الجامع المختصر، ص 221-222.

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 360-361.

"ولبس لباس الفتوه وألبسه وتفتى له خلق كثيرون من شرق الأرض وغربها ورمي البندق ورمى ناس كثيرون فكان باقعة زمانه ورجل عصره"[1].

ونجد في تاريخ ابي الفداء ما يلي:

"وكان منصرف الهمة إلى رمي البندق والطيور المناسيب، ويلبس سراويلات الفتوه، ومنع البندق إلا من ينسب إليه"[2].

وقال ابن العماد الحنبلي:

"أظهر الفتوة والبندق والحمام المناسيب في أيامه وتفنن الأمراء والأعيان في ذلك ودخل فيه الملوك"[3].

ويذكر لنا المقريزي:

"شغف برمي الطير بالبندق، ولبس سراويلات الفتوة"[4]

وقد وردت رسل الخليفة الناصر إلى ملوك الأطراف يحثهم على أن يشربوا له كأس الفتوة، ويلبسوا له سراويلها وأن ينتسبوا إليه في رمي البندق، ويجعلوه قدوتهم فيه وكذلك من الطيور المناسيب لغيره الا ما يؤخذ من طيوره، فأجابه الناس بالعراق وغيره إلا إنساناً واحداً يقال له ابن السفت من بغداد هرب إلى الشام فأرسل إليه الخليفة يرغبه في المال الجزيل ليرمي عنه وينسب في الرمي إليه فلم يفعل، فأنكر بعض أصدقائه عليه الامتناع من أخذ المال فقال يكفيني فخراً أنه ليس في الدنيا أحد لا يرمي للخليفة إلا أنا[5]

وطلب الناصر لدين الله من أمراء الأطراف بالتقيد بتعاليم الفتوه والعمل على نشرها بين رعيتهم وأن يلبسوا له سراويلها ويكون انتماؤهم له ففعلوا ما أمروا به[6].

وأحضر كل ملك قضاة مملكته وفقهاءها وأمرائها وأكابرها، ولبس كلاً منهم له وسقاه كأس الفتوه وكانت كل رعية تنتسب إلى ملكها في الفتوة، وكان الملك أو الأمير ينتسب إلى الخليفة الناصر وبذلك يرتبط الجميع برباط واحد هو رباط الفتوة. وكان الخليفة الناصر مغرماً بهذا الأمر وأمر الملوك أن تنتسب إليه في رمي البندق وتجعله قدوتها فيه[7].

---

(1) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص 322.
(2) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص 135-136.
(3) الحنبلي، شذرات الذهب، ج5، ص97-99.
(4) المقريزي، السلوك، ج1،ص 340.
(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 360-361.
(6) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص 206، القلقشندي، مآثر الأنافه، ج2، ص 60، المقريزي، السلوك، ج1، ص 219، أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص113.
(7) المقريزي، السلوك، ج1، ص 291.

فألبس سنه 599هـ/1202م الملك العادل الأيوبي وأولاده سراويلات الفتوه [1] ومن ملوك الأطراف الذين تفتوا للخليفة الناصر نور الدين محمود بن زنكي وشهاب الدين الغوري ملك غزنه والهند وأتابك سعد صاحب شيراز والملك الظاهر صاحب حلب[2].

وفي سنة 604هـ/1207م شهر صفر أصدر الناصر مرسوما بتقرير قواعد الفتوه وأن الحدود الشرعية لا تسقط بالفتوه، فمن قتل النفس المحرم قتلها قتل بعد أن تنزع منه سراويل الفتوه، ومن آوى مجرماً عوقب عملاً بقوله عليه الصلاة والسلام "من آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً"[3].

والسؤال الذي يطرح الآن ما أسباب تبني الناصر لنظام الفتوة؟

لم يذكر المؤرخون شيئاً، وكذلك كتب الفتوه لا تفصح عن شيئاً غير أن ابن خلدون بيّن رأيه في سياسة الناصر، رغم أنه كان بعيداً عن العصر وأحواله فيقول:

"وكان مع ذلك كثيراً ما يشتغل برمي البندق واللعب بالحمام المناسيب، ويلبس سراويل الفتوه، شأن الصيادين من أهل بغداد وكان له فيها سند إلا على من ألبسه إياها وكان ذلك كله دليلاً على هرم الدوله وذهاب الملك عن أهلها بذهاب ملاكها منهم"[4]. فيرى أن سياسة الناصر في الفتوة لهوُ وطيشٌ وعد ذلك من بوادر ضعف الخلافة العباسية ومن الأسباب التي مهدت لسقوطها.

أما رأي المستشرق الألماني فرانز تيشنر فيري أن هدفه كان إعادة تنظيم سلطة الخلافة الدينية[5].

ويرى بول فيتك أن هدف الناصر كان دعم الجهاد ومقاتلة الصليبين أما سالنجر فيرى أن غرضه كان رقابة النقابات الشاذه التي أثارت في بغداد فتناً وقلاقل استمرت سنين وأرهبت الناس[6].

في حين رأى مصطفى جواد أن السبب ما رأى عليه العالم الإسلامي من التشتت والضعف والاختلاف والانحراف والتمادي في التنازع وإثارة الشر بينهم واشتداد قوة الافرنج وتقوي دويلاتهم وتقنصهم للبلاد الإسلامية[1].

---

(1) كلود كاهن، الخليفة الناصر لدين الله، ص 107.
(2) كلود كاهن، الخليفة الناصر لدين الله، ص 107.
(3) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص222، انظر نص المنشور ملحق رقم (1)
(4) ابن خلدون، العبر، ج3، ص535.
(5) تيشنر، الفتوه والخليفة الناصر، ص 199.
(6) المصدر نفسه، ص 200.

أما فاروق عمر فقد ذكر بأن دافع الخليفة هو بث روح جديدة وعزيمة فتيه في نفوس الشباب والقادة من الأمة الإسلامية من خلال انخراطهم في هذا التنظيم[2].

في حين ترى أحلام النقيب أن هدفه كان بعث روح الحماس في نفوس الناس وإيجاد فئة قوية يمكن الاعتماد عليها بجانب الجيش النظامي، للمشاركة الفعلية في القتال خاصة أن شعار الفتوة دائماً هو التضحية والجهاد بالإضافة لإقرار الأمن وحفظ النظام[3]

أن محاولة الخليفة هذه كانت خطوه إيجابية أراد من خلالها بسط نفوذه في الممالك الإسلامية، واستعادة هيبة الخلافة التي فقدتها منذ زمن، فضلاً عن توحيد السنة والشيعة تحت هدف واحد والقضاء على الاختلافات فيما بينهم وبالتالي تقوية الخلافة العباسية داخلياً فتكون جاهزة للتصدي لأي خطر خارجي يهددها.

يتضح لنا مما سبق أن الفتوه نظام اجتماعي إسلامي قديم، يعتمد على آداب وصــفات أهمها الشباب والقوة والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وترك الكذب، فقد ورد لها ذكر في الحــديث الشريف وقد عمل الخليفة الناصر لدين الله على إحيائه، وكان للفتوة شروط و علامات يقبــل على أساسها من يرغب الدخول بها بالإضافة لملابسها الخاصة وشرب كأس الفتــوه (المــاء والملح) ولها رتب معينة ولهم أماكن خاصة يجتمعون بها[4].

- زوجة الخليفة

هي بنت السلطان قلج أرسلان بن مسعود ملك الروم، زوجة نور الدين محمد بن قرأ أرسلان صاحب الحصن[5] عندما توفي عنها زوجها أرسل الخليفة الناصر لدين الله من يخطبها من أبيها فكان ذلك تشريفاً له ولأبنته فزوجت منه وأنفذ من جاء بها إلى بغداد ودخل بها[6].

---

(1) مصطفى جواد، الفتوه وأطوارها وأثرها في توحيد العرب والمسلمين، مجلة المجمــع العلمــي العراقــي، المجلد الخامس، 1958، ص 63، وسيشار إليه لاحقا مصطفى جواد، الفتوه وأطوارها.

(2) فوزي، فاروق عمر فوزي، تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية الإسلامية، مكتبه النهضة بغــداد، ص 339، وسيشار إليه لاحقاً فاروق عمر، تاريخ العراق.

(3) النقيب، أحلام حسن مصطفى النقيب، سياسة الخليفة الناصر لــدين الله الدخليــة، رســالة ماجــستيرغير منشورة، جامعة بغداد 1988، اشراف حمدان عبد المجيد الكبيسي، ص 154، وسيشار إليه لاحقا، أحلام النقيب، سياسة الخليفة الناصر.

(4) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص222-225.

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص198.

(6) ابن الساعي، نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء، ط2، تحقيق مصطفى جواد، دار المعارف، ص 116، وسيشار إليه لاحقا ابن الساعي، نساء الخلفاء.

يبدو أنها كانت محببة للخليفة فأعطاها الجواهر الثمينة وتحف الخلفاء والملوك ما لا تعرف قيمته، وعاشت في رغد ونعيم إلا أنها توفيت في سنة 584هـ/1188م وقد حزن عليها الخليفة حزنا عظيماً ظهر للناس كلهم[1].

بنت لنفسها تربه (مقبرة) في الجانب الغربي من مشرعة الكرخ لتدفن فيها فتوفيت قبل إتمام بنائها ودفنت فيها وتم إكمال بنائها وبنى الخليفة الناصر إلى جانب تربتها رباطاً بديع البناء وقفه على الصوفية وأمر أن يحج عنها في كل سنة ويخرج الصدقات في طريق مكة شيئاً كثيراً من المال والزاد والكسوة[2].

- أولاد الخليفة

وهم أبو نصر (منصور) محمد، كان قد بايع له أبوه بولاية العهد وكتب بها إلى الآفاق وخطب له بها مع أبيه على سائر المنابر ونثرت الدنانير والدراهم وأرسل إلى البلاد في إقامة الخطبة ففعل ذلك[3] ثم عزله وحبسه في دار مبيضة الأرجاء ليس فيها لون غير الأبيض كما يقول الصفدي حتى أن حراسه كانوا يفتشون اللحم خوفاً أن يكون فيه شيء أخضر ينعش به نور بصره الذي ضعف حتى كاد يعمى لولا أن تداركه ابن الناقد بحيله[4] ورشح أخاه أبا الحسن علياً للخلافة من بعده ولقب بالملك المعظم، وكان شاباً مليحاً، سمحاً، جواداً كثير البر والصدقات، مائلاً إلى الدين كتب بخطه مصحفاً ووقفه بمشهد موسى بن جعفر، كان مقرباً عند والده محبوباً إليه اقطعه الحديثة وغيرها[5] وولدت للخليفة الناصر بنت من سلجوقة لكنها توفيت فلم تسم[6].

تشير الروايات التاريخية أن الخليفة الناصر لدين الله أمر في سنة 601هـ 1204م من يوم الجمعة رابع عشر من شهر جمادى الآخرة بقطع خطبة ولي العهد [7]. وسبب عزله

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 198.

(2) ابن الساعي، نساء الخلفاء ، ص117-118.

(3) ابن الدبيثي، محمد بن سعيد بن محمد، (ت 637هـ/1239م) المختصر المحتاج إليه، تحقيق مصطفى جواد، مطبعة المعارف بغداد، 1951، ج1، ص 20، من المستدرك وسيشار إليه لاحقاً ابن الدبيثي المختصر المحتاج إليه، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 204، الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص 283، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 242، ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص248.

(4) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج2، ص 97.

(5) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص 248.

(6) الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص 283.

(7) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص144، ابن الأثير الكامل في التاريخ، ج9، ص 269.

ما نقل إلى الخليفة من أقاويل أن ولي العهد قد عزم على قتله[1] وأكبر الأسباب من نفور الناصر من ولده هو الوزير نصير الدين بن مهدي العلوي فإنه خيل للخليفة فساد نية ولده بوجوه كثيرة وإنه عزم على قتله[2].

وفي رواية أخرى أنه أظهر خطاً قرئ بدار الوزير نصير الدين ناصر بن مهدي الرازي وإذا هو خط ولي العهد الأمير أبي نصير ابن الخليفة، إلى أبيه الناصر لدين الله بتضمن العجز عن القيام بولاية العهد، ويطلب الاقالة، وشهد عدلان أنه خطه وأن الخليفة أقاله، وعمل بذلك محضر شهد فيه القضاه والعدول والفقهاء[3].

قيل أن الناصر هو الذي أمره أن يشهد على نفسه أنه لا يصلح وأنه قد نزل عن ذلك[4]. وفي رواية أخرى أن سبب عزله أنه مخالفٌ لأبيه بالمذهب، فأبوه كان شيعياً، وكان أبو النصر سنياً يبغض الروافض ويميل إلى الحنابلة[5].

إلا أن الاقدار تعجل من وفاة ولي العهد الجديد، ففي العشرين من ذي القعدة سنة 612هـ/1215م توفي ولد الخليفة أبو الحسن علي والذي كان يلقب بالملك المعظم وكان أحب ولدي الخليفة إليه وقد رشحه لولاية العهد بعده وأطرح أخاه الأكبر لأجله[6]. وكان رحمه الله كريما، كثير الصدقة والمعروف، حسن السيرة، محبوباً للعام والخاص، وسبب موته إصابته الإسهال عرضاً وليس مرضاً وقد حزن عليه الخليفة حزناً كثيراً، لأنه كان أحب ولدي الخليفة إليه[7].

وصلى عليه بعد صلاة العصر ودفن عند جدته بالقرب من قبر معروف الكرخي، حزن عليه الناس حزناً شديداً حتى قيل أنه لم يبقى بيت ببغداد إلا ونوح فيه ولا امرأة إلا وأظهرت الحزن عليه، وكان يوم جنازته يوماً مشهوداً[8].

---

[1] .الحموي، ابي الفضائل محمد بن علي (ت644هـ/1246م)، تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان المعروف بالتاريخ المنصوري، تحقيق أبو العيد دودو، لمطبعة الحجاز، ص 66، وسيشار إليه لاحقاً الحموي، التاريخ المنصوري.

[2] كلود كاهن، الخليفة الناصر لدين الله، ص 107.

[3] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 269، ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص 144.

[4] كلود كاهن، الخليفة الناصر لدين الله، ص 107.

[5] ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص 281، وقد انفرد بهذه الرواية على ما تذكره المصادر الأخرى من الأسباب في عزل الخليفة لولده.

[6] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 309.

[7] المصدر نفسه، ص 309.

[8] ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص69، ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص 248، ابن الأثير الكامل في التاريخ، ج9، ص 309.

وقد بلغ من حزن الخليفة عليه أنه أرسل إلى أصحاب الأطراف ينهاهم عن انفاذ رسول إليه يعزيه بولده، ولم يقرأ كتاباً ولا سمع رساله، وانقطع وخلا بهمومه وأحزانه[1].

وإزاء ذلك اضطر الخيلفة الناصر لدين الله إعادة أبي نصر محمد إلى ولاية العهد، وبويع له مجدداً وبايع له الناس، فلما توفي الخليفة أصبح أبو نصر خليفة ولقب نفسه الظاهر بأمر الله [2].

---

[1] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 310.

[2] ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 242.

- وفاة الخليفة الناصر لدين الله.

تشير الروايات التاريخية إلى أنه توفي يوم الأحد آخر يوم من شهر رمضان المعظم سنة (622هـ/1225م) وله من العمر تسع وستون سنة وشهران وعشرون يوماً[1] حيث كانت مدة خلافته نحو ستاً وأربعين سنة وعشرة أشهر وثمانية وعشرين يوماً، فلم يل الخلافة أطول مدة منه إلا ما قيل عن المستنصر بالله العلوي صاحب مصر فإنه ولي ستين سنة، ولا اعتبارية في حكمه فإنه ولي وله سبع سنين فلا تصح ولايته[2] وقد انتظم في نسبه أربعه عشر خليفة وولي عهد وبقية الخلفاء العباسيين كلهم من أعمامه وبني عمه[3] بقي الناصر ثلاث سنين عاطلاً عن الحركة بالكلية وقد ذهبت إحدى عينيه والأخرى يبصر بها إبصاراً خفيفاً[4].

وتذكر بعض المصادر أنه أصيب بأمراض تتعلق بالجهاز التناسلي حيث تكون له حصى وحدث له عسر بول وأجريت له بعض العمليات الجراحية، في محاوله لاستخراج هذا الحصى حيث شق ذكره عدة مرات وإنه مات بسبب هذا المرض الذي يطلق عليه مؤرخونا القدماء اسم الدوسنطاريا، حيث بقي مصاباً به عشرين يوماً[5]. حدث هذا المرض للناصر وأصيب به رغم اهتمامه واعتنائه الشديد بصحته، حيث يروى أن الماء الذي كان يشربه الناصر يأتي به الدواب من فوق بغداد بسبعة فراسخ، ويغلي سبع غلوات كل يوم غلوه، ثم يحبس في الأوعية سبعة أيام، ثم يشرب منه[6] ولكن هذه العناية الفائقة لم تغن عنه لا من المرض ولا من الموت شيئاً.

وتشير الروايات التاريخية أنه في السنتين الأخيرتين من حياته أصابه فالج (الشلل) [7]، ولم يشعر بهذا كله أحد من الرعية حتى الوزير وأهل الدار. ضعف بصره في آخر أيامه وأدركه سهو في أكثر أوقاته، ولما عجز عن النظر في القصص والانهاءات[8]جاء بامرأة من البغداديات كانت تعرف بست النسيم وقربها حيث كانت تكتب خطاً قريباً من خطه وجعلها بين

---

[1] ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص105-106، الاربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص 282.
[2] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 360-361.
[3] ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص105-106.
[4] القلقشندي، مآثر الأنافة، ج2، ص 56، أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص 135، إبن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 360-361.
[5] أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص135، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 360-361.
[6] السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 417، نقلاً عن شمس الدين الجزري.
[7] الذهبي، العبر، ص 87-88.
[8] الانهاءات مفردها الانهاء وهو مايكتبه الوزير ونائب الوزارة إلى الخليفة من شؤون الدولة فينتهي إليه ويطلع عليه فيرتضيه ويمضيه أو يرفضه فيمنعه، أنظر ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص 260.

يديه تكتب له الأجوبة وشاركها في ذلك خادم اسمه تاج الدين رشيق فصارت المرأة تكتب في الأجوبة ما تريد فمرة تصيب ومراراً تخطئ[1].

وكان الذي ولي غسله محي الدين بن الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي، وصب الماء عليه الاستاذ منجب احد الخدم الخواص[2]وصلى عليه ودفن في دار الخلافة ثم نقل إلى تربة الرصافة في ثاني ذي الحجة من هذه السنة فدفن بجانب جده المستنجد بالله. وكان قد أعد لنفسه ضريحاً ومدفناً إلى جانب ضريح محمد الجواد ولكنه لم يدفن هناك[3]، وتردد الناس إلى مدفنه ثلاثة أيام لقراءة القرآن والوعظ والتصديقات[4] وأنشد الشعراء المراثي ودعا للختمة أبو طالب بن المهتدي[5].

أهم مؤسسات الدولة في عهد الخليفة الناصر لدين الله

أولاً: الوزارة:

تعتبر من المناصب ذات الأهمية في الدولة العباسية ويأتي صاحب هذا المنصب بعد الخليفة مباشرة من حيث المهام التي يتولاها، ويعد وسيطاً بين الملك ورعيته فيجب أن يكون في طبعه شطر يناسب طباع الملوك وشطر يناسب طباع العامة ليعامل كلاً من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة[6].

لم تتمهد أركان الوزارة وقواعدها وتقررت قوانينها إلا في دولة بني العباس، ولم يطلق إسم وزير على من يقوم بمهامها إلا في دولة بني العباس أما قبل ذلك فكان يسمى مشيراً أو كاتباً[7].

نجد الخليفة الناصر لدين الله قد استوزر خمس عشرة شخصية للوزارة حمل أربعة فقط منهم لقب وزير وهم أبو المظفر عبيد الله بن يونس وأبو المعالي ابن حديد وابن القصاب وأبو الحسن بن مهدي العلوي كلهم حملوا لقب وزير[8] والبقية كانوا نواب وزراء لأن الخليفة كان في بعض الأحيان يعين نائب وزير مكان الوزير[9].

---

(1) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 241.
(2) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص 247.
(3) الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص282، ابن كثير، البداية والنهاية، ج13،ص 105-106.
(4) التصديقات: ضرب من التسبيح يقال فيها (صدق الله ورسوله) انظر ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص 248.
(5) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص 248.
(6) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص152.
(7) المصدر نفسه، ص153.
(8) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص 249 – 250، الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص283.
(9) ابن الكازوني، مختصر التاريخ، ص249.

ويرد ذكر لدى ابن جبير عن نيابة الوزارة زمن الناصر في رحلته، فقد زار بغداد سنة 580هـ/ 1184م فقال "بأن ليس له وزير وإنما له خديم يعرف بنائب الوزارة يحضر الديوان المحتوى على أموال الخلافة وبين يديه الكتب، فينفذ الأمور وله قيم على جميع الديار العباسية، وأمين على سائر الحرم الباقيات في عهد جده وأبيه وعلى جميع من تضمه الحرمة الخلافية"[1].

ولعل سبب استحداث هذا المنصب يعود إلى حرص الخليفة الناصر أن يجعل كل الأمور داخل الدولة بيده وليس بيد الوزير وذلك للمحافظة على قوة الخلافة وقوته أمام العامة.

ولعل حرص الخليفة الناصر على عدم وصول الوزير إلى مرتبة التحكم الكامل بالدولة يفسر لنا عهده للكثير منهم تحت اسم نائب وزير، حتى يقلل من صلاحياته وبالتالي إذا وصل الوزير إلى هذه المرحلة سارع بالتخلص منه وهذا ما نلاحظه بما فعله مع وزيره ابن مهدي العلوي فقد قبض عليه وحبسه إلى أن مات[2].

ومما يشير إلى أن مرتبة نائب الوزير أدنى من مرتبة الوزير ما ذكره ابن الساعي عن المكان الذي يجلس فيه نائب الوزير ليس هو الذي يجلس فيه الوزير[3].

ويستشف من قول الذهبي أنه في سنة 602هـ / 1205م استوزر الخليفة الناصر الوزير مفيد الدين ناصر بن مهدي العلوي الحسني، وخلع عليه خلع الوزارة أي أن خلع الوزير تشختلف عن خلع نائب الوزير[4].

أما فيما يتعلق بطريقة توليه الوزارة فقد تكون مشافهة مثل ما حدث مع مؤيد الدين ابن القصاب ففي سنة 590هـ / 1193م أحضر مؤيد الدين بن القصاب وشافهه الخليفة بالوزارة وقال: "يا محمد قد قلدتك ما وراء بابي، وجعلته في ذمتك، فاعمل فيما ترى برأيك وخلع عليه"[5].

وعندما استوزر الخليفة مؤيد الدين محمد بن برز القمي وَخَلَعَ عليه خلع الوزارة ثم جلس القمي في منصب الوزارة والناس جميعاً بين يديه فبرز من الخليفة مكتوب لطيف قرئ على الجميع كان فيه:

---

(1) ابن جبير، الرحلة، ص178.
(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9ن ص297. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص47.
(3) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص221.
(4) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث 601-610هـ، ص9.
(5) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث 851 - 590هـ ، ص95.

"بسم الله الرحمن الرحيم، محمد بن برز القمي نائبنا في البلاد والعباد فمن أطاعه فقد أطاعنا ومن أطاعنا فقد أطاع الله ومن أطاع الله أدخله الجنة ومن عصاه فقد عصانا ومن عصانا فقد عصى الله ومن عصى الله أدخله النار"[1].

فنبُلَ القمي بهذا التوقيع في عيون الناس وجلت مكانته وقامت له الهيبة في الصدور، ونفهم من هذا أن الخليفة منح الوزير مكانة عالية فقد ربط طاعة الوزير بطاعته والاثنين بطاعة الله وبالتالي الزم الناس طاعته.

وفيما يتعلق بطريقة عزل الوزراء ونواب الوزراء فهو يختلف باختلاف الوزراء والحالة التي هم بها، نجد في سنة 608هـ/ 1211م: عزل الخليفة وزيره ظهير الدين العلوي والسبب في ذلك أنه كان قد سير ثلاثمائة جمل عليها خواصر التمر وأودع كل جمل ألف دينار فتعرض لها بعض ولاة الخليفة وطلب شيئاً من ذلك التمر يأكله فامتنعوا عليه من ذلك ألا أنه ألح عليهم فأخذ جملين وفتح خوصره تمر يفرقها على الجماعة فوجد الذهب ففتح الثانية فوجد كذلك فضبط الجميع وطالع بها الخليفة فأنكر عليه ذلك وعزله[2].

هناك رواية أخرى حول سبب عزله ذكرها ابن الأثير في حوادث سنة 604هـ / 1207م فقال ولما كانت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة عزل الخليفة الناصر وزيره نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي وأغلق عليه بابه وكان سبب عزله أنه أساء السيرة مع أكابر مماليك الخليفة[3].

أما ابن أبي عذيبه فقد أشار إلى سبب آخر لعزله وهو سوء سيرته فكتب إلى الخليفة يقول: إني قدمت هاهنا وليس لي درهم ولا دينار سوى ما يحصل لي من نعمة أمير المؤمنين من الأموال والأعلاق النفيسة ما قيمته خمسمائة ألف دينار وسأله (أي سأل الخليفة) أن يؤخذ منه الجميع ويفرج عنه ويسكن في المشهد أسوة ببعض العلويين فخرج إليه الجواب: "ما أنعمنا عليك بشيء ونوينا استعادته منك ولو كان ملء الأرض ذهباً، وأنت في أمان الله وأماننا ما لم يبلغنا عنك ما يستوجب غير ذلك، غير أن أعداءك كثيرون فأختر لنفسك موضعاً تنتقل إليه موقراً فاختار أن يكون تحت ظل الخليفة كي لا يتمكن منه أعداؤه ففعل ذلك"[4].

---

(1) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص153.
(2) الحموي، التاريخ المنصوري، ص67.
(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص297.
(4) ابن أبي عذيبه، شهاب الدين أحمد بن محمد الشافعي المقدسي (ت856هـ)، إنسان العيون في مشاهير سادس القرون، تحقيق إحسان ذنون الثامري ومحمد عبد الله القدحات، دار ورد للنشر، عمان، 2007، ص2 وسيشار إليه لاحقاً ابن أبي عذيبه، إنسان العيون.

ويبدوأن سبب العزل لم يكن لخطأ ارتكبه فقد كان متمكنا من وزارته حسن السيرة قريباً من الناس، ويتضح من تعدد الروايات التي ذكرت عن سبب عزله أن أعداءه هم من قبحوه لدى الخليفة بما أشاعوه عنه من روايات لا مجال لها من الصحة مما أدى بالخليفة إلى عزله.

أما سبب عزل نائب الوزارة ظهر الدين بن العطار فكان محاولته إبعاد الخليفة الناصر عن الخلافة وإعطاءها لأخيه أبي منصور هاشم، وعندما تولى الخليفة الناصر أجبر على أخذ البيعة له وبعدها أمر الخليفة بالقبض عليه(1). ويظهر من ذلك أن سبب العزل سياسي.

وذكر أن سبب عزل نائب الوزير داؤد بن سليمان بن ساوس سنة 576هـ / 1180م كان كره ابن الصاحب له ووشايته به لدى الخليفة(2).

وفيما يتعلق بمهام وصلاحيات الوزير ونائب الوزير فإن أهم ما يلاحظ في عهد الخليفة الناصر جمع الوزير بين رياستي السيف والقلم، وهذا تطور غير مسبوق فقد كانت مهام الوزير تقتصر على الجانب الإداري فقط أما في عهد الناصر فقد أوكل للوزير قيادة الحملات العسكرية فضلاً عن مهامه الإدارية.

ففي سنة 590هـ / 1193م أرسل الخليفة الناصر وزيره مؤيد الدين بن القصاب إلى خوزستان فملك مدينة تستر وما معها ثم سار في سنة 591هـ / 1194م إلى همذان فملكها وغيرها من بلاد العجم(3).

ومن المهام الأخرى النظر في الدواوين مثال ذلك: الوزير أبو القاسم الحسن بن نصر ابن الناقد بالإضافة لقيامه بتعيين وعزل أصحاب الدواوين ورجال الدولة بما فيهم قاضي القضاة(4). وأحياناً ينوب عن الخليفة في استعراض الجيوش في المناسبات لقمع حركات التمرد على الخلافة(5).

ويفهم من الصفات التي ذكرت في المصادر لبعض الوزراء ونواب الوزراء حرص الخليفة الناصر على اختيار الرجال الذين يتصفون بالقوة والمعرفة والعلم بالإضافة للخبرة بأدوات الرياسة وقوانينها(6).

---

(1) ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص217-218. أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص62.
(2) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص12 – 14 و 39.
(3) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص324، القلقشندي، مآثر الأنافة، ج2، ص58 – 59.
(4) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص250.
(5) المصدر نفسه، ص47.
(6) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص323 – 328.

فكان الخليفة إذا أراد أن يتوصل إلى معرفة حال رجل معين أشاع بين الناس أنه يريد توليته المنصب الفلاني ويتساوى في إبرام ذلك أياماً، فيمتلئ البلد بالأراجيف لذلك الرجل فيفترق فيه الناس فقوم يصفونه بالفضائل وقوم يصفونه بالعيوب، وله أصحاب أخبار يطالعونه بما الناس عليه، وهو بدوره يعرف أي القوانين أرجح وأصوب[1].

أما بخصوص دار الوزارة فكانت في عهد الخليفة الناصر مقابل باب النوبي وظلوا يجلسون بها حتى زوال الخلافة[2].

ثانياً: الدواوين

الديوان كما عرفه الماوردي هو موضع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال، وفي تسميته ديواناً وجهتان الأولى: أن كسرى اطلع ذات يوم على كتاب ديوانه فرآهم يحسبون مع أنفسهم فقال: "ديوانه" أي: مجانين فسمى موضعهم بهذا الاسم ثم حذفت الهاء لكثرة الاستعمال والثاني أن الديوان بالفارسية اسم الشياطين فسمى الكتاب باسمهم لخدمتهم بالأمور وقوتهم، ويعد عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أول من وضع الديوان في الإسلام[3].

بقيت الدواوين امتداداً لما ظهر في العصر العباسي الأول مع بعض التجديدات والمسميات والإضافات على البعض منها، ومن أهم الإجراءات التي قام بها الخليفة الناصر أنه أمر في سنة 578هـ / 1182م بأن لا يستخدم في الديوان كتاب النصارى ولا أحد من أهل الذمة حيث كانوا يستخدمون من قبل في الديوان وفي المخزن لاستيفاء الأموال ورفع الحساب فلما ولي رأى في ذلك إذلالاً للمسلمين فوقع إلى أستاذ الدار أمين الصاحب يقول له:

"إن الله تعالى نفى أن يكون للكافر على المسلم سبيل وفي استخدام أهل الكتاب إهانة للمسلمين فلا يستخدم أحد في شيء من الأعمال ورتب عوضهم من يصلح من المسلمين"[4].

ويبدو أن ابن الصاحب أشار عليه بالتروي في هذا الأمر لكن الخليفة تشدد في هذا الموضوع وقال:

---

[1] ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص39، وقد ذكر ابن أبي عذيبه أن للخليفة الف وسبعمائة عجوز يطالعونه كل ليله بأخبار البلد أنظر إنسان العيون، ص4.

[2] ابن الساعي، الجاع المختصر، ج9، ص221.

[3] الماوردي، أبي الحسن بن محمد بن حبيب البغدادي الماوردي (ت 450هـ/1058م)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص249 وسيشار إليه لاحقاً الماوردي، الأحكام السلطانية.

[4] الأيوبي، مضمار الحقائق، ص73، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ص378..

"ما على هذا سبيل ولو ذهب ملك بيتي ولا يبقى أحد من الكفار في شيء من الأعمال" وبالتالي أخرج أهل الذمة من الديوان[1].

حاول ابن أبي البخاري نائب الوزارة أن يشفع لدى الخليفة بإبن الأشقر لكن الخليفة أمر بإخراجه بعد أن عرض عليه الإسلام فرفض، وكان له ولد أعلن إسلامه فكتب أستاذ الدار إلى الخليفة بذلك فرد الخليفة بقوله:

"إنما منعنا من استخدام الكفار لأجل كفرهم فمن أسلم يعاد إلى خدمته"[2]. وقد كانت هذه السياسة للخليفة معدودة من مكارمه ولم يسبق لها ولم يعتمدها سواه.

يبدو أن هذه السياسة كانت قصيرة المدى فقد أورد ابن الساعي في حوادث 601هـ/ 1204م وفاة أبو غالب أبي طاهر بن شبر اليهودي والذي كان عامل دار الضرب، وهذا يعني أنه كان في الخدمة بالديوان بعد قرار الخليفة الناصر لدين الله[3].

ولعل السبب في ذلك عائد إلى خبرتهم التي لا يمكن الاستغناء عنها وعدم توفرها لدى المسلمين.

يضم ديوان الخلافة معظم الدواوين ويسمى بالديوان العزيز، تولى الإشراف عليه فخر الدين أبو الفرج عبيد الله الأنباري حتى عزل سنة 585هـ / 1189م وممن تولاه أبو الحسن علي الحربوي[4].

من أبرز الدواوين في عهد الخليفة الناصر.

ديوان الأبنية:

مهمتة النظر في الأبينة وإصلاحها، والانفاق عليها مثلما فعل الخليفة بالمدرسة النظامية، التي رأى أرضها كثيرة التراب غير مطبقة ورأى الايوان الذي بها شعثاً فتقدم إلى أستاذ الدار ابن الصاحب أن يعمر النظامية من ديوان الأبنية المعمور ويطلق لها جميع ما تحتاج إليه فأولى عمارتها وإصلاحها إلى ابن يونس ونفذ إليه جميع الصناع وجميع الآلات

---

(1) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص74.
(2) االمصدر نفسه، ص74.
(3) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص166.
(4) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص281. وهو علي بن رشيد بن أحمد بن محمد بن حسين البغدادي الحربوي كان حسن الطريقة عظيماً نزهاً وكله الإمام الناصر وكاله جامعة فارتفع قدره ومنزلته أنظر ابن أبي عذيبة، إنسان العيون، ص109.

مما تحتاج إليه ورتب فيها جماعة من غلمان ديوان الأبنية يحثون على العمل وأنفق عليها مبلغاً كبيراً[1].

ومما جاء عن الخليفة الناصر إنه نقم على الأمير سنقر الصغير فأمر بأخذ أمواله وهدم داره فطلبت أم الخليفة منه موضع دار سنقر لتجعلها رباطاً للصوفية فأذن لها ذلك، وتقدم إلى أستاذ الدار بعمارة الموضع فشرع بعمارتها من ديوان الأبنية، فبنى الموضع أحسن بناء وهو في المحلة المعروفة بالمأمونية في وسط السوق[2].

ديوان الوقف:

ومن تولى هذا الديوان قاضي القضاه القاسم بن الشهرزوري، حيث رد إليه النظر في وقوف المدارس جميعها والوقوف العامة[3].

في سنة 581هـ / 1186م كتب صفي الدين بن عمارة للخليفة الناصر رقعة يذكر فيها أن أرباب الأملاك بناحية بعقوبا وناحية بوهرز قد أخذوا جملة كثيرة من أموال الوقف ولو تقدم باعتبار ذلك وتحقيق ما قد صار إلى المذكورين يحصل له من المال مبلغ كبير، فأنفذ الخليفة الرقعة إلى أستاذ الدار وتقدم إليه بأن ينفذ مع ابن عمارة جماعة لاعتبار هذه الأحوال فيتقدم أستاذ الدار إلى نائب الوزارة جلال الدين بن صدقة بأن يتولى ذلك فأحضر المحتسب وابن الرطبي ومعه العدول وأمره أن يخرج ويقوم بمسح الأملاك ليتحقق من ذلك، فحضر أهلها يستغيثون فأمر الخليفة بأن يجتمعوا مع الأهالي لتوضيح الأمر، وإن ثبت شيء يحكم به وإن لم يثبت فلا حاجة لأملاك الرعية[4].

ديوان الإنشاء:

وهو الذي تنشأ عنه الأمور السلطانية من المكاتبات والولايات، وصاحب ديوان الإنشاء هو الذي يتلقى المكاتبات الواردة ويقرؤها على الخليفة ويجاوب عنها[5].

---

(1) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص170. ابن أبي عذيبة، إنسان العيون، ص76.
(2) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص92.
(3) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص20.
(4) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص207 – 208.
(5) القلقشندي، أحمد بن علي القلقشندي (ت821هـ / 1418م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، شرحه وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، ط1، دار الفكر للطباعة، بيروت، 1987م، ج1، ص124 وسيشار إليه لاحقاً القلقشندي، صبح الأعشى.

ومن تولى هذا الديوان سديد الدولة علي بن محمد بن عبد الكريم بن الأنبـــاري أبـــو منصور بن أبي الفرج بن أبي عبدالله الكاتب تولى الكتابة بديوان الإنشاء وبقي على ذلك حتى وفاته سنة 578هـ/ 1182م[1].

وممن تولى كذلك مكين الدين أبو الحسن محمد بن عبد الكريم القمي وتم نقله في سنة 606هـ / 1209 إلى دار الوزارة المقابلة لباب النوبي المحروس ولقب مؤيد الدين[2].

ديوان التركات الحشرية:

وهي التي لا وارث لها فتقع لخزانة المال، وقد ذكر ابن الساعي فـــي وفيـــات ســـنة 599هـ / 1202 أبو البدر بن حيدر الذي تولى ديوان التركات الحشرية وذكره بأنـــه شـــاب عنده فضل وتميز وكتابة[3].

ديوان المقاطعات

وصاحب هذا الديوان مسؤول عن أمر الإقطاعـــات الممنوحـــة للأمـــراء والمماليـــك وتسجيل إدارتها ومن تولى النظر فيه أيام الخليفة الناصر قوام الدين أبو طالب[4].

ثالثاً: الجيش:

في سبيل إحياء الخلافة وإعادة نفوذها السياسي والعسكري عمل الخلفـــاء العباســـيون ابتداءً من سنة 530هـ / 1135م على الاهتمام بالجيش اهتماماً كبيراً، خاصة أيـــام الخليفـــة الناصر حتى أصبح قوة كبيرة وتمكن من تحقيق عدد من الانتصارات، ظهر هذا جليـــاً فـــي الوقوف للتصدي للخطر السلجوقي حيث أخذ على عاتقه قطع دابـــر ســـلاطينهم، بالإضـــافة للتصدي للجيش الخوازمي عندما أراد مهاجمة بغداد[5].

بالإضافة لذلك قام هذا الجيش بفتح العديد من البلاد ففي سنة 585هـ / 1188م ملك الخليفة تكريت وسبب ذلك أن صاحبها قتله إخوته وملكوا القلعة بعده فـــسير الخليفـــة إلـــيهم عسكراً فحصروها وتسلموها[6].

---

(1) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص135.
(2) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص286.
(3) المصدر نفسه، ص107
(4) ابن أبي عذيبة، إنسان العيون، ص161.
(5) أنظر فصل العلاقات مع السلاجقة وفصل العلاقات مع الخوارزميين.
(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص205.

وفي سنة 586هـ / 1189م تسلم هذا الجيش حديثة عانه بعد ما سير إليها جيشاً فحصروها وقاتلوا عليها قتالاً شديداً حتى تسلموها[1].

وفي سنة 590هـ / 1193م أرسل الخليفة عسكراً مع وزيره مؤيد الدين محمد بن علي المعروف بإبن القصاب إلى خوزستان، فوصل عسكر الخليفة وملكوا مدينة تستر[2].

وفي سنة 591هـ / 1194 سار ابن القصاب وزير الخليفة إلى همذان فملكها وملك غيرها من بلاد العجم وأخذ يستولي على سائر البلاد للخليفة حتى توفي سنة 592هـ / 1195م[3] لذلك نجد ابن الساعي يصف جيش الخلافة بالجيش المنصور[4] كذلك نجد هذا الجيش يستحوذ على بلاد الري وأصبهان وهمذان وخوزستان وغيرها من البلاد حتى قوي جانب الخلافة على الملوك والمماليك[5].

بالإضافة لكل هذه الانتصارات فهناك بعض الحملات التي لم تحقق النصر والسبب في ذلك كما أورده الراوندي عدم استخدام الخليفة الناصر الاستعدادات الكفيلة بنجاحها فقد اختار لقيادتها وزراء أكثرهم لا خبرة لهم بفنون الحرب[6].

ففي سنة 584هـ /1187م أرسل الناصر وزيره جلال الدين أبا المظفر عبيد الله على رأس جيش لمحاربة السلطان طغرلبك بن أرسلان بن طغرل السلجوقي فالتقيا وكانت الغلبة لعسكر السلطان وانهزم عسكر الخليفة[7].

يلاحظ من ذلك أن قيادة الحملات العسكرية كانت تعهد في بعض الأحيان إلى الوزراء.

نجد ابن النجار يقدم وصفاً للخليفة الناصر يقول فيه: "دخل تحت طاعته من كان من المخالفين وذلت له الطغاة وانقهرت لسيفه الجبابرة وفتح البلاد العديدة وملك من المماليك ما لم يملكه أحد ممن تقدمه من السلاطين والخلفاء والملوك[8].

وقد أورد لنا ابن الأثير استعدادات الخليفة الناصر للوقوف في وجه التتار سنة 618هـ / 1221م عندما حاولوا الهجوم على شمال العراق، فقام بتحصين بغداد وانفق

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص211، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ص401، أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص363.
(2) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص90.
(3) المصدر نفسه، ص91.
(4) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص202.
(5) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص11.
(6) الراوندي، راحة الصدر، ص530.
(7) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص323.
(8) العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج5، ص97-99.

الأموال وكتب إلى صاحب الموصل وصاحب أربيل يأمرهما بالاجتماع بعساكره فـــي دقوقـــا فلما علم التتر بذلك رجعوا عن التقدم نحو بغداد[1].

كانت فرق الجيش تتألف في غالبيتها من بقايا الترك والديلم وكذلك الأكراد فضلاً عن المماليك الناصرية والظاهرية وكان رئيسهم ينسب إلى الخليفة مثل قـــشتمر مملـــوك الخليفـــة الناصر الذي عرف بـــ، (قشتمر الناصري) [2].

رابعاً: القضاء

أهم المناصب الدينية في الدولة لأن صاحبه هو المسؤول عن تطبيق العدل بين الناس وإقامته.

وأورد الماوردي عدداً من الشروط الواجب توافرها فيمن يتولى هذا المنصب وهي أن يكون رجلاً، ذا عقل ورأي، يتمتع بالحرية والعدالة والإسلام وسلامة السمع والبصر ليـــصح بها إثبات الحقوق وتمييز الحق من الباطل بالإضافة لعلمه بالأحكام الشرعية وأصولها[3].

وتنعقد ولاية القضاء بأربعة ألفاظ: قلدتك، استخلفتك، وليتك، واستنبتك[4].

يعد منصب قاضي القضاه أعلى مرتبة يصل إليها القاضي، يوليه الخليفـــة ويـــسجل أحكامه بأسمه. ففي سنة 595هـــ / 1198م استدعى الخليفة الناصر قاضي الموصل ضـــياء الدين ابن الشهرزوري[5] وولاه قضاء قضاة بغداد[6].

وفي سنة 603هـــ / 1206م قلد عماد الدين أبا القاسم عبد الله بن الـــدامغاني قـــضاء القضاة وقرئ عهده بجامع القصر الشريف بعد العصر، تولى قراءته المحتسب ابن الرطبـــي وحكم وأسبل وهو الرابع من قضاة القضاه من بيته شافهه بالولاية الوزير نصير الدين ناصر بن مهدي[7].

وأصبح القضاة يعينون من ينوب عنهم في بعض المؤسسات القضائية وهذا الأمـــر لا يحتاج إلى أخذ موافقة الخليفة على تعيينهم فقاضي القضاة هو الذي يحدد صلاحياتهم[8].

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ص337 وللمزيد أنظر الفصل الخاص بدراسة العلاقات مع الخوارزميين.
(2) أحلام النقيب، سياسة الخليفة الناصر الداخلية، ص163.
(3) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص83-85.
(4) المصدر نفسه، ص88.
(5) هو القاضي ضياء الدين أبو الفضائل القاسم بن القاضي تاج الدين أبي طاهر يحيى بـــن عبـــد الله تـــولى القضاء ولد سنة 554هـــ وتوفي سنة 599هـــ / 1404م أنظر ابـــن خلكـــان، وفيـــات الأعيـــان، ج4، ص244.
(6) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص20.
(7) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص201-202.
(8) القلقشندي، مآثر الأنافة، ج3، ص140-150 المنشور، أنظر ملحق رقم 4.

وقد عين الخليفة الناصر عدداً من القضاة أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر قلد سنة 598هـ / 1201م أبا الحسن علي بن سليمان الحلي القضاء وقيل له (قاضي القضاة شرقاً وغرباً) وخلع عليه وسلم إليه عهده بذلك، وفي نفس السنة قلد عبد اللطيف بن نصر الله بن الكيال قضاء واسط وأذن له أن يسجل عن الخدمة الشريفة الناصرية لخلو مجلس الحكم عن قاضي القضاة يومئذ[1].

وقلد الخليفة الناصر أبا الفضائل القاسم بن الشهرزوري قضاء القضاة وخلع عليه بدار شرف الدين أبي القاسم بن الناقد الصدر بالمخزن وقرئ عهده عنه وسلم إليه وركب من داره متوجهاً إلى جامع القصر، وأسكن الدار المجاورة لباب العامة والخاصة بمدينة السلام فلم يزل على ذلك إلى أن استعفي من ولاية القضاء[2].

وقد أورد القلقشندي في كتابه "مآثر الأنافة" نسخة عهد بقضاء القضاة ببغداد وسائر الأعمال كتب به عن الخليفة الناصر لدين الله للقاضي محي الدين أبي عبد الله محمد بن فضلان، حدد فيه الخليفة الناصر أمور عامة يجب على قاضي القضاة اتباعها في حكمه وهي ما يلي:

أولاً: أن يحكم بكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه و سلم لأنهما المنارة التي تهتدي بها إلى الصواب قال تعالى "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون"[3].

ثانياً: الجلوس للخصوم للنظر في أمورهم مراعياً المساواة بينهم في النظرة واللحظة والاصغاء واللفظ وهذا يدل على درجة حساسية هذا المنصب.

ثالثاً: السماع للشهود بعد التأكد من أحوالهم وأفعالهم وتصرفاتهم وصفاتهم وخصالهم هل هي راجعة إلى الدين والورع ومدى تمسكهم بالأمانة والنزاهة حتى تكون شهادتهم صحيحة سليمة[4].

---

(1) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص251.
(2) المصدر نفسه، ص104 و 45.
(3) سورة المائدة، الآية 45.
(4) أنظر منشور التقليد في القلقشندي، مآثر الأنافة، ج3، ص140–150، ملحق رقم 4.

كذلك تبين لنا من هذا المنشور مهام قاضي القضاة في تلك الحقبة من الزمن وهي:

أولاً: النظر في أمور اليتامى وأموالهم، ومراعاة شؤونهم وأحوالهم ومتى بلغوا النكاح ترد لهم أموالهم من غير نقصان أمام الشهود ووفق أوامر الله تعالى.

ثانياً: تزويج الأيامى اللواتي ليس لهن أولياء مع محاذرة المصلحة لهن فيه.

ثالثاً: مراعاة أمر الحسبة لأنها من أكبر المصالح وأهمها وانفعها للخلق.

رابعاً: تعيين النواب عنه في الولايات البعيدة ويكون لهم نفس صلاحياته التي منحه إياها الخليفة

خامساً: قيامه باتخاذ حاجبٍ وكاتبٍ[1].

ويشترط على قاضي القضاة أن تكون أحكامه في القضايا المعروضة عليه كما كان ممن قبله دون نقصٍ لها أو تبديل إلا ما تقتضيه الحاجة.

كذلك يشترط عليه مجالسة العلماء والفقهاء ومشاركتهم في بعض الأمور والقضايا التي تعرض عليه حتى يتضح له الصواب ولا يقع في الخطأ قال تعالى "وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين"[2].

خامساً: الحسبة:

تُعد من أكبر وأهم مصالح الخلق وأنفعها لهم بما لها من حفظ أموالهم وانتظام أحوالهم وتعرف على أنها الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه، والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله[3].

وتعد من الوظائف الإدارية في الدولة العباسية، يتقاضى صاحبها عليها الأجر وله راتب محدد من بيت المال وبالتالي فهي ليست نافلة يتطوع بها متى شاء بل هي فرض عليه[4].

قال تعالى "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون"[5].

---

(1) أنظر منشور التقليد في القلقشندي مآثر الأنافة، ج3، ص140–150، محلق رقم 4.
(2) سورة آل عمران، الآية 159 وانظر منشور التقليد في القلقشندي، مآثر الأنافه، ج3، ص140–150.
(3) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص299.
(4) المصدر نفسه، ص299.
(5) سورة آل عمران، الآية 104.

حدد الفقهاء أعمال المحتسب بأمرين أمر بمعروف ونهي عن منكر وكلاهما يشتمل على ثلاثة أقسام ما يتعلق بحقوق الله والثاني حقوق الآدميين والثالث ما يكون مشتركاً بينهما[1].

من هؤلاء المحتسبين في عهد الخليفة الناصر الدين الله أبو الفرج النفيس بن محمد بن علي الهاشمي البائع من أهل باب الأزج تولى الحسبة بجانبي مدينة السلام في رجب من سنة 591هـ / 1194 وعزل عنها في سنة 592هـ / 1195[2].

من الإشارات التي تدل على وظيفة من الوظائف الشاملة للمحتسب أنه يقوم بقراءة عهد توليه قاضي القضاة كما فعل المحتسب ابن الرطبي سنة 603هـ / 1206م عندما تولى قراءة عهد توليه عماد الدين أبو القاسم عبيد الله ابن الدامغاني قاضي القضاة[3].

وفي بعض الحالات كان يعهد أمر الحسبة إلى قاضي القضاة كما جرى ذلك على القاضي محي الدين أبي عبيد الله محمد بن فضلان فقد عهد له الإمام الناصر بالنظر في أمر الحسبة[4].

حددت مهام المحتسب في تلك الفترة بما يلي:

أولاً: التحقق من أسباب الزيادة والنقصان بالأسعار ومراقبة ذلك في كل وقت مع مراعاة ما تقتضيه الحالة من رفع ثمن السلعة أو إنقاص ثمنها.

ثانياً: تفقد الموازين والمكاييل لدى الباعة وتسويتها بما يرضي الله تعالى ويحقق العدالة للناس والباعة.

ثالثاً: معاقبة المخالف لقوانين البيع ومن يتلاعب بالوزن ويقوم بتطفيف عدل فيه من الباعة بما يكون له رادعاً ولغيره عبره[5].

---

(1) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص302.
(2) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص73.
(3) المصدر نفسه، ص201.
(4) القلقشندي، مآثر الأنافة، ج3، ص149.
(5) أنظر نص منشور التقليد في القلقشندي، مآثر الانافة، ج3، ص140–150، ملحق رقم 4.

الفصل الثاني

علاقة الخلافة العباسية بالدولة الخوارزمية

نشأة الدولة الخوارزمية

قبل الخوض في هذه العلاقات لا بد من إعطاء فكرة عن نشأة الدولـــة الخوارزميـــة وبداياتها، نشأت هذه الدولة بين أحضان دولة السلاجقة، التي حكمـــت منـــاطق واســـعة فـــي المشرق الإسلامي في أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي.

فقد ظهر في عهد السلطان السلجوقي ملكشاه مملوك تربى في بلاطه يسمى أنوشتكين، وكان هذا عبداً اشتراه أحد أمراء السلاجقة واسمه بلكابل من رجل من غرشتان[1] فقيـــل لـــه أنوشتكين غرشجه[2] حيث كان يشغل وظيفة الساقي، حتى استطاع أن يحظى بتقدير الـــسلطان ونيل ثقته فجعله والياً على إقليم خوارزم، فظل على ولايته حتـــى تـــوفي ســـنة 490هـــــ / 1097م[3].

تقدم لنا المصادر وصفاً لشخصية أنوشتكين بأنه كان حسن الطريقة، كامل الأوصـــاف فكبر وعلا محله وصار مقدماً مرجوعاً إليه[4].

ولد له محمد خوارزم شاه فرباه والده أنوشتكين وأحسن تأديبه فنشأ محمد عارفاً أديبـــاً وتقدم بالعناية الأزلية، واشتهر بالكفاية وحسن التدبير فلما قـــدم الأميـــر دادا الحبـــشي إلـــى خراسان، وهو من أمراء بركياروق، كان قد أرسله بركياروق لتهدئة أمر خراسان بسبب فتنة كانت قد وقعت فيها من الأتراك، قُتل فيها النائب على خوارزم اكنجي بن قحقار، فوصل دادا وأصلح أمر خراسان[5].

ونظر فيمن يولي خوارزم فوقع اختياره على محمد بن انوشتكين فولاه خوارزم ولقب خوارزم شاه[6]، وعين سنجر السلجوقي آنذاك والياً على خراسان من قبل أخيـــه بركيـــاروق فأذن لقطب الدبن محمد بأن يحكم خوارزم وأصبح يلقب خوارزم شاه، واســـتمر يحكـــم مـــدة

---

(1) غرشتان: بلاد الغور على لسان أهل خراسان وهي ولاية برأسها ليس لها سلطان ولا لسلطان عليها سبيل واسعة كثيرة القرى بها عشرة منابر تقع بين عزنة وكابل وهراه وبلخ أنظر ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص193.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص184. فاسيلي فلاديمير بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلـــى الغزو المغولي، ط1، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت، 1981، ص473 وسيشار إليه لاحقـــاً بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8 ص184، بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغـــزو المغـــولي، ص473، ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص154.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص184. أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج2، ص209.

(5) أبو الفداء المختصر في أخبار البشر، ج2، ص209، بارتولد، تركستان من الفتح العربـــي إلـــى الغـــزو المغولي، ص473.

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص184، القرماني، أحمد بن يوســـف (ت 1019هــــ / 1610م)، اخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، عالم الكتب بيروت، ص275 وسيشار إليه لاحقاً القرماني، أخبـــار الدول.

ثلاثين عاماً؛ لم يخرج فيها عن طاعة السلاجقة، وقد أمضى من الأعوام الثلاثين ستة أعـوام في بلاط السلطان سنجر السلجوقي كما أرسل ابنه آتسز[1]. إلى بلاط سنجر حيث قضى عاماً في خدمة السلطان[2].

كان قطب الدين محمد بن أنوشتكين قد اهتم بأهل العلم والدين وقربهم منه وأصـبحوا هم خاصته، فعلا محله وعظم ذكره، بالإضافة لعدله وكرمه[3].

وقد كان بعض ملوك الأتراك قد جمع جموعاً وقصد خوارزم، في ذلك الوقـت كـان محمد غائب عنها: فعندما سمع بهذا الغزو بادر إلى خوارزم، وأرسل إلى سنجر يستمده وكان بنيسابور فسار في العساكر إليه فلم ينتظر محمداً ولما قارب خوارزم هرب الأتـراك وكفـى خوارزم شاه شرهم[4].

وفي عام 521هـ/ 1126م كانت وفاة قطب الدين محمد. ولي بعده ابنه آتـسز فمـد ظلال الأمن وأفاض العدل[5].

وقد كانت قواعد الألفة والمحبة مستحكمة بينه وبين السلطان سنجر، إذ تـصادف أن تعرض سنجر لمؤامرة استهدف فيها المتآمرون قتله أثناء خروجه للصيد، فعلم آتسز بما يُدبر لسيده فتدخل في الأمر ونجاه من الموت فقربه السلطان إليه، ولما تضافرت جهـود الأمـراء وسعوا في الكيد له حقداً منهم وحسداً، ولاه سنجر على خوارزم ليبعده عن أيديهم[6].

وقد رافق أتسز السلطان سنجر في عام 529هـ / 1134م حينمـا توجـه لمحاربـة السلطان بهرام شاه سلطان الغزنويين، ويرجع السبب في ذلك إلى تغير طاعة بهرام شاه عـن سنجر بالإضافة لظلمه الرعايا واغتصاب أموالهم[7].

---

[1] كلمة تركية معناها من لا اسم له (آت – اسم – سيز – آداة التجريد) وقد جرت العادة عند الترك أن مـن يموت بنوه يسمى واحداً منهم بهذا الاسم حتى يعيش ولا يهلك. أنظر النسوي، سيرة السلطان منكبرتـي، ص34.

[2] بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ص473، عفاف صبرة، التاريخ السياسي للدولـة الخوارزمية ص36.

[3] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص184، أبو الفداء، المختصر في أخبـار البـشر، ج2، ص109، القرماني، أخبار الدول، ص275، بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ص473.

[4] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص184.

[5] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص184، أبو الفداء، المختصر في اخبار البشر، ج2، ص209.

[6] أحمد حلمي، السلاجقة في التاريخ، ص114.

[7] ابن الأثير الكامل في التاريخ، ج8، ص349، بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغـزو المغـولي، ص474.

وفي عام 530هـ/1135م أحس خوارزم شاه آتسز بضرورة الاستقلال بدولته وتدعيم ملكه فثار على سنجر وهاجم مناطق تابعة للسلاجقة[1] فغضب سنجر وقرر الخروج على رأس جيش إلى خوارزم لتأديب خوارزم شاه أتسز فوصل إليها وخرج خوارزم شاه لقتاله، فتقاتلوا فهزم آتسز خوارزم شاه، وقتل ابنه فحزن عليه حزناً عظيماً، ووجد عليه وجداً شديداً، واستولى سنجر على خوارزم وأقام بها من يحفظها وهو الأمير غياث الدين سليمان شاه بن السلطان محمد السلجوقي، ثم عاد إلى مرو، وبعد عودة سنجر إلى بلاده عاد آتسز إلى خوارزم واستولى عليها[2].

وفي عام 536هـ/ 1141م ونتيجة لانهزام آتسز خوارزم شاه من قبل سنجر، ومقتل ولده عظم عليه ذلك فكاتب الخُطا[3] وأطمعهم في ملك ما وراء النهر، فساروا في جمع عظيم وسار إليهم السلطان سنجر في جمع عظيم، والتقوا بها وراء النهر في معركة قطوان[4]. فانهزم عسكر سنجر، وقتل منهم خلق عظيم حتى أن زوجة سنجر أسرت من قبل الخُطا ولما تمت الهزيمة سار خوارزم شاه آتسز إلى خراسان ونهب أموال سنجر ومن البلاد شيئاً كثيراً[5].

وسعى آتسز جاهداً في تأليب الأقطار الإسلامية ضد مولاه سنجر فلما أرسل إليه سنجر متوعداً أجاب معلناً موقفه ويؤثر عصيانه ومما قال:

إذا كان حصان الملك سريع العدو، فإن حصاني – أيضاً – ليس أعرج.

فتعال هنا وأنا أذهب إلى هناك، فليس العالم ضيقاً..... [6].

---

(1) ابن الأثير الكامل في التاريخ، ج8، ص364، بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ص474.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص364، أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص 14، ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص215، بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ص475.

(3) وهم أصحاب بلاد ما وراء النهر وصفهم ابن الأثير بالكفرة وكان من عادتهم أنهم لا يخرجون من خيامهم ليلاً ولا يفارقونها وكان شيخ دولتهم هو القائم مقام الملك فيهم ويعرف بـ طايتكو عمره مائة ونيف وكان حسن التدبير والعقل جرت حروب بينهم وبين خوارزم شاه انهزموا منها هزيمة منكرة وقتل منهم وأسر أعداد كثيرة انظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص541 279، 280.

(4) قرية من قرى سمرقند على خمسة فراسخ منها أنظر ياقوت، معجم لبلدان، ج4، ص375.

(5) الوطواط، رشيد الدين محمد العمري (ت573هـ – 1177م)، حدائق السحر دقائق الشعر، ط1، تعريب إبراهيم أمين الشرابي، مطبقة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1945، ص8 وسيشار إليه لاحقاً الوطواط، حدائق السحر، أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص15–16، ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص218.

(6) الراوندي، راحة الصدور، ص 264 – 265.

وعاد السلطان إلى عاصمته وقرر أن يخلع ولاءه للسلاجقة وأن يستقل بأمور خوارزم وكان رشيد الدين الوطواط في صحبته فعلم بما ينويه فقال قصيدته التي مطلعها:
حينما أقبل الملك أتسز إلى عاصمته وعرشه. انتهى أمر السلاجقة [1].

فلما كانت سنة 538هـ / 1143م قصد سنجر إلى عاصمة خوارزم للانتقام من أتسز [2]. فأقام على أبوابها وأمر بنصب المجانيق عليها، وكادت المدينة تنفتح له، وكان أتسز انفذ الهدايا والتحف إلى أمراء جيشه، ثم أرسل إليه مستعطفاً يطلب المعذرة والصفح، حتى رق لحالة واشفق عليه وقبل الرجوع عنه مهادناً مصالحاً وعاد سنجر إلى مرو [3].

غير أن آتسز استطاع أن يخدع اثنين من خوارزم وأن يشتريهما بالأموال لينفذهما إلى السلطان سنجر ليقتلاه، وكان السلطان سنجر في هذه الأثناء قد أرسل شاعره المعروف أديب جابر يحمل رسالة إلى آتسز في خوارزم، فعلم الشاعر بهذا الأمر وأرسل إلى مولاه سنجر في مرو رسالة مخبأة في حذاء إمرأة عجوز تحتوي أوصاف الشخصين الموكلين فأمر سنجر بالبحث عنهما حتى عثر عليهما وقتلهما، وعلم آتسز بما فعله أديب جابر فأمر بإلقائه في نهر جيحون وإغراقه فيه [4].

وتحرك سنجر مرة ثالثة في عام 542هـ/ 1147م نحو خوارزم، وحاصر قصبة هزارسف [5] مدة شهرين وكان الشاعر أنوري في خدمته فكتب الرباعي التالي على سهم من السهام وألقاه على هزارسف:

أيها المليك أن ملك العالمين رهن إشارتك

وبدولتك واقبالك قد كسبت العالم

فاليوم أقدم بجملة واحدة وخذ هزارسف

فغداً ستأخذ خوارزم ومائة شبيه بهزارسف [6].

---

[1] النص الفارسي جون ملك آتسز تجنت ملك برآمد دولت سلجوق وآل أو بد آمد أنظر الوطواط، حدائق السحر، ص8.

[2] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص7، بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ص477.

[3] الوطواط، حدائق السحر، ص8، أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص16.

[4] الوطواط، حدائق السحر، ص8، بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ص478 وذكر أنه تم إلقائه في مياه أمودريا.

[5] هزاراسب أو هوارسف في الفارسية معناها ألف جواد.، أنظر الوطواط، حدائق السحر، ص9.

[6] النص الفارسي:

أي شاه همه ملك زمين حسب تراست — وز دولت واقبال جهان كسب تراسن

امروز بيك جملة هزارسف بكير — فرداً خوارزم وهد هزاراسب تواسن

أنظر الوطواط، حدائق السحر، ص 8-9.

وكان رشيد الدين الوطواط حاضراً مع سيده أتسز في هزارسف فأجاب على هذا ببيت واحد كتبه على سهم وطرح به إلى جيوش السلطان

فلو قدر وكان خصمك هو البطل المعروف رستم

فلن يتمكن من أخذ حمارٍ واحداً من بين هزارسف أو أجيادك الألف[1].

واستولى السلطان سنجر بعد مشقة بالغة على هزارسف، وغضب غضباً شديداً من شعر الوطواط[2].

ولجأ آتسز إلى الاستعطاف وحضر بناء على أمر سنجر إلى شاطئ جيحون، وكان سنجر قد اشترط عليه أن يضع وجهه على التراب وارتجل عن جواده، وأخفى رأسه ثم لوى عنان جواده وانصرف[3] ورغم أن ذلك لم يرق لعيني سنجر إلا أنه تركه وصفح عنه ولم يحاربه بعد ذلك وكان في إقراره له على خوارزم ما ثبت أركان دولته ودعمها بينما أخذت دولة سنجر في الانهيار[4].

وقع سنجر أسيراً في يد الأتراك الغز (الخُطا) وأشعلوا في خراسان نيران الهرج والمرج، حتى أضطر آتسز الحضور إلى خراسان والاقامة في مدينة نسا لمحاربة الغز بناءً على دعوة وصلته من ابن أخت سنجر، وأقاما فيها مدة ثلاثة أشهر، حاولا فيها إصلاح ما فسد من أمور الملك لكن تدبيرهما لم يتم نتيجة فرار سنجر من أسر الغز [5].

وفي عام 551هـ / 1156م مات آتسز بسبب إصابته بفالج[6]. وجلس على عرش خوارزم ابنه آيل آرسلان[7].

---

(1) النص الفارسي:

كرخصم توأى شاه بود رستم كرد   يك خرز هزاراسب تو نتواند برد

أنظر الوطواط، حدائق السحر، ص9.

(2) الوطواط، حدائق السحر، ص9، بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ص478.

(3) بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ص478.

(4) أحمد حلمي، السلاجقة في التاريخ، ص118، بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ص478.

(5) الوطواط، حدائق، السحر، ص15، بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ص480-481.

(6) ابن الأثير الكامل في التاريخ، ج9، ص50.

(7) كلمة آيل لفظ تركي معناه ولاية وارسلان معناها أسد، أنظر النسوي، سيرة السلطان منكبوتي، ص34.

وبدأ هذا بقتل نفر من أعمامه، وسمل عين أخيه فمات بعد ثلاثة أيام وقيل بل قتل نفسه، وأرسل بالطاعة والولاء إلى السلطان سنجر، فكتب له منشوراً بولاية خوارزم وبقي آيل أرسلان فيها ساكناً آمناً[1].

وكان أتسز حسن السيرة، كافاً عن أموال رعيته منصفاً لهم محبوباً إليهم مؤثراً للإحسان والخير إليهم وكانت الرعية معه بين أمن غامر وعدل شامل[2].

في عام 552هـ / 1157م توفي السلطان سنجر، واستخلف بعده الملك محمود بن بفراجان وهو ابن اخت السلطان سنجر[3]. وبوفاته انتهت القوة السلجوقية في بلاد فارس وخراسان ولم يجد الخوارزميون بعده منافساً يقف أمامهم ويعوق سبيل توسعهم حيث كان محمود الذي خلف سنجر لا قيمة له عندهم[4].

وبعدها أخذ آيل أرسلان التوسع والعمل على تقوية دولته إلى أن توفي عام 568هـ / 1172م ملك بعده سلطان شاه مسعود، ودبرت والدته المملكة والعساكر، لكن ابنه الأكبر تكش الذي كان مقيماً في الجند لم يرض بذلك وقصد الخطا واستمده على أخيه وأطمعه في أموال وذخائر خوارزم فسير معه جيشاً كثيفاً، وتمكن خوارزم تكش من النصر عليهم وهرب سلطان شاه وقتل خوارزم أمه وعاد إلى خوازرم[5].

وبعدها مات سلطان شاه سنة 589هـ / 1192م، وملك أخوه تكش بلاده[6].

واستطاع تكش أن يقتل السلطان طغرل السلجوقي سنة، 590هـ / 1193م، ثم كيف بدءًا ينظر الخليفة الناصر لدين الله العباسي لهذه الدولة بمنظور يختلف عمن سبقه، وكيف استعان بهم على السلاجقة ومن جاء بعد تكش على حكم خوارزم شاه من ابنه علاء الدين تكش ثم جلال الدين منكبرتي على ما سنذكره في موضعه.

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص50، القرماني أخبار الدول، ص276، بارتولد تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ص482.
(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص50.
(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص55، بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ص483، ابن كثير البداية والنهاية،، ج12، ص236.
(4) حافظ حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، ص28.
(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص114-115، القرماني، أخبار الدول، ص276، بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ص489.
(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 98، ص229.

- الخليفة الناصر والسلطان خوارزم شاه تكش (568- 596هـ / 1172-1199م)

سلك الخوارزميين سياسة تقوم على التوسع على حساب الدول المجاورة لخوارزم، والتي أخذ يتسرب إليها الضعف وفي مقدمتها السلطنة السلجوقية، كما توسعوا على حساب سلطنة الغوريين إلى الجنوب منهم، والدولة القرة خطائية في الشرق، وإملاك الخلافة العباسية في الغرب مما ولد نقمة هذه الدول عليهم.

تحالف الخليفة الناصرلدين الله مع الخوارزميين، فبعث إلى خوارزم شاه تكش (568-596هـ، 1172-1199م) واستعان به للقضاء على السلطان طغرل السلجوقي، فحدث الصدام بين الدوله الخوارزمية والدولة السلجوقية وانتهى بهزيمة جيش السلاجقة، وقتل طغرل سنة 590هـ / 1193م وحمل رأسه على رمح إلى بغداد ومعه قاتله شاب تركي أمير[1].

فسر الخليفة الناصر بذلك وسير له مع وزيره مؤيد الدين ابن القصاب[2]. خلع السلطنة فبعث إليه المؤيد بعد الوقعة أن أحضر إليَّ لتلبس الخلعة، وترددت الرسل بينهما وقيل لخوارزم شاه أنها حيلة لتمسك، فأقبل ليأخذ ابن القصاب ففر[3].

فطمع الخوارزميون باستعادة الدور الذي كان يقوم به سلاطين السلاجقة مع الخلفاء العباسيين، وأدرك الخليفة الناصر أنهم لا يقلون خطراً على دولته من السلاجقه، ففي سنة 591هـ / 1194م بعث خوارزم شاه إلى الخليفة الناصر يطلب السلطنة، وإعادة دار السلطنة التي كانت للسلاجقة إلى ما كانت عليه، وأن يجيء إلى بغداد ويكون الخليفة من تحت يده كما كانت الملوك السلجوقية، فأنزعج الخليفة وهدم دار السلطنة ورد الرسول بغير جواب[4].

ولهذا لم يكد خوارزم شاه تكش يعود إلى خوارزم، حتى جهز الخليفة الناصر لدين الله في سنة 592هـ / 1195م جيشاً وسيره إلى اصفهان ومقدمهم سيف الدين طغرل مقطع بلد

---

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج22، ص215، العبر، ج4، ص271، ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص35، ابن كثير ، البداية النهاية، ج13، ص9، ابن العبري، تاريخ الزمان ص228. Bosworth, The Cambridge history of Iran, Vol 5, p 182.

(2) هو مؤيد الدين أي المظفر محمد بن أحمد بن القصاب العجمي الأصل كان أبوه يبيع اللحم عن رأس درب البصريين ببغداد ونشأ هو مشتغلاً بالعلوم والآداب، وبرع في علوم المتعرفين ثم تبصر بأسباب الوزارة، كانت نفسه قوية وهمته عالية وجمع بين رياستي السيف والقلم مضى إلى بلاد العجم وصحبته العساكر فملك أكثرها، ثم توفي هناك أنظر ابن الطقطقى، الفخري في الآداب السلطانية، ص310.

(3) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج22، ص215.

(4) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص419، الذهبي، العبر، ج4، ص278، Bosworth, The Cambridege history of Iran, Vol 5, P183-184.

اللحف[1]. في العراق وكان بأصفهان عسكر لخوارزم شاه مع ولده وكان أهل أصفهان يكرهون الخوارزميين، فكاتب صدر الدين الخجندي[2] رئيس الشافعية بأصفهان الديوان ببغداد، يبذل من نفسه تسليم البلد إلى من يصل الديوان من العساكر[3]. وكان هو الحاكم بأصفهان على جميع أهلها فسيرت العساكر، فوصلوا إلى اصفهان ونزلوا بظاهر البلد وفارقه عسكر خوارزم شاه وعادوا إلى خراسان، وتبعهم بعض عسكر الخليفة فتخطفوا منهم وأخذوا من ساقه العسكر من قدروا عليه ودخل عسكر الخليفة إلى أصفهان وملكوها[4].

كما امتد نفوذ الخلافة ليشمل تكريت على دجلة وهيت[5]. وحديثه[6]. وبالتالي استعادت الخلافة مكانتها في نفوس المسلمين[7].

وفي نفس السنة 591هـ / 1194م سير الخليفة الناصر جيشاً آخر بقيادة وزيره مؤيد الدين ابن القصاب إلى همذان، فلما قاربها عسكر الخليفة فارقها الخوارزميون وتوجهوا إلى الري فتمكن مؤيد الدين من السيطرة على همذان، ثم رحل خلفهم إلى الري ففارقها الخوارزميون إلى دامغان[8] وبسطام[9] وجرجان[10].

---

(1) بلد اللحف: وهو صقع معروف من نواحي بغداد، سمي بذلك لأنه في لحف جبال همذان ونهاوند وتلك النواحي، وهو دونها مما يلي العراق، أنظر ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص353.

(2) هو صدر الدين محمد بن عبد اللطيف بن محمد بن ثابت الخجندي رئيس الشافعية بأصفهان قدم بغداد سنة 588هـ فقربه الخليفة وأنعم عليه انعاماً كثيراً فولاه تدريس المدرسة النظامية ببغداد أنظر ابن أبي عذيبه، إنسان العيون،ص50

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص234، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص229.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص234.

(5) هي بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الانبار ذات نخل كثير وخيرات واسعة مجاورة للبرية وتكثر فيها المنارات وسميت بذلك لأنها في هوه من الأرض وقيل سميت بإسم بانيها وهو هيت بن السندي أنظر ياقوت، معجم البلدان، ج5، ص420 – 422.

(6) تعرف بحديثه النوره وهي على فراسخ من الأنبار وبها قلعة حصينة وسط الفرات والماء يحيط بها فتحها أبو مدلاج سميت بذلك لما أحدث بناؤها ثم لزعمها فصار علماً أنظر ياقوت الحموي معجم البلدان، ج2، ص230.

(7) القلقشندي، مآثر الأنافة، ج2، ص58.

(8) بلد كبير بين الري ونيسابور هي مدينة كثيرة الفواكه والرياح لا تقطع بها ليلاً ولا نهاراً وبها مقسم للماء عجيب يخرج ماؤه من مغارة في الجبل، ثم ينقسم ونسب إليها جماعة من أصل العلم منهم إبراهيم بن إسحاق الزراد الدامغاني أنظر ياقوت، معجم البلدان، ج2، ص433.

(9) بلدة كبيرة بقومس على جادة الطريق إلى نيسابور بعد دامغان بمرحلتين وهي قرية كبيرة شبيهة بالمدينة الصغيرة، ذات أسواق إلا أن أبنيتها مقتصرة ليست من أبنية الأغنياء وهي في فضاء من الأرض ولها نهر كبير جار أنظر ياقوت، معجم البلدان، ج1، ص421.

(10) مدينة عظيمة مشهورة بين طبرستان وخراسان، وقيل أن أول من أحدث بناءها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وهي أكبر مدينة بنواحيها وبها فواكه ولها مياه كثيرة وضياع عريضة وهي أقل ندى ومطر من طبرستان وأهلها أحسن وقار وأكثر مروءة، أنظر ياقوت، معجم البلدان، ج2، ص119. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 231–232.

ولم يكد خوارزم شاه تكش يسمع بما فعله الخليفة حتى أرسل رسوله إلى الوزير مؤيد الدين بن القصاب منكراً أخذ البلاد من عسكره، ويطلب إعادتها وتقرير قواعد الصلح فلم يجب الوزير إلى ذلك فسار خوارزم شاه مجداً إلى همذان، وكان الوزير مؤيد الدين قد توفي أوائـــل شعبان فوقع بينه وبين عسكر الخليفة مصاف نصف شعبان سنة 592هــ / 1195م فقتل بينهم كثير من العسكر وانهزم عسكر الخليفة، وغنم الخوارزميون منهم شيئاً كثيراً وملك خـــوارزم شاه همذان، وقام خوارزم شاه بنبش قبر الوزير (مؤيد الدين) وقطع رأسه وسيره إلى عاصمته خوارزم، وأظهر أنه قتله في المعركة ثم إن خوارزم شاه أتاه من خراسان ما أوجب أن يعــود إليها فترك البلاد وعاد إلى خراسان[1].

لم يستطع خوازم شاه تكش فرض سيطرته على أهل العراق العجمي، بسبب المقاومة والمعارضة التي أبدوها ضدهُ، فأمر خوارزم شاه أن يقتل كل عراقي يلبس قلنسوه خوارزمي لأن العراقيين يأتون بدعوى أنهم خوارزميون ثم يغيرون على البلدة وكان خوارزم شاه علـــى حق فيما أمر، ولكن لم يستمع إليه أحد[2].

ويقول المؤرخ الراوندي واصفاً ما أحله الخوارزميون مـــن نكبـــات بأهـــل العـــراق العجمي: "وشرع جند مياجق (قائد الجيش الخوارزمي) في النهب والإغارة، وأتوا على كل ما في ولاية همذان وامتدت غاراتهم إلى كرمانشاه وحدود أبهر وزنجان، وحملوا كل ما وجـــدوه من متاع، ولم يتركوا شيئاً قط، فصارت تلك البلاد خاوية على عروشها، وتجاوز ظلمهم كـــل حد، وأسلموا الناس للهم والغم، .... ونهب شمس الدين مياجق خيرات العراق وادعى السلطنة فيها وتنقل في أطرافها..... وإن المظالم التي ارتكبها هو وأتباعه لم تحدث على أيدي الكفـــار والترك والخطائيين والصليبيين، فقد نزعت من قلوبهم رحمـــة الإســـلام فكـــانوا يريقـــون دم الإنسان كما يريقون الماء، وكانوا يغلقون المدارس بصورة لا يجيز للمجوس والنـــصارى أن تصيب بيوت النار والكنائس، ومعابد اليهود وبيوت الأصنام، وسن هؤلاء الظالمون قانوناً في العراق بمصادره المدارس والمساجد وأموال العلماء"[3].

نتيجة لهذه الأمور قام الخليفة الناصر بإرسال رسوله مجير الدين البغدادي[4] برســـالة إلى خوارزم شاه جاء فيها "إن ملك أبيك وجدك هو منحا منا، ونحن الآن نسلمه إليك فاقنع به

---

[1] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص231، 232.

[2] الراوندي، راحة الصدور، ص533.

[3] المصدر نفسه، ص552 – 553.

[4] هو مجير الدين أبو القاسم محمود بن المبارك البغدادي الفقيه الشافعي مدرس بالمدرسة النظامية ببغـــداد، أنظر الراوندي، راحة الصدور، ص534.

كما كان فيما سبق ولا تطمع في أكثر منه، وإلا فأكتب إلى الأمصار إنك خارج عليّ، فينهض الناس في سائر البلاد لغزوك، وتراق الدماء"[1] فكان جواب خوارزم شاه على رسالة الخليفة ما يلي: "الحكم لأمير المؤمنين، وما أنا إلا شحنه من قبله، ولكن أعدائي كثيرون، ولا أستطيع أن أبقى دون جيش وقد عرض صاحب الديوان أن مائة وسبعين ألف فارس من أتباعنا لا يقومون على العمل باليسير من الخبز، فليتعطف الخليفة علي ويمنحني ولاية خوزستان حتى يكون في ذلك كفاية لأتباعنا......" [2].

فقد اظهر خوارزم شاه في هذه الرسالة الطاعة للخليفة إلا أنه لم يتخلَّ عن أطماعه، وبعد قيامه بطلب السلطنة وإعادة دار السلطنة إلى ما كانت عليه من الخليفة الناصر ورفض الخليفة ذلك ورد رسوله بلا جواب، عزم على غزو بغداد ففكر الخليفة الناصر بوسيلة يستطيع بها أن يحد من أطماع خوازرم شاه فقام بالاتصال بغياث الدين ملك الغور في غزنه يأمره بمهاجمة وقصد أراضي خوارزم شاه ليبعده عن مهاجمة العراق[3] لم يتردد غياث الدين الغوري عن تنفيذ طلب الخليفة خاصة أنه كانت له أطماع في معظم خراسان، فأرسل بدوره رسالة إلى خوارزم شاه يُقبح فيها فعلته بالتعرض للخلافة[4].

فلم يجد خوارزم شاه أمام هذا التحالف بين الخلافة والغوريين إلا أن قام بمراسلة ملك الأتراك الخُطا يستنجد بهم على السلطان غياث الدين الغوري، وأنه سيستولي على جميع بلاده كما استولى منهم على بلخ، لذلك جهز ملك الخُطا التركي جيشاً وساروا إلى خراسان في سنة 594هـ / 1197م فنبهوا وقتلوا وسبوا وعاثوا فيها فساداً. ولكن الغوريين حاربوهم وهزموهم حتى قدر عدد قتلاهم باثني عشر ألفاً[5].

وعندما وصل الخبر إلى ملك الخُطا عظم عليه ذلك وبعث إلى خوارزم شاه يقول له: "أنت قتلت رجالي وأريد عن كل قتيل عشرة آلاف دينار"[6].

فامتنع خوارزم شاه وقال إنهم إنما أتوا لاستعادة مدينة بلخ من الغوريين وليس من أجل مساعدة خوارزم شاه، فقبلوا ذلك شرط أن يتخلى عن أعماله العدائية ضد الخلافة[7].

---

(1) الراوندي، راحة الصدور، ص534.
(2) المصدر نفسه، ص534.
(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص241.
(4) المصدر نفسه، ص241.
(5) المصدر نفسه، ص241.
(6) المصدر نفسه، ص241.
(7) المصدر نفسه، ص241–242.

إلا أن الخُطا لم يتوقفوا عن أعمالهم العدوانية على خــوارزم، بــل جهــزوا قــواتهم لمهاجمته إلا أنه هاجم وقتل منهم خلقاً كثيراً وتملك بلادهم[1].

ووجد خوارزم شاه نفسه مضطراً أثر ذلك، لأن يحسن علاقته بالخلافة العباسية، فمــا كان من الناصر إلا أن أرسل الهدايا والخلع إلى خوارزم شاه معترفاً له على ما يبدو بالــسيادة على ما بيده من البلاد سنة 595هــ / 1198م فلبس الخلعة[2].

وبعدها سار خوارزم شاه تكش إلى بخارى وهي للخُطا وحاصرها وملكها وكان تكش أعور فأخذ أهل بخارى في مدة الحصار كلباً أعور وألبسوه قباء وقــالوا للخــوارزميين هــذا سلطانكم ورموه بالمنجنيق إليهم، فلما ملكها خوارزم شاه تكش بعد أيام يسيره عنوه أحسن إلى أهلها وفرق فيهم أموالاً ولم يؤاخذهم بما فعلوه في حقه[3].

ويبدو أن حركات تكش ضد الخُطا قد حظيت بمساندة الخليفة ورضاه لموقفهم المعادي له ولحلفائه.

وتحسنت العلاقات بين الخوارزميين والخلافة العباسية فوصل في ســنة 596هــــ / 1199م سيف الدين ابن أخي السلطان خوارزم شاه إلى بغداد في الطاعة وإظهــار العبوديــة والاعتذار عما طلبه من الخطبة له ببغداد، وتلقى بالموكب الشريف الديواني، ودخــل وقبــل العتبة الشريفة بباب النوبي المحروس وخلع عليه وأكرم مثواه[4] ثم أذن للعودة بعد أن شــرف بالتشريفات اللائقة وأعطي الكوس[5] والعلم بالإضافة للهدايا والتحف، فمات في أواخر محــرم سنة 596هــ / 1199م. وذبح له حصان كان يحبه وسلخ جلده وأدرج فيه وحمل إلــى عمــه فدفن بمدينة خوارزم[6]. وقد تغيرت نية خوارزم شاه في أواخر حياته على الخليفة خاصة بعد إحرازه بعض الانتصارات على الإسماعيلية فجمع الجموع وسار إلى خراسان وكان عازمــاً

(1) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص93، اليافعي، مرآة الجنان، ج3، ص360.
(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج22، ص218، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص248، اليافعي مرآة الجنان، ج3، ص361.
(3) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص93. ابن العبري، تاريخ مختصر الــدول، ص225 ابــن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص17.
(4) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص19.
(5) الكوس: الطبل الذي يتخذ في أيام الحروب لتنبيه الناس وقد يتخذ الكوس لغير الحرب كتنبيه الناس ببــدء الصيام أنظر ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص24.
(6) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص24.

على قصد بغداد، ولكنه توفي في دهستان[1] في رمضان، فحمل إلى خوارزم، وقام بعده ولده قطب الدين محمد ولقب بـــ علاء الدين[2].

- الخليفة الناصر والسلطان علاء الدين شاه (596-617هـ / 1199-1220):

لما بلغ غياث الدين ملك الغورية موت خوارزم شاه ترك ضــرب نوبتــه (مراســيم العزاء) ثلاثة أيام وجلس للعزاء على الرغم من العداوة المستحكمة بينهما[3].

كان موت خوارزم شاه حافزاً لغياث الدين للاستيلاء على أملاك الخــوارزميين فــي خراسان سنة 597هـ / 1200م مستغلاً الانقسام الذي اعتور الدولة الخوارزمية بعــد وفــاة خوارزم شاه بين ابنه علاء الدين وابن أخيه هندوخان، لكن علاء الدين لم يلبث أن استرجع ما كان استولى عليه الغوريين سنة 598هـ / 1201م[4].

ولجأ هندوخان إلى غياث الدين سلطان الغوريين يستنصره على عمه عــلاء الــدين، فوعده بالنصرة[5].

حكم السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه من سنة 596هـ / 1199 إلى 617هـ / 1220م وكانت علاقته بالخلافة العباسية خلال النصف الأول من مدة حكمه حسنة على وجه العموم، ويعود السبب في ذلك إلى انشغاله بمشاكله الداخلية فضلاً عن حروبه مــع الغــوريين والخُطا وتبادل مع الخلافة العباسية الرسل بهدف تحسين علاقتهما[6].

وتطورت الأحداث في النصف الثاني من حكم علاء الدين محمــد، وعــاد الــصراع مجدداً بين الخوارزميين والخلافة العباسية بسبب رغبة الخوارزميين في التوسع على حــساب أملاك الخلافة العباسية، فتجددت محاولات الخوارزميين في الطلب من الخليفة الناصر إقامــة الخطبة لهم ببغداد، وأن يخاطب بمخاطبة السلجوقية ويتلى له في الخطبة قسم أمير المــؤمنين

---

(1) دهستان: بلد مشهور في طريق مازندران وناحية بجرجان وناحية من هراة انظر الــذهبي، العبــر، ج4، ص292.

(2) الذهبي، العبر، ج4، ص292، اليافعي مرآة الجنان, ج3، ص366-367، ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص35.

(3) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص98، ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص35.

(4) ابن الوردي، زين الدين عمر بن الوردي (ت 749 هـ/ 1348م)، تتمة المختصر فــي أخبــار البــشر، ط1،تحقيق أحمد رفعت البدراوي، دار المعرفة – بيروت، 1970م، ج2، ص176 وسيشار إليه لاحقــاً ابن لوردي، تتمة المختصر.

(5) ابن الوردي، تنمية المختصر، ج2، ص174.

(6) العبود، نافع توفيق العبود، الدول الخوارزمية نشأتها، علاقاتها مع الدول الإسلامية، نظمهــا العــسكرية والإدارية مطبعة الجامعة، بغداد، 1978م، ص91 وسيشار إليه لاحقاً نافع العبود، الدولة الخوارزمية.

فما أجيب إلى ذلك وأنكر عليه غاية الإنكار[1] وأعلن أن الخلافة لن تقبل أن يتحكم بها ملـوك الأطراف وأبلغ الخليفة رسول علاء الدين محمد: "أوليس فيما أنعم عليـه بـه مـن الممالـك الواسعة الأقاليم، المتباعدة والمتشاسعة غنية عن الطمع في دار ملك أمير المـؤمنين ومـشاهد آبائه الراشدين"[2].

وقد ذكرت المصادر عن بعض العلاقات بين الجـانبين الخلافـة العباسـية والدولـة الخوارزمية، وتبادل الرسل بينهم. فقد أرسل خوارزم شاه علاء الدين وزيره ابن الاصـباغي المتوفي سنة 600هـ / 1202م إلى الخليفة الناصر لدين الله في بغداد، فكان يحترمه ويبـالغ في الانعام عليه لما كان يعلم من فضله وموالاته للدولة العباسية[3].وفـي سـنة 601هــ / 1204م انفذ الخليفة الناصر لدين الله رسولاً من جانبه إلى خوارزم شاه علاء الدين فخر الدين بن الشيخ مجد الدين يحي بن الربيع مدرس المدرسة النظامية[4].

وفي رمضان سنة 602هـ / 1205م وصل إلى بغداد نظام الدين محمـد بـن عبـد الكريم السمعاني رسولاً من علاء الدين خوارزم شاه وتلقي بموكب الديوان العزيز فلما أنـزل بباب النوبي الشريف لتقبيل العتبة امتنع من ذلك فأهين وألزم بتقبليها مكرهاً[5].

وفي العشرين من ذي القعدة سنة 602هـ / 1205م سأل نظام الـدين الـسمعاني أن يؤذن له في الجلوس للوعظ بباب بدر الشريف[6] فأذن له فجلس، وحضر الخلق الكثير وأحسن الكلام وأجاد الوعظ وبالغ في الثناء على البيت الشريف العباسي وأكثر من الـدعاء للخدمـة الشريفة الناصرية[7].وفي سنة 605هـ / 1208م في تاسع عشر ربيع الآخر وصـل العمـاد جبريل المصري[8] رسولاً من الخليفة الناصر إلى خوارزم شاه علاء الـدين ووصـل معـه رسول منه وتلقاه الموكب الشريف الديواني على عادته في ذلك[9].

---

(1) الحموي، التاريخ المنصوري، ص66.
(2) النسوي، سيرة السلطان منكبرتي، ص50.
(3) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص139.
(4) المصدر نفسه، ص143.
(5) المصدر نفسه، ص167-168.
(6) هو موضع بدار الخلافة ببغداد كان فيه دار عظيمه البنيان فيها يخلع على الوزراء وإليها يحضرون فـي أيام المواسم للهناء وأول من أنشأها المسترشد بالله.
(7) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص168.
(8) هو جبريل بن صارم بن أحمد الصعبي، أبو الأمانة من أهل مصر قدم بغداد وأقام بها إلى أن توفي وكان فيه فضل وله شعر وله مدائح في مولانا الإمام الناصر لدين الله واستخدم في الديوان العزيز ونفـذ فـي رسائل إلى خوارزم شاه.
(9) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص262.

وفي يوم الخميس ثاني جمادى الأولى وصل رسول خوارزم شاه إلى بغـــداد فجلـــس نائب الوزارة ابن أمسينا بالديوان العزيز وأحضر الرسول فأدى رسالته، وعرض ما صحبه ، وسأل قبوله فقبل منه وأنزل بالمدرسة الثقتية[1] بباب الأزج[2] وفي عاشره خلع عليه وأذن له في العوده إلى مرسله[3].

حاول خوارزم شاه علاء الدين أن يختلق الأسباب لمعاداة الخلافة العباســـية وإزالتهـــا وتحقيق ما عجز عنه أبوه من إقامة الخطبة له ببغداد.

فأخذ يتذرع بشتى الوسائل لمعاداة الخليفة الناصر وإزالة الخلافة العباسية، ولما كـــان الخليفة قد خطب لولده الظاهر بأمر الله بولاية العهد ثم عندما لمس منه خطراً عليه عزله عن ولاية العهد[4]؛ كما يسشف ذلك من شعر الخليفة الناصر وهو يشير إلى ولده الظاهر في شعره إن طال عمري فما قصرت في كرم.

ولا حراسة ملكي من أعاديه

عرب وعجم وروم كلهم طمعوا

فلم يفوزوا بشيء غير تمويه

بليت حتى بأدنى الناس من جلدي

يريد موتي وبالأرواح أفديه[5].

فلما أسقطت خطبته في سائر الآفاق رفض خوارزم شاه علاء الدين إسقاطها وقـــال: "قد صح عندي توليته، ولم يثبت عندي موجب عزله وجعل ذلـــك حجـــه لطـــروق العـــراق بالعساكر ليرد خطبته"[6]. وبعد هذا أخذ خوارزم شاه علاء الدين يؤيد بعض حركات التمـــرد والعصيان ضد الخلافة. ففي سنة 608هـــ / 1211م عندما عصى بعـــض مماليـــك الـــديوان ديوان الخلافة فأعانه خوارزم شاه علاء الدين على عصيانه، ولكن الخليفة الناصر سيَّر إلـــى

---

(1) وهي إحدى مدارس بغداد، أنشأها ثقة الدولة أبو الحسن علي بن محمد الزويني القزويني المعروف بـــابن الأبري المتوفي سنة 549هـــ أنظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص46.

(2) محلة كبيرة ذات أسواق كبيرة في شرقي بغداد أنظر ياقوت، معجم البلدان، ج1، ص168.

(3) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص262.

(4) الحموي، التاريخ المنصوري، ص66. ابن الساعي الجامع المختصر، ج9، ص144، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص269.

(5) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج6، ص315.

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص269، الصفدي، الوافي بالوفيات، ج2، ص97.

مظفر الدين ابن زين الدين صاحب أربل يعلمه ذلك واستنجد بعسكر الملك الأشرف وغيره فقوي عليه فتمكن من قمع ذلك التمرد[1].

ومن الأسباب الأخرى أن الخليفة الناصر كان وراء تحريض أتابكة فارس وأذربيجان وإسماعيلية فارس ضد الخوارزميين وهذا الأمر ليس بمستغرب عن الناصر لدين الله الذي كانت تقوم سياسته على ضرب مخالفيه وإثارة الصراعات بينهم لإضعافهم وما يؤكد ذلك تحسن علاقة الناصر بالإسماعيلية، حتى أن صاحب قلعة الموت جلال الدين الصباحي قدم إلى بغداد واستقبل بحفاوة، معلناً الولاء والخطبة للخليفة الناصر لدين لله[2] ومن الأمور الأخرى التي أخذها خوارزم شاه علاء الدين سبباً للتوجه إلى بغداد هي أن الخليفة الناصر أرسل بعض فدائيي الاسماعيلية إلى مكة المكرمة لقتل شريف مكة بسبب خلاف بينهما لكن الإسماعيلية أخطأوا وقتلوا أخاه، ويعلق ابن الأثير على هذا الحادث بقوله: "أن قتادة حاكم مكة لما سمع بما جرى جمع الأشراف والعبيد، وأهل مكة وقصدوا الحاج ونزلوا عليهم من الجبل ورموه بالحجارة والنبل"[3].

هذا الأمر أدى للإساءة للحجاج المسلمين، خاصة قافلة الحج العراقي فما كان منهم إلا أن حملوا أغراضهم على جمالهم ومن نجا منهم توجه إلى حجاج الشام، ومع ذلك عادت هذه القافلة بأسوأ حال إلى بغداد.

وبعد هذه الحادثة أرسل قتادة وفداً إلى بغداد ليقدموا الاعتذار للخليفة "فدخلوها ومعهم السيوف مسلوله والاكفان فقبلوا العتبة واعتذروا عما جرى على الحجاج[4].

ونتيجة لهذه الأمور أمر خوارزم شاه علاء الدين الخطيب بنيسابور بترك الخطبة للخليفة الناصر لدين الله وقال أنه قد مات، ولما قدم مرو قطع الخطبه بها، وكذلك ببلخ وبخاري وسرخس، وبقيت خوارزم وسمرقند وهراة لم يقطع الخطبة منها فإن أهل هذه البلاد كانوا لا يلتزمون بمثل هذا بل يخطبون لمن يختارون ويفعلون نحو ذلك[5].

وبعدها عزم خوازرم شاه علاء الدين على اعتناق المذهب الشيعي، وخلع الخليفة الناصر واستبدله بخليفة آخر علوي، فجمع رجال دولته وفقهائها وقضاتها، وحصل منهم على

---

(1) الحموي، التاريخ المنصوري، ص66.
(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج22، ص198.
(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص205.
(4) المصدر نفسه، ص206.
(5) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص118، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص313. القلقشندي، مآثر الانافة، ج2، ص60.

فتوى بشرعية عزل الخليفة العباسي، لأن العباسيين اغتصبوا الخلافة من العلويين[1] اصحاب الحق الشرعي بها وقد أجمع الفقهاء على ذلك واتهموا الخليفة الناصر بقتل نائبهم في العـــراق العجمي ونصب علاء الدين خليفة علوياً اسمه علاء الملك الترمذي، وخطب له علـــى منـــابر الدولة الخوارزمية، وسك اسمه على العملة بعد أن قطع خطبـــة الخليفـــة ســـنة 615هـــ / 1218م[2].

وكان لاستيلاء علاء الدين محمد على غزنة حاضرة الدولة الغورية في سنة 612هـ / 1215م وعثوره في خزائن السلطان شهاب الدين الغوري على رسائل بعث بهـــا الخليفـــة الناصر إلى الحكام الغوريين يحثهم فيها على مهاجمة الدولة الخوارزمية[3]، عاملاً مهماً فـــي استحكام عدائه مع الخليفة فقصد بغداد بجيش عظيم. ولكن عندما وصل وجد أموره مضطربة بسبب مقتل نائبه اغلمش وكان مقيماً لرسمي الخطبة والطاعة للسلطان بالعراق جمع الاتابكات ازبك بن محمد صاحب أران وأذربيجان وسعد بن زكي صاحب فارس فيها[4]. فـــتمكن مـــن إعادة سيطرته عليه بعد أن التحم بالاتابك سعد بن زنكي وانتصر عليه، كما أوقـــع الهزيمـــة بأوزبك بن البهلوان الذي دان له بالطاعة وقبل أن يذكر اسمه في الخطبة[5].

ويبدو أن خوارزم شاه علاء الدين كان عازماً على قصد بغداد بكل الوسائل المتاحـــة وغير المتاحة حتى أنه لجأ إلى السحر كما تذكر رواية النسوي فقـــال: "لمـــا كـــان الـــسلطان بالعراق وصل شخص خوارزمي هرب من التتار وذكر له عن الصدر العلامة سراج الـــدين أي يوسف يعقوب السكاكي وهو من أفاضل خوارزم صاحب فنون بارعة، وكان قد تمكن عند خوارزم شاه علاء الدين محمد لما قصد بغداد، كان قد عمل له تمثالاً من السحر يدفنونه ببغداد فينال مراده منها، وكان خوارزم شاه علاء الدين قد سلمها إلى مجير الـــدين القاضـــي حـــين أرسله إلى بغداد، فدفن التمثال في الدار التي أنزل فيها وهو الآن يعتقـــد أن المقـــصود مـــن السحر وقع بالعكس، فعادت مضرته على السلطان ومنفعته إلى الخليفة"[6].

---

[1] صبره، عفاف سيد صبرة، التاريخ السياسي للدوله الخوارزمية، ط1، دار الكتـــاب الجـــامعي القـــاهرة، 1987م، ص143 وسيشار إليه لاحقاً عفاف صبره، التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية.
[2] ابن خلدون، العبر، ج3، ص535 ويجب أن نشير إلى أن المصادر المعاصرة كإبن الأثير والنـــسوي لـــم تشر إلى هذا الإجراء الذي قام به خوارزم شاه علاء الدين.
[3] نافع العبود، الدولة الخوارزمية، ص98.
[4] النسوي، سيرة السلطان منكبرتي، ص53.
[5] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص314.
[6] النسوي، سيرة السلطان منكبرتي، ص253.

ثم قام بإرسال مجير الدين إلى بغداد ليحتال في استخراج ذلك التمثال ويحرقه إلا أنه وصل في دار غير التي نزل بها المره الأولى، واحتال بكل طريق فلم يقدر عليه[1]. وقد أبدى النسوي تعجبه من إيمان واعتقاد خوارزم شاه علاء الدين بهذه الطريقة.

لهذه الأسباب السابقة سواء صحت أم أن هناك بعض ما دس على الخليفة قرر خوارزم شاه علاء الدين قصد بغداد.

ومن الواضح أن الخليفة الناصر حاول حل الخلاف بينه وبين الخوارزميين بالطرق السلمية والودية، فأرسل رسوله شهاب الدين السهروردي لملاقاة خوارزم شاه علاء الدين في همذان ومحاولة ثنيه عن غزو بغداد، لأنه كان قد سار في أربع مائة ألف راكب سنة 614هـ / 1217م إلى أن وصل همذان قاصداً بغداد ليتملكها ويحكم على الناصر[2].

فاستعد الخليفة الناصر وفرق الأموال والسلاح، وقال الرسول: أدخلت إليه في خيمه عظيمة لم أرَ مثل دهليزها والاطناب حرير، وفي الخدمة ملوك العجم، وما وراء النهر. وهو شاب عليه شعرات قاعد على تخت وعليه قباء يساوي خمسة دراهم وعلى رأسه قلنسوه جلد تساوي درهماً، فسلمت فما رد ولا أمرني بالجلوس، فخطبت وذكرت فضل بني العباس، وأطنبت في فضل الخليفة والترجمان يخبره فقال: قل له: هذا الذي تصفه ما هو في بغداد بل أنا أجيء وأقيم خليفة هكذا[3]. وأضاف إلى قوله: "إني ما آذيت احداً من ولد عباس ولا قصدتهم بسوء وقد بلغني أن في مجلس أمير المؤمنين منهم خلقاً مخلدين يتنافسون بها ويتوالدون، فلو أعاد الشيخ الحديث بعينه على مسامع أمير المؤمنين كان أولى وأنفع وأجدى وأنجع"[4].

فعاد الشيخ السهروردي إلى الخليفة بغير جواب والوحشة قائمة على ساقها بين الجانبين[5] ولكن شاءت الأقدار خاصة وإن تحركه كان في أواخر الخريف وبداية الشتاء والجيش في طريقه إلى بغداد. وبعد مسيرة يومين أو ثلاثة عن همذان هبت عواصف ثلجية طمت الأعلام وغطت الخيام دامت ثلاثة أيام بلياليها. ويذكر النسوي تعليقاً شعرياً على هذا الموقف ذكره الشاعر:

---

(1) النسوي، سيرة السلطان منكبرتي، ص254.

(2) اليافعي، مرآة الجنان، ج4، ص23.

(3) الذهبي، العبر، ج5، ص99، سير أعلام النبلاء،ج22، ص231، اليافعي، مرآة الجنان، ج4، ص23، 24.

(4) النسوي، سيرة السلطان منكبرتي، ص52، ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص76.

(5) الذهبي، العبر، ج5، ص99. النسوي، سيرة السلطان منكبرتي، ص52، ابن كثير، البداية والنهاية ج13، ص76.

نثر السحاب من السماء دراهماً

وكسا الجبال من الحواصل ملبساً

والريح باردة الهبوب كأنها

أنفاس من عشق الحسان وأفلسا[(1)].

فقلت الاقوات على جيوشه، وهلك رجاله ودوابه، وصارت الأرض كأنها ببياضها سوداء وشمل الهلاك خلقاً كثيراً من الرجال ولم ينج شيء من الجمال وتخطفت الباقين منهم سكان المنطقة واضطر خوارزم شاه علاء الدين أن يعود من حيث أتى[(2)].

وفسر ما حل بجيش خوارزم شاه علاء الدين بأنه غضب من الله بسبب خروجه وعصيانه للخليفة وأنه قصد الشر بالخلافة المؤيدة من الله والملائكة[(3)].

وكانت محاولة خوارزم شاه علاء الدين لمهاجمة الخلافة العباسية الأخيرة بسبب انشغاله بعد ذلك لمحاربة المغول الذين هددوا الدولة الخوارزمية ابتداءً من سنة 616هـ / 1219م.

- الخليفة الناصر لدين الله والمغول:

المغول من أجناس التتر وموطنهم الأصلي جبال طغماج من أرض الصين بينها وبين بلاد تركستان ما يزيد على ستة أشهر، واستولوا على معظم مشرق العالم الإسلامي، وبدأ ظهورهم في العالم الإسلامي سنة 616هـ / 1219م عندما استولوا على تركستان وكاشغر[(4)].

وهم كفار لا يدينون بدين، ولغتهم مشوبة بلغة الهند لأنهم في جوارهم، عراض الوجوه واسعو الصدور، ضعاف الأعجاز صغار الأطراف سمر الألوان سريعو الحركة في الجسم والرأي تصل إليهم أخبار الأمم ولا تصل أخبارهم إلى الأمم، ونساؤهم يقاتلن كالرجال، سلاحهم النشاب ويطعنون بالسيوف أكثر مما يضربون بها، ولهم جواشن من جلود وخفاف

---

(1) النسوي، سيرة السلطان منكبرتي، ص64. Bosworth, The Cambridge history of Iran, Vol5, P189.

(2) اليافعي، مرآة الجنان، ج4، ص23-24، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج22، ص231، النسوي، سيرة السلطان منكبري، ص64، القلقشندي، مآثر الأنافة، ج2، ص60، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص313 Bosworth, The Cambridge history of Iran, Vol5, P189.

(3) النسوي، سيرة السلطان منكبرتي، ص64، كلود كاهن، الخليفة الناصر، ص108، Bartold, Caliph and sultan, p132

(4) المقريزي، لسلوك، ج1، ص322، ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص82، ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج9، ص330.

واقية، وخيلهم تأكل الكلأ وما وجدت من ورق وخشب، وأكلهم لحم أي حيوان وجـد وتمـسه النار[1].

هذه الأقوام لم يكن لها ملك قهار جبار يحكمهم فكان أطرافها يتنازعون ويتـصارعون ويحارب بعضهم البعض، ونتيجة لحالة الفوضى السياسية والاضطراب الاجتماعي كان لا بـد من ظهور شخصية قوية توحد القبائل المغولية، وتسيطر عليها، وكانت هذه الشخصية شـاب مغولي مات أبوه وهو في سن مبكر، وبقي شريداً تتلقفه أيدي من يشفق عليه حتـى اسـتطاع بذكائه وحنكته أن يجذب إليه كبار رجال المغول، واقنع أفراد عشيرته بالانضواء تحت رايتـه وكان اسمه أول الأمر تموجين وعندما صار ملكاً على المغول سنة 603هـ / 1206م لقـب بلقب جنكيزخان أي أعظم الحكام أو إمبراطور البشر[2].

وقد أورد بعض المؤرخين القدامى أن الخليفة الناصر الدين الله هو المـسؤول عـن مجيء التتر (المغول). فقد كتب يستدعي المغول ويحرضهم على أخذ بلاد خوارزم شاه علاء الدين، ويستنجد بهم لدعمه في صراعه مع الخوارزميين[3].

وقد سبق لخلفاء بني العباس أن فعلوا ذلك مراراً فهـم الـذين راسـلوا بنـي بويـه ليخلصوهم من استبداد الأتراك البغداديين وتحكمهم فيهم، وهم الذين راسـلوا طغرلبـك شـاه السلجوقي ليخلصهم من تحكم البساسيري حينما أراد تحويل الدعوة إلى المصريين الفاطميين، وهم الذين راسلوا خوارزم شاه ليخلصهم من السلاجقة، ولكن الفرق أن هؤلاء كلهـم كـانوا مسلمين أما المغول فكانوا كفاراً[4].

ويذكر ابن الأثير في حوادث سنة 617هـ / 1220م "وقيل في سبب خروجهم إلـى بلاد الاسلام غير ذلك مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر"[5] وذكر فـي سـياق حديثه عن وفاة الخليفة الناصر سنة 622هـ/ 1225م "ولو كان سبب ما ينسبه إليـه العجـم صحيحاً من أنه هو الذي أطمع التتر في البلاد وراسلهم في ذلك فهو الطامـة الكبـرى التـي يصغر عندها كل ذنب عظيم"[6].

---

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج22، ص227، كلود كاهن، الخليفة الناصر، ص136.
(2) عفاف صبره، التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، ص152-153.
(3) المقريزي، السلوك، ج1، ص322، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص361، ابن خلـدون، العبـر، ج3، ص535، أبو الفداء، المختصر في اخبار البشر، 3، ص136.
(4) حمدي، حافظ أحمد حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، دار الفكر العربي، ص54، وسيشار إليه لاحقـاً حافظ حمدي الدولة الخوارزمية والمغول.
(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص331.
(6) المصدر نفسه، ص361.

ويقول ابن خلدون: "يقال أنه (أي الناصر) الذي أطمع التتر في ملك العراق لما كانت بينه وبين خوارزم شاه من الفتن"[1].

وذكر ابن كثير هذا الأمر عندما تكلم في حوادث سنة 622هـ / 1225م وجاء على ذلك قصد جلال الدين منكبرتي لبغداد "لأنه فيما زعم (أي منكبرتي) عمل (أي الخليفة الناصر) على أبيه حتى هلك واستولت التتار على البلاد"[2].

في حين ذكرها المقريزي بشكل بات فقال عند ذكره لخلافة الناصر: "في خلافته خرب التتر بلاد المشرق حتى وصلوا إلى همذان فكان هو السبب في ذلك فإنه كتب إليهم بالعبور إلى البلاد خوفاً من السلطان علاء الدين محمد بن خوارزم شاه لما هم بالاستيلاء على بغداد ليجعلها دار ملكه كما كانت للسلاجقة"[3].

ويوردها أبو الفداء بقوله: "قيل أنه هو الذي كاتب التتر ليشغل بهم خوارزم شاه عن العراق"[4].

في حين أورد الحموي سبباً آخر لخروجهم وأرجعه إلى قتل خوارزم شاه لوفد تجاري جاءوه مع وفد رسمي من قبل المغول مما أغضب ملكهم جنيكزخان وأثار الحرب بينهم سنة 617هـ/ 1220م[5].

وأخذ بقولهم بعض المحدثين في مقدمتهم المستشرق هارولد لام الذي يرى أن الخليفة الناصر لدين الله عرض على جنكيزخان الفاتح المغولي المشهور استعداده لمهاجمة الدولة الخوارزمية من الغرب إن هو هاجمها من الشرق، ويورد رواية طريفة حول طريقة الاتصال التي تمت بين الخليفة الناصر وجنكيزخان[6].

كذلك نجد السلطان جلال الدين منكبرتي آخر حكام الدولة الخوارزمية يقول أن الخليفة الناصر كان يكاتب المغول وقد أثارهم ضد أبيه علاء الدين محمد بقوله "كان السبب في هلاك أبي ومجيء الكفار إلى البلاد ووجدنا كتبه إلى الخُطا وتواقيعه إليهم بالبلاد والخيل، والخلع"[7].

---

(1) ابن خلدون، العبر، ج3، ص535

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص105-106.

(3) المقريزي، السلوك، ج1، ص341.

(4) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص136.

(5) الحموي، التاريخ المنصوري، ص73-78.

(6) هارولد لام، جنكيز خان إمبراطور الناس كلهم، ص99.

(7) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج22، ص242.

ومن المؤرخين المحدثين نجد حافظ حمدي يؤيد فكرة استدعاء الخليفة الناصر للمغول فيقول: "ولا يسعنا إلا أن نصدق فكرة استدعاء الخليفة للمغول، بعد أن علمنا أن سلطان الخليفة كان قاب قوسين أو أدنى من الزوال، وأن الخليفة لم يجد طريقاً يوصله إلى الحد من نفوذ الخوارزميين. إلا سلكه، فحاك حولهم الدسائس والفتن، وألب عليهم أعداءهم من العناصر المحيطة بدولتهم وآثار كل ذلك متاعب جمة للخوارزميين، ولولا انشغال خوارزم شاه علاء الدين بتلك المتاعب لاستطاع الخوارزميين حتماً أن يسقطوا الخلافة العباسية"[1].

أما القزاز "يعتقد أن هذا الاتهام سببه تقصير الخليفة وعدم تقدير مسؤولياته كخليفة للمسلمين وتقاعسه المتعمد عن الخطر الذي هدد البلاد بعد أن أعماه الحقد على خوارزم شاه فسهل بذلك على المغول القضاء على هذه الإمارة الإسلامية" بالتالي فهو يرفض فكرة اتصال الخليفة بالمغول[2].

ولا نستطيع القول بأن رغبة الخليفة الناصر هي العامل الرئيسي وراء قدوم التتر إلى أراضي الإسلام، وذلك أن الغزو المغولي للعالم الإسلامي كان جزءاً من حركة واسعة تستهدف إقامة امبراطورية مغولية عالمية نجحت فعلاً أيام مؤسسها جنكيز خان بإحتلال الصين الشمالية وأواسط أسيا وإيران وجورجيا والقفقاس وروسيا وبولندا وأجزاء أخرى من أوروبا الشرقية[3].

ولو بحثنا عن السبب لربما وجدناه ما قام به خوارزم شاه علاء الدين من قتل التجار بحجة أنهم جواسيس للمغول يتزيون بزي التجار وينتحلون صفتهم، مما إغضب جنكيز خان والذي بدا واضحاً في قوله عندما سمع الخبر "أنت رجل مسلم وما نفذنا إليك الا مسلمين موحدين حجاجاً فكيف جاز لك في دينك، ما فعلته من قتلهم وأخذ مالهم أو الله لا بد لنا منك، إما إنك تحييهم كما كانوا وتسيرهم إلينا وإلا فنحن واصلون إليك قولاً وفعلاً"[4].

وهكذا بدأت الحرب بين الجانبين، واستولى المغول على بلاد ما وراء النهر سنة 616هـ / 1219م ونهبوا بخارى، واشعلوا فيها النيران ونزح من تبقى من أهلها إلى أقليم خراسان وزحف جنكيزخان إلى سمرقند، ولم تستطع حاميتها المؤلفة من ما يقارب خمسين ألف فارس الصمود في وجههم[5].

---

(1) حافظ حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، ص53.

(2) القزاز، الحياة السياسية في العراق، ص230.

(3) نافع العبود، الدولة الخوارزمية، ص105.

(4) الحموي، التاريخ المنصوري، ص74.

(5) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص233–234.

وبسيطرة المغول على بلاد ما وراء النهر انهارت أهم أجزاء الدولـــة الخوارزميـــة، واستولى المغول على خراسان، وبلاد الجبل، واستولوا على الري ثم توجهـــوا إلـــى همـــذان وعرض صاحبها عليهم الصلح والهدايا فأمنت من الخراب[1].

وأنا لا أجزم مراسلة الخليفة للمغول وتحريضهم، وإذا كان هذا فعلاً قد حدث فلمـــاذا تتعرض دولة هذا الخليفة للخطر؟ وهل بمجرد طلب من خليفة مسلم إلى رجل كافر يـــسارع الأخير إلى تلبية طلبه دون أن يكون له أسباب ومقاصد أخرى.

ومما يضعف هذا القول إشارة ابن الأثير الذي أورد هذه التهمة وتناقلها عنه المؤرخين فقد أورد سبباً آخر لغزو المغول بلاد خوارزم شاه وهو سوء التفاهم الذي وقع لتجار في مدينة أوتروا[2] والقيام على قتلهم بإيعاز من خوارزم شاه علاء الدين[3].

وكذلك مما يضعف هذه الرواية أنها لم ترد في المصادر المعاصرة للناصـــر وأولهـــا النسوي الذي كان أول من يجب أن يذكرها خاصة أنه يؤرخ للسلطان جلال الـــدين منكبرتـــي الخوارزمي.

كذلك الرواية التي أوردها ابن الأثير تضعف هذا القول والتي توضح موقف الخليفـــة المعادي لهم، فعندما وصلت الأخبار إلى بغداد في سنة 618هـ / 1221 م بتقدم المغول مـــن قاعدتهم مراغه في أذريبجان نحو اربل، حصن الخليفة بغداد، وكتب إلى صـــاحب الموصـــل وصاحب اربل يأمرهما بالاجتماع بعساكره في دقوقا[4] وأرسل ثمانمائة طواشي أي مملـــوك، وطلب صاحب أربل النجدة من صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ، فأرسل هذا جمعاً صالحاً من عسكره اجتمع مع عساكر أربل وعساكر الخليفة، وكان المتقدم على الجميـــع مظفـــر الـــدين كوكبري صاحب أربل، فرجع المغول القهقرى ظناً منهم أن عسكر المسلمين يتبعهم[5].

- الخليفة الناصر والسلطان جلال الدين منكبرتي (617-628هـ / 1220 - 1230م)

حل محل خوارزم شاه علاء الدين ولده جلال الدين منكبرتي (617-628هـ/1220-1230م) كان موقفه من الدولة العباسية كموقف جده وأبيه في معاداتها، في وقت اشتدت فيـــه الغزوات المغولية على العالم الإسلامي، وبدأ سياسة التصدي لزحف التتر وتحالف معه ســـعد

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية،ج13، ص83. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص335-336.
(2) أوتروا: هي مدينة من مدن ما وراء النهر.
(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص330-331.
(4) داقوقا: مدينة بين أربل وبغداد وهي عن الاربل مسيرة خمسة أيام وهي بلده بها بساتين واعين تأتي من جبل حموين. أنظر ياقوت، معجم البلدان، ج2، ص459.
(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص337-338.

بن زنكي أتابك فارس وأمراء غزنه وفارس وكرمان وخراسان ومازندران وتمكن جلال الدين من الاستيلاء على العراق العجمي سنة 622هـ/1225م وقوي أمره وخافه الخليفة ببغداد[1].

ونجد أنه راودته أطماعه التوسعية في التوسع غرباً على حساب الخلافة العباسية والقوى الإسلامية الأخرى في تلك الظروف الحرجة، فاضطر الخليفة وأمراء المسلمين إلى محاربته، مما أدى إلى نتائج وخيمة حاقت بالدولة الخوارزمية أولاً وبالمشرق الإسلامي ثانياً[2].

وبدأت العلاقات العدائية بين السلطان جلال الدين منكبرتي والخليفة الناصر لدين الله بسبب رفض الخليفة الخطبة لجلال الدين بعد أن ترددت الرسل بينهما في ذلك مراراً، وكان مبرر الخليفة لرفضه "... أن اختلاف الدول وتقلب الدهر، وتغلب الخارجي على بغداد، وتسحب الامام القائم بأمر الله[3]، رضوان الله عليه، منها إلى "حديثه عانة وانتصاره بطغرلبك بن مكائيل والقصة مشهورة اقتضت تحكم بني سلجوق في بغداد، وإلا فليس بحكم أن يكون مع الزمان على أكتاف الخلافة متحكم بأمر فيها وينهى كيف شاء بما سر وساء ومهما احتجنا إليك في مثل ذلك، ولا كان ذلك، اجبناك إلى ما أجبنا أولئك، أوليس فيما أنعم عليه به من الممالك، الواسعة الأقاليم، المتباعدة المتشاسعة غنية عن الطمع في دار ملك أمير المؤمنين، ومشاهد آبائه الراشدين"[4].

والتقى رفض الخليفة بالخطبة للسلطان منكبرتي مع رغبة من قبله بالانتقام منه، وأراد تكوين حلف ضد الخليفة الناصر فكتب إلى المعظم عيسى بن الملك العادل الأيوبي صاحب دمشق يقول: تجئ أنت واتفق معي حتى نقصد الخليفة فإنه كان السبب في هلاك أبي وفي مجيء التتار وجدنا كتبه إلى الخُطا وتواقيعه لهم بالبلاد والخلع والخيل، فكتب إليه المعظم عيسى أنا معك إلا على الخليفة فإنه إمام المسلمين[5].

ولم يثن إحجام المعظم عيسى جلال الدين منكبرتي عن عزمه لمحاربة الخليفة، فسار بجيشه سنة 622هـ / 1225م إلى إقليم خوزستان الذي بيد الخليفة[6] وحاصر عاصمته تستر الا أنه فشل في احتلالها ولكن جنده نهبوا ما حواليها وعاثوا فيها فساداً، ثم رحل إلى العراق ونهب وقتل[7]

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص355.
(2) نافع العبود، الدولة الخوارزمية، ص106.
(3) حكم الخليفة العباسي القائم بأمر الله من سنة (422هـ / 1031م إلى 467هـ / 1075م).
(4) النسوي، سيرة السلطان منكبرتي، ص50.
(5) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج22، ص242، الذهبي، تاريخ الإسلامي حوادث 621-603، ص9-10.
(6) المقريزي، السلوك، ج1، ص339، القلقشندي، مآثر الأنافة، ج2، ص61.
(7) الحموي، التاريخ المنصوري، ص89.

وتابع سيره حتى وصل بعقوبا[1] وبينها وبين بغداد سبعة فراسخ فأنزعج الخليفة واستعد للحصار[2] ونصب المنجنيقيات وفرق العدد والأهراء وانفق الف ألف دينار[3].ولم يكتف بذلك بل أرسل إلى مظفر الدين بن زين الدين كوكبري حاكم أربل يأمره بالاسراع في تعبئة قواته وقطع خطوط التموين على جلال الدين وسد السبيل أمام جيشه، غير أن جلال الدين لم يقدم إلى بغداد بل أقام في بعقوبا ثمانية عشر يوماً[4].

واضطر بعدها إلى الانسحاب بسبب أعباء جيشه، وقلة دوابه، وافتقاره للتأييد المعنوي وتمسك الناس بدولة الخلافة من جهة، فضلاً عما سمعه من استعدادات الخليفة لصده إلا أن الحموي ذهب مذهباً آخر في سبب رجوع السلطان جلال الدين عن بغداد وذلك أن الخليفة أمر بعد أن علم بوصول جيش السلطان بتسيير الفدن إلى الأرض التي تحقق وصوله منها فحرثها وقلبها بحيث لا يبقى لدوابهم ما تأكله[5] ووصل دقوقا فأخذها وخربها وقتل جميع أهلها، ثم انتقل إلى البوازيج[6] وأخذ أموالهم وأطلقهم وأخذ خمسة عشر ألف فدان وسيرها بفلاحيها إلى بلاده[7].

ولما لم يستطع جلال الدين من تحقيق مأربه ضد الخلافة العباسية مال إلى مصالحة الخليفة الناصر بعد إخفاقه عن غزو بغداد، فراسله لمهادنته طمعاً في كسبه لصالحه، بهدف اضفاء الشرعية لكسب تأييد عامة المسلمين، بعد أن تأكد له على ما يقوله مؤرخه النسوي "أن ذلك البيت (الخلافة العباسية) هو الذي يؤيده الله بملائكته، وله سر في إدامته وإبقائه، فمن عاند خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين"[8].

---

(1) بعقوبا: قرية كبيرة بينها وبين بغداد سبعة فراسخ وهي كالمدينة ومن أعمال طريق خراسان وهي كثيرة الانهار والبساتين واسعة الفواكه متكاثفة النخيل وبها رطب وليمون بضرب يضرب لحسنها المثل وهي راكبة على نهر ديالى من جانبه الغربي ونهر جلولاء يجري في وسطها وعلى جانبي النهر سوقان وعليه قنطرة والسفن تجري من تحت القنطرة إلى باجسرا وغيرها من القرى ولها عدة حمامات ومساجد ينسب إليها أهل العلم ومنهم أبو الحسن محمد بن حمد اليعقوبي. أنظر ياقوت، معجم البلدان، ج1، ص453.

(2) المقريزي، السلوك، ج1، ص339، الذهبي، العبر، ج5، ص86.

(3) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث 621 – 630، ص9–10، اليافعي، مرآة الجنان، ج4، ص39، 40. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص105–106، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج22، ص242، الذهبي العبر، ج5، ص87.

(4) الحموي، التاريخ المنصوري، ص89.

(5) المصدر نفسه، ص89.

(6) البوازيج: بلد قريب من تكريت على فم الزاب الاسفل حيث يصب في دجلة ينسب إليه جماعة من العلماء منهم من المتأخرين منصور بن الحسن بن علي بن عادل بن يجي البواريجي فقيه فاضل حسن السيرة أنظر ياقوت، معجم البلدان، ج1، ص503.

(7) الحموي، التاريخ المنصوري، ص89.

(8) النسوي، سيرة السلطان منكبرتي، ص64.

وأكرم الخليفة الناصر رسوله وأعاده إلى مرسله "موفور الحظ مـــن الانعـــام جزيـــل القسط من النيل العام"[1].

وانتهى بذلك الصراع بين الخلافة العباسية والخوارزميين وعاد الصفاء بين الخليفـــة الناصر والسلطان جلال الدين بعد أن مال إلى مصالحة الخليفة.

وبالتالي تخلصت الخلافة العباسية من خطر الخوارزميين بعد أن جسدت علاقاتهمـــا الطابع العسكري الحربي إلا أن هذا الطابع لم يخل من بعض السفارات والدبلوماسيات الخائبة التي لم تلق النجاح والتوفيق في أغلب مهماتها[2].

---

[1] النسوي، سيرة السلطان منكبرتي، ص192-193.

[2] صادق السوداني، العلاقات الخارجية للخلافة العباسية، مجلة المورد، ص93.

الفصل الثالث

علاقة الخلافة العباسية بالدولة الأيوبية

نشأة الدولة الأيوبية:

شكلت الدولة الأيوبية مرحلة مهمة في التاريخ الإسلامي. وتبدأ نشأتها في رحم الدولة الزنكية حيث عاشوا في خدمتها حتى شاء الله أن يؤسسوا دولة لهم على انقاض الدولة الزنكية وينهضوا بالجهاد الإسلامي ضد الصليبيين.

يرجع أصل الأيوبيين إلى الأكراد الروادية[(1)] وينتسبون إلى أيوب بن شاذي من بلـــدة دوين[(2)] غير أن بعض الأيوبيين حاول أن يبتعد عن الأصل الكردي ويرجع نفسه إلى الأصل العربي بشكل عام ونسل بني أميه بشكل خاص وقالوا "إنما نحن عرب نزلنـــا عنـــد الأكـــراد وتزوجنا منهم"[(3)].

وأنكر صلاح الدين الأيوبي الذي يعد المؤسس الحقيقي للدولة هذا النسب وقال لـــيس لهذا أصل أصلاً[(4)].

ثم انتقلت الأسرة إلى تكريت في بداية القرن 6هـــ / 12 م حيث غادر شاذي مع ابنيه نجم الدين أيوب[(5)] وأسد الدين شيركوه[(6)] وعينه شحنتها مجاهد الدين بهروز حاكماً عليها ولما توفي خلفه ابنه نجم الدين أيوب[(7)].

وبدأت صلة شاذي بالاتابك عماد الدين زنكي سنة 527هـــ / 1132م عندما وقف إلى جانب زنكي بعد هزيمته أمام قوات الخليفة الراشد بالله (512 – 529هـــــ / 1118–1135م) وترتب على هذه المساعدة آثار بالغة الأهمية[(8)].

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص101، أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي (ت662هـــ / 1266م)، الروضتين في أخبار الدولتين النوريه والصلاحية، ط1، تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة بيروت، 1997م، ج1، ص403 وسيشار إليه لاحقاً أبو شامه، الروضـــتين، القرمـــاني، أخبار الدولة، ص194. والاكراد الروادية: بطن من الهذبانية وهي قبيلة كبيرة من الأكراد أنظـــر ابـــن خلكان، وفيات الأعيان ج7، ص139.

(2) بلدة من نواحي أران آخر حدود أذربيجان بالقرب من تفليس منها ملوك الشام بنو أيوب أنظـــر يـــاقوت، معجم البلدان، ج2، ص491.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص5–6.

(4) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج7، ص141.

(5) هو أبو الشكر أيوب بن شاذي بن مروان الملقب الملك الأفضل نجم الدين والد صلاح الدين تـــوفي ســـنة 568هـــ وقد كان رجلاً مباركاً كثير الصلاح أنظر، ابن خلكان وفيات الأعيان، ج1، ص260–261.

(6) هو أبو الحارث شيركوه بن شاذي بن مروان الملقب الملك المنصور أسد الدين عم صلاح الـــدين تـــوفي سنة 564هـــ في القاهرة ودفن بها ثم نقل إلى مدينة الرسول (ص) بعد مدة بوصية منـــه أنظـــر ابـــن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص479–480.

(7) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج7، ص139–140.

(8) أبو شامه، الروضتين، ج1، ص404.

وفي سنة 532 هـ / 1137م طرد بهروز الخادم نجم الدين أيوب واسد الدين شيركوه بسبب مساعدتهما لزنكي بالاضافة لقيام أسد الدين بقتل أحد مماليك بهروز مما أثار مخـاوف بهروز من تعاظم هذه الأسرة، فتوجها إلى عماد الدين زنكي الذي رحب بهما وضمهما إلـى خدمته[1].

وفي سنة 532هـ / 1138م كانت ولادة صلاح الدين يوسف بن أيوب بقلعة تكريـت وانتقل مع والده إلى الموصل فأقام بها إلى أن ترعرع [2] ثم انتقل والده إلى الـشام وأعطـي بعلبك وأقام صلاح الدين بها مع والده[3].

وبعد مقتل عماد الدين زنكي سنة 541هـ / 1146م انقسم أمراؤه بين ولديـه سـيف الدين غازي الذي استولى على الموصل والجزيرة ونور الدين محمود وكان من نصيبه حلب، وقد قام أسد الدين شيركوه بدور بارز في تولية نور الدين زنكي على حلب، حيث علت أهميته وانضوى في خدمة نور الدين[4].

وفي سنة 546هـ / 1151م انتقل صلاح الدين من بعلبك إلى حلب ودخل في خدمـة نور الدين محمود حاكماً وأسد الدين أيوب وعندما فـتح نـور الـدين مدينـة دمـشق سـنة 549هـ/1154م ولى عليها نجم الدين شيركوه نائباً عنه وصلاح الدين رئيساً لحاميتها[5].

وبدأ نجم صلاح الدين يعلو في دولة نور الدين محمود، حيث ألحقه بخواصه فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر[6]. في ذلك الوقت كانت الأوضاع في مصر الفاطمية مـضطربة، وكان الخليفة الفاطمي صورة لا معنى لها؛ وأصبح الوزراء هم الذين يسيطرون على الـسلطة خاصة عندما خلع على طلائع بن رزيك بالموشح والعقد والجوهر وخلع علـى ولـده قبلـه

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص101، أبو شامه، الروضتين، ج1، ص404-405.

(2) ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع (ت632هـ / 1234م)، النوادر السطانية والمحاسـن اليوسفية، ط2، تحقيق أحمد ايبش، الناشر الأوائل، دمشق، 2005، ص55 وسيشار إليه لاحقاً ابن شـداد النوادر السلطانية.

(3) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص56.

(4) الأصفهاني، عماد الدين الكاتب (ت597هـ / 1200م)، الفتح القسي في الفتح القدسـي، ط2، قـدم لـه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية – بيروت، 2003م، ص29 وسيشار إليه لاحقاً الاصفهاني، الفتح القسي.

(5) الأصفهاني، الفتح القسي، ص30.

(6) الأصفهاني، سنا البرق الشامي، اختصار قوام الدين بن علي البنداري، تحقيق رمضان ششن، تقديم اكمل الدين احسان أوغلي، اسطنبول 2004، ص8، وسيشار إليه لاحقا الاصفهاني، سنأ البرق الشامي

الوزارة وخلع على حواشيه، وأجري له سجلاً نعت به بالملك الصالح ولم يلقب أحد من الوزراء قبله بالملك وكتب له كتاب لتوليه الوزارة سنة 549هـ / 1154م[1].

وبدأت الغارات الفرنجية المتكررة على الأراضي المصرية، وهدد الملك الصليبي بلدوين الثالث بغزو مصر، ولم يرجع عن تهديده إلا بعد أن وعده الوزير طلائع بن زريك باسم الخليفة الفاطمي العاضد بجزية سنوية مقدارها مائة وستين ألف دينار[2].

وفي هذه الظروف لجأ ابن زريك للتحالف مع نور الدين، لكن الأحداث تطورت، حيث قتل الوزير طلائع بن زريك وتولى الوزارة في مصر ابنه أبو شجاع زريك بن الصالح الذي تولى الوزارة بوصية من والده[3].

وفي سنة 557هـ/ 1161م خرج شاور[4] عن طاعة العادل زريك واستولى على الوزارة، وبعدها كان الصالح بن زريك قد أنشأ أمراء يقال لهم البرقية وجعل ضرغام ابن عامر بن سدار الملقب أبا الأشبال فارس المسلمين مقدمهم ثم صار صاحب الباب فطمع في شاور وجمع رفقته فتخوف منه شاور[5].

وفي سنة 558هـ/ 1162م ثار ضرغام بشاور وغلبه وأخرجه من القاهرة وقتل ولده واستولى على الوزارة وتلقب بالملك المنصور، فاختلت الدولة وضعفت بذهاب أمرائها وأولي الرأي فيها[6] فلما أخرج شاور من القاهرة، توجه إلى الشام مستنجداً بنور الدين محمود ابن زنكي مستصرخاً به على أعدائه بعسكره، يطلب منه المساعدة لاستعادة منصبه في الوزارة[7] مقابل أن يكون لنور الدين ثلث دخل البلاد المصرية بعد اقطاعها العساكر، ويكون معه من

---

[1] المقريزي، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق محمد حلمي أحمد، القاهرة 1973، ج3، ص218 وسيشار إليه لاحقاً المقريزي، اتعاظ الحنفا.

[2] أبو شامة، الروضتين، ج1، ص

[3] المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص253، ابن تغري بردي الاتابكي، جمال الدين أبو المحاسن (ت874هـ / 1469م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط1، علق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، 1992م، ج5، ص322، وسيشار إليه لاحقاً ابن تعزي بردي، النجوم الزاهرة.

[4] هو ابو شجاع شاور بن مجير بن نزار بن عشائر بن شأس بن مغيث بن حبيب أبو الحارث بن ربيعة قتل سنة 564هـ، ودفن في تربة ولده طي أنظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص439-443.

[5] المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص260.

[6] ابن شداد، النوادر السلطانية، ص97، ابو شامه، الروضتين، ج1، ص407، المقريزي، إتعاظ الحنفا، ج3، ص261.

[7] الاصفهاني، سنا البرق الشامي، ص11، الفتح القسي، ص30، ابن شداد، النوادر السلطانية، ص97 ابن العديم، كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت660هـ/1261م)، زبدة الحلب من تاريخ حلب، ط1، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية بيروت، 1996م، ص344، وسيشار إليه لاحقاً ابن العديم، زبدة الحلب، أبو شامة، الروضتين، ج1، ص407، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص264.

أمراء الشام من يقيم معه في مصر ويتصرف هو (شاور) بأوامر نـــور الـــدين واختيـــاره[(1)] فأرسل نور الدين أسد الدين شيركوه إلى مصر عازماً على أن يعيد شاور إلى منصبه[(2)].

فكانت الحملة النورية الأولى على مصر سنة 559هـ/ 1163م بقيـادة أسـد الـدين شيركوه، فتمكنت القوات النورية من هزيمة الجيش الفاطمي، ودخلوا مصر وأعادوا شاور إلى الوزارة وهرب ضرغام فقتله بعض غلمانه[(3)].

بعد ذلك أرسل شيركوه إلى شاور يطلب منه تنفيذ ما تعهد به لنور الدين، لكن شـاور أنكر ذلك العهد، وبعد عدة مناوشات بين الطرفين قرر شيركوه العودة إلى دمشق بعد ما دفـع له شاور مبلغ خمسين ألف دينار[(4)].

وعاد شيركوه إلى الشام وأقام فيها مدبراً لأوامر نور الدين زنكي، مفكرا فـي كيفيـة الرجوع إلى البلاد المصرية بهدف ضمها إلى دولة نور الدين فكانت الحملة الثانية[(5)].

وفي سنة 562هـ/ 1166م كانت الحملة الثانية على مصر بقيادة أسد الدين شـيركوه وصحبته صلاح الدين، عندما علم شاور بذلك استعان بالفرنج واستنجد بهم، فكـان وصـولهم إلى البلاد المصرية مقارباً لوصول شيركوه إليها، وبعد عدة حروب تغلـب شـيركوه علـيهم واحتل الاسكندرية، ثم قرر العودة إلى بلاد الشام ثانية[(6)].

وفي سنة 564هـ / 1168م كانت الحملة الثالثة على مصر بقيادة أسد الدين شيركوه، بسبب خروج الفرنج لاحتلال مصر[(7)] فلما علم الافرنج بوصول أسد الدين شيركوه إلى مصر

---

(1) الأصفهاني، الفتح القسي، ص32، ابن العديم، زبدة الحلـب، ص344، المقريـزي، اتعـاظ الحنفـا، ج3، ص264.

(2) ابن العديم، زبدة الحلب، ص345، أبو شامه الروضتين، ج1، ص408، المقريزي، اتعاظ الحنفـا، ج3، ص265-266.

(3) الأصفهاني، سنا البرق الشامي، ص11، الفتح القسي، ص32، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص270 وقد ذكر ابو شامه، أن أسد الدين شيركوه كان بصحبته ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي في الحملة الأولى على مصر أنظر أبو شامه، عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصالحية، تحقيق أحمد البيـومي، منشورات وزارة الثقافة دمشق، 1991، ص266، وسيشار إليه لاحقاً أبو شامه، عيون الروضتين.
وابن شداد يذكر الحملة الأولى على مصر سنة 558هـ بقيادة أسد الدين شيركوه وبرفقتـه ابـن أخيـه صلاح الدين الأيوبي انظر ابن شداد، النوادر السلطانية، ص97-98.

(4) الأصفهاني، سنا البرق الشامي، ص11، ابن شداد النوادر السلطانية، ص98، أبو شامه، الروضتين، ج1، ص411، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص273-274.

(5) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص98، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص282.

(6) الأصفهاني، سنا البرق الشامي، ص12-14، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص94-95، ابن شداد النوادر السلطانية، ص99-100، أبو شامه، الروضتين، ج2، ص15، المقريزي، اتعـاظ الخنفـا، ج3، ص282-283.

(7) الأصفهاني، سنا البرق الشامي، ص21، ابن شداد النوادر السلطانية، ص101.

عن اتفاق بينه وبين أهلها رحلوا راجعين، وتطورت الأحداث حيث قام صلاح الدين وبعض الأمراء النورية بقتل شاور[1].

وتولى شيركوه الوزارة وخلع عليه العاضد خلع الوزارة ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش[2] وتولى ابن أخيه صلاح الدين إدارة مصر فقام بمباشرتها وصار إليه الأمر والنهي فيها[3].

ووفي سنة 564هـ/1168م توفي أسد الدين شيركوه، فتولى صلاح الدين الوزارة من بعده وأرسل إليه العاضد بالعقد والجوهر ونعته بالملك الناصر وذلك في يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من جمادى الآخرة[4] وصارت الخطبة بديار مصر للعاضد ومن بعده للملك العادل نور الدين ومن بعدها لصلاح الدين[5].

وفي سنة 565هـ / 1169م ورد كتاب نور الدين إلى العاضد يهنئه برحيل الفرنج عن دمياط وكان صلاح الدين سير إليه يبشره برحيلهم، وفيها وردت مكاتبة الخليفة المستنجد بالله العباسي (555-566هـ / 1160 - 1170م) إلى نور الدين لأجل إقامة الخطبة العباسية بمصر[6].

فكتب الملك العادل نور الدين لصلاح الدين يأمره بقطع خطبة، الفاطميين وأن يخطب لبني العباس لكن صلاح الدين تردد بالبداية، خوفاً من أهل مصر أن لا يجيبوه، ولكن نور الدين زنكي ألزمه بذلك[7].

وتمت عملية إلغاء الخطبة للفاطميين في مصر، واحلال الخطبة للعباسيين فيها بصورة تدريجية خوفاً من اثارة العناصر الاسماعيلية المعارضة في مصر، فبدأ صلاح الدين بإبطال الأذان بصيغته الشيعيه حيى علي خير العمل محمد وعلي خير البشر فكانت أول وصمه دخلت

---

(1) الأصفهاني، سنا البرق، الشامي، ص23، ابن شداد، النوادر السلطانية، ص102-103، المقريزي، اتعاض الحنفا، ج3، ص301 وقد أورد ابن تغري بردي عدة أسباب في قتله أنظر النجوم الزاهرة، ج5، ص334-335.

(2) الأصفهاني، سنا البرق الشامي، ص24، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص101، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص302.

(3) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص103، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص304.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص102، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص308، ابن العديم زبدة الحلب، ص351، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص337، وقيل انما الخليفة المستضيء الذي لقبه بذلك.

(5) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص311، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص338.

(6) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص316.

(7) ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص338، ابن العديم، زبدة الحلب، ص354.

على الدولة[1] ثم أمر أن يُذكَرَ في الخطبة يوم الجمعة الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وقام بعزل قضاه مصر الشيعيين، وولى قضاة شافعية[2] فصلاح الدين كان شافعي المذهب اشعري الاعتقاد[3].

وفي سنة 566هـ/ 1170م بدأ سياسته بالتوسع في إنشاء المدارس السنية للقضاء على الشيعة فبنى مدرسة للشافعية[4].

وفي سنة 567هـ / 1171م قطعت خطبة العاضد لدين الله وأقيمت الخطبة العباسية وقد تباينت الروايات فيمن قطع الخطبة للفاطميين في مصر فقيل أن أول من أقامها لهم إنسان اعجمي يعرف بالأمير العالم[5] لقوله أنا ابتدئ بها فصعد المنبر ودعا للمستضيء بأمر الله[6] وذكرت بعض المصادر أن من ابتدأ بها رجل من بعلبك يقال له محمد بن المحسن بن أبي المضاء البعلبكي[7] وبعدها أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة أن يقطعوا خطبة العاضد ويخطبوا للمستضيء[8] وبعد عدة أيام توفي الخليفة العاضد، فأمر السلطان صلاح الدين بالاحتياط على أولاده في موضع خارج القصر، جعله برسمهم على الانفراد[9].

وبهذا زالت الدولة الفاطمية فقام نور الدين محمود زنكي بزف الخبر إلى الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله، وأمر كاتبه بكتابة بشارة عامة تقرأ في سائر بلاد الإسلام، وبشاره خاصة للديوان العزيز بحضرة الإمام في مدينة السلام، وسير شهاب الدين أبا المعالي المطهربن الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون بهذه البشارة[10] ومما جاء فيها:

"أصدرنا هذه المكاتبة إلى جميع البلاد الإسلامية عامة بما فتح الله على أيدينا رتاجه، وأوضح لنا منهاجه، وهو ما اعتمدناه من إقامة الدعوة الهادية العباسية بجميع المدن والبلاد

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص252، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص317.

(2) ابن الأثير الكامل في التاريخ، ج9، ص111، ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص264، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص318.

(3) القرماني، أخبار الدول، ص195.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص111، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص319.

(5) هو نفسه نجم الدين الخبوشاني وهو محمد بن الموفق بن سعيد كان فقيهاً صوفياً ينسب لخبوشان وهي بلدة بناحية نيسابور ولد عام 510هـ / 1116م عمل محدثاً بالقاهرة توفي سنة 587هـ / 1190م أنظر أبو شامه، الروضتين، ج4، ص293.

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص111، ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص200، أبو شامة، الروضتين، ج1، ص190-191، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص325-326، Bartold, Caliph and Sultan, p 139

(7) أبو شامه، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، ط2، ترجمة محمد زاهر بن الحسن الكوثري، دار الجيل بيروت، 1974، ص312 وسيشار إليه لاحقاً أبو شامه، الذيل على الروضتين، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص338.

(8) أبو شامه، الروضتين، ج1، ص190-191، Bartold, Caliph and Sultan, p 139.

(9) الأصفهاني، سنا البرق الشامي، ص47-48.

(10) الاصفهاني، سنا البرق الشامي، ص50.

والاقطار والامصار المصرية، والاسكندرية ومصر والقاهرة، وسائر الأطراف الدانية والقاصية والبادية والحاضرة، وانتهت إلى القريب والبعيد، وإلى قوص وأسوان وهذا شرف لزماننا هذا وأهله نفتخر به على الأزمنة التي مضت من قبله، وما برحت هممنا في الأزل بقضاء آرائنا وتنجيز مواعدنا قاضية، حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها وقدرنا عليها وقد عجزوا عنها... فملكنا تلك البلاد، ومكنّ لنا في الأرض وأقدرنا على ما كنا نؤمله في إزالة الالحاد والرفض من اقامة الغرض وتقدمنا إلى من استبناه أن يستفتح باب السعادة، ويستنتج باب ما لنا من الإرادة، ويقيم الدعوة الهادية العباسية هناك... [1].

وسار شهاب الدين بن أبي عصرون إلى جهة بغداد ولم يترك مدينة إلا دخلها بهذه البشارة الجليلة القدر، وقرأ فيها هذا المنشور العظيم الخطر والذكر، حتى وصل إلى بغداد، فخرج الموكب إلى تلقيه وجميع أهل بغداد مكرمين لخطير وروده، معظمين لجليل مورده ونثرت عليه دنانير الانعام وحُبيَ بكل احسان وإكرام[2].

وأرسل صلاح الدين منشوراً إلى الحضره العباسية في بغداد، وهو من إنشاء القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني ومما جاء فيه: "وقد توالت الفتوح غرباً يمناً وشاماً، وصارت البلاد (بل الدنيا) والشهر بل الدهر حرماً حراماً، وأضحى الدين واحداً بعد ما كان أدياناً والخلافة إذا ذكر بها أهل الخلاف لم يخرجوا عليها صماً وعمياناً، والبدعه خاشعة والجمعة جامعة والمذلة في شيع الضلال شائعة، وذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء، وسموا أعداء الله اصفياء وتقطعوا أمرهم (بينهم) شيعاً وفرقوا أمر الله وكان مجتمعاً، وكذبوا بالنار فعجلت لهم نار الحتوف ونثرت أقلام اللظى حروف رؤوسهم نثر الأقلام للحروف، ومزقوا كل ممزق وأخذ منهم كل مخيف وقطع دابرهم ووعظ آبئهم غابرهم، ورغمت أنوفهم ومنابرهم، وحقت عليهم الكلمة تشريداً وقتلاً وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلاً وليس السيف عمن سواهم من (كفار) الفرنج بصائم ولا الليل عن السير إليهم بنائم ولاخفاء عن المجلس الصاحبي أن من شد عقد خلافة وحل (عقد) خلاف وقام بدولته وقعد بأخرى قد عجز عنها الأخلاف والاسلاف فإنه مفتقر إلى أن يشكر ما نصح، ويُقلد ما فتح، ويبلغ ما اقترح ويقدم حقه ولا يطرح، ويقرب مكانه وإن نزح وتأتيه التشريفات الشريفة...... وقد انهض لإيصال

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص203-204، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص472.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص205.

ملطفاته وتنجيز تشريفاته خطيب الخطباء بمصر، وهو الذي اختاره بمصر لصعود المنبر وقام بالامر قيام من بر واستفتح بلبس السواد الأعظم، الذي جمع الله عليه السواد الأعظم"[1].

فسير الخليفة عماد الدين صندل أستاذ الدار بالخلع والتشريفات لنور الدين ولـصلاح الدين كذلك الخلع التي للخطباء بالديار المصرية والاعلام السود والرايات، فلبس صلاح الدين الخلعة وطاف بها في الحادي والعشرين من رجب سنة 567هـ/ 1171م[2].

كذلك وصل في سنة 568هـ / 1172م شهاب الدين بن أبي عصرون من بغداد ومعه توقيع لنور الدين بمنطقتين من أعمال العراق كانت قديماً مقطعة لزنكي والد نور الدين فسأل نور الدين إحياء ذلك في حقه فأنعم بها الخليفة عليه، بالإضافة إلى خمسين ديناراً من دنـانير النثار التي نثرت يوم دخول الشهاب إلى بغداد يبشر بالخطبة لهم بمصر وزن كل دينار عشرة دنانير ومعه خلعه نفيسة لنور الدين وأخرى لصلاح الدين وألوية ومراكيب لهما وغير ذلك[3].

وفي سنة 569هـ/1173م توفي نور الدين محمود زنكي صـاحب الـشام والـديار المصرية، فخلفه ابنه الملك الصالح إسماعيل، والذي لم يتجاوز الحادية عشر من العمر، فحلف له الأمراء والمقدمون بدمشق وأطاعه الناس بالشام، وصلاح الدين بمصر وخطـب لـه بهـا وضرب السكه بإسمه، وتولى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بـإبن المقدم[4].

وبعد وفاة نور الدين وكون ابنه طفلاً لا ينهض بأعباء الملك، ولا يستقل بدفع عدو الله عن بلاده تجهز صلاح الدين للخروج إلى الشام، وتسلم دمشق من شمس الـدين بـن المقـدم ورتب أمورها[5].

وأرسل صلاح الدين للخليفة العباسي المستضيء يطلب تقليده مصر واليمن والمغرب والشام وكل ما يغتنمه بسيفه جاء فيه: "فإذا قضي التسليم حق اللقاء، واستدعى الاخلاص جهد الدعاء، فليعد وليعد حوادث ما كانت حديثاً يفتدى وجواري أمور إن قال فيها كثيراً فأكثر منه ما قد جرى وليشرح صدراً منها لعله يشرح منها صدراً..... فإنا كنا نقتـبس النـار بأكفنـا وغيرنا يستنير، ونستنبط الماء بأيدينا وسوانا يستمير، ونلقى السهام بنحورنا وغيرنـا يعتمـد

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص327-328.
(2) الأصفهاني، سنا البرق الشامي، ص51، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص112، القرماني، اخبـار الدول، ص194.
(3) أبو شامه، عيون الروضتين، ص329.
(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص126، ابن العديم، زبـدة الحلـب، ص358-359، المقريـزي السلوك، ج1، ص55.
(5) الأصفهاني، سنا البرق الشامي، ص96-97، ابن شداد، النوادر السلطانية، ص116

التصوير.... وكانت أخبار مصر تتصل بنا بما الأحوال عليه فيها من سوء تدبير وبما دولتها عليه من غلبة صغير على كبير، و أن النظام بها قد فسد، والاسلام بها قد ضعف عن اقامتـه كل من قام وقعد.... فسمت همتنا دون همم أهل الأرض إلى أن نستفتح مقفلهـا، ونـسترجع للإسلام شادرها، ونعيد على الدين ضالته منها، فسرنا إليها في عـساكر ضـخمة، وجمـوع جمة...." ثم قال "وكان باليمن ما علم من ابن مهدي الضال الملحد المبتدع المتمرد، وله آثـار في الإسلام، وثأر طالبه النبي عليه الصلاة والسلام لأنه سبى الشرائف الـصالحات وبـاعهن بالثمن البخس، واستباح منهن كل ما لا يقر لمسلم عليه نفس، ودان ببدعه......." إلى أن قـال "والمراد الآن هو كل ما يقوي الدولة ويؤكد الدعوة، ويجمع الأمة ويحفـظ الألفـة ويـضمن الرأفة، ويفتح بقية البلاد، وأن يطبق بالاسم العباسي، كل ما تطيفه العهاد، وهو تقليـد جـامع بمصر، واليمن، والمغرب، والشام، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية، وكل مـا يفتحـه الله تعالى للدولة العباسية بسيوفنا وسيوف عساكرنا، ولمن نقيمه من أخ أو ولد من بعـدنا تقليـداً يضمن للنعمة تخليداً، وللدعوة تجديداً...." [1].

فاستجابت الخلافة العباسية لطلب صلاح الدين وأرسلت عهده بالتقليـد والتـشريف، والأعلام السود وتوقيع بسلطنة بلاد مصر والشام وغيرها. وقد حفظ لنا القلقشندي في كتابـه "مآثر الانافة" نسخة العهد فقد حدد العهد البلاد التي تخضع لحكم السلطان مباشره ومما جـاء فيه: "إن أولى من جاءت رباعه سُحب الاصطناع، وخُص من الاصطفاء والاحتبار بالـصفايا والمرباع، من توسع فيه انتهاج الجدد القويم، والطريق الواضح المستقيم، واعتلق من الأولياء عصمه وحباله...... اقتضت الآراء الشريفة – لا زال التوفيق قد قرينها والتأييـد مظافرهـا ومعينها – إمضاء تصرفه وانفاذ حكمه في بلاد مصر وأعمالها، والصعيد الأعلى والاسكندرية وما يفتحه من بلاد الغرب والساحل وبلاد اليمن وما افتتحه منها، واستخلصه بعد من ولايتهـا والتعويل في هذه الولايات عليه.... آمره بادئاً بتقوى الله التي هي الجنة الواقيـة، والـذخيرة الباقية.... وآمره أن يتخذ كتاب الله لزواجه ومواعظه ويعتبر بتخويفه وملاحظه.... وآمره أن يكون على صلاته محافظاً، ولنفسه عن الاطراح والتقصير في أداء فرضها واعظاً.... وآمره بقصد المساجد الجامعة في أيام الجمع امتثالاً لامر الله المتبع.... وآمره بلزوم نزاهة الحرمات واجتناب المحرمات والتحلي من العفاف والورع بأجمل القلائد الرائقـة.... وأمـره بإحـسان السيرة في الرعايا بتلك البلاد.... وآمره بإظهار العدل في الرعيـة..... وآمـره أن يـأمر بالمعروف ويقيم مناره، وينهى عن المنكر ويمحو آثاره.... وليعلم أنه قد بين له من الـصلاح

---

[1] أبو شامه، الروضتين، ج2، ص357–366.

ما اتضحت اعلامه واثبتت في المرامي سهامه، وأرشد إلى ما أودع هذا المنشور مــن جــود الفوز بمرضاة الله تعالى وشكر عباده، عاملاً في ذلك بمقتضى جده اجتهاده، ليحرز السبق في دنياه وعقابه.." [1].

وفي سنة 570 هــ / 1174م كانت وقعه بين صلاح الدين وبين أصــحاب الــصالح اسماعيل بن نور الدين زنكي انتصر فيها صلاح الدين وهزمهم وغنم كل ما معهم ولم يقتــل فيها أكثر من سبع أنفس. وسار حتى نزل على حلب وقطع الخطبة للصالح وأزال اسمه عــن السكة في بلاده، فبعث إليه أهل الصالح يلتمسون منه الصلح، فأجاب على أن يكون لــه بــلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها واستزاد منهم المعره وكفر طاب[2] وبالتالي أصبح ســلطان مــصر وبلاد الشام[3].

- الخليفة الناصر لدين الله والسلطان صلاح الدين

في السنة التاسعة من ولاية صلاح الدين بن يوسف بن أيوب علــى مــصر انتقلــت الخلافة العباسية إلى الخليفة الناصر لدين الله بعد وفاة والده المستضيء بالله سنة 575هــــ / 1179م، حدث ذلك أثناء وجود سفير صلاح الدين ضياء الــدين الــشهرزوري فــي بعــض المهمات في بلاط الخليفة، فحضر إلى الديوان وبايع، وكاتب السلطان بــالخبر، فبــادر إلــى الخطبة للخليفة الناصر في جميع البلاد[4].

وفي سنة 576هــ/ 1180م وصل رسل الخليفة الناصر إلى الــسلطان وهــم شــيخ الشيوخ أبي القاسم عبد الرحمن بن اسماعيل ومعه شهاب الدين بشير الخاص[5]؛ بالتفويض[6] والتقليد[7] والتشريف فكان وصولهم كيوم عيد، فتلقاه السلطان بالتعظيم والتمجيد، ونزل الرسل إليه وسلموا عن أمير المؤمنين عليه فتقبل الغرض، وقبل الأرض ثم ركبوا ودخلــوا المدينــة (دمشق)، فأنزلهما أكرم منزل.

---

(1) القلقشندي، مآثر الانافة، ج3، ص86-98.

(2) بلدة بين المعره ومدينة حلب في برية معطشة ليس لهم شرب الا من ما يجمعونه من مياه الأمطــار فــي الصهاريج. أنظر ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص470.

(3) المقريزي، السلوك، ج1، ص59.

(4) الاصفهاني، سنا البرق الشامي، ص217، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص92.

(5) هو شهاب الدين بشير الخادم الذي توفي سنة 580هــ / 1184م بسخنه بين الرحبة ودمشق عند الرجوع من دمشق إلى بغداد أنظر الاصفهاني، سنا البرق الشامي، ص259.

(6) أي أن يفوض السلطان إليه أمر سروج والرها وحران والخابور ونصيبين أنظر الأيوبي، مضمار الحقائق ص51.

(7) هنا بمعنى المرسوم بتوليه شأن من شؤون الدولة أنظر الأيوبي، مضمار الحقائق، ص51.

كان السلطان يريد قصد الديار المصرية وسلوك طريق آيلة والبرية فحسن شيخ الشيوخ مصاحبته ورغبه في زيارة قبر الشافعي، فمضى في صحبته إلى مصر للزيارة، وتوجه منها إلى مكة[1].

وكتب السلطان صلاح الدين إلى الخليفة الناصر كتاباً يقول فيه: "والخادم ولله الحمد يعدد سوابقه في الإسلام، والدولة العباسية لا يعمرها أولية أبي مسلم لأنه والى ثم وارى، ولا آخرية طغرلبك لأنه نصر ثم حجر، والخادم خلع من كان ينازع الخلافة ردائها، وأساغ العضه التي أذخر الله للإساغة في سيفه ماءها، فرجّل الأسماء الكاذبة الراكبة على المنابر، وأعز بتأييد إبراهيمي فكسر الأصنام الباطنة بسيفه الطاهر"[2].

يقول أبو شامة "فتلقيناهم بالتعظيم والتمجيد وركب السلطان للتلقي وعلى صفحاته بشائر الترقي فلما تراءى له الرسل الكرام ووجب لهم الإجلال والإعظام نزل وترجل وأبدى الخضوع وترحل ونزل الرسل إليه وسلموا عن أمير المؤمنين عليه فتقبل الغرض وقبل الأرض ثم ركبوا ودخلوا المدينة"[3]. يبين لنا هذا مدى مكانة الخلافة عند الأيوبيون حيث كانت كلمتها مسموعة ونافذة ومدى احترام السلطان صلاح الدين للخليفة الناصر في احترامه للرسل الذين هم ممثلي الخليفة وبالتالي نراه يقدم فروض الطاعة والولاء للخليفة والخلافة.

كانت خلع الخليفة الناصر لصلاح الدين أثواباً مذهبه، وجواداً من ممتلكات الخليفة الخاصة عليه سرج من ذهب وفضة وغير ذلك من الهدايا الثقيلة، فركب السلطان بالخلع وزينت له دمشق وكان يوماً مشهوداً[4].

في سنة 576هـ / 1180م توفي سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي صاحب الموصل[5] وعندما اشتد المرض به أراد أن يعهد بالملك إلى ولده الصغير، لكن خوفه على دولته من صلاح الدين جعله يعهد إلى أخيه عز الدين مسعود مكانه للإبقاء على الملك الزنكي قوياً، فكتب عز الدين إلى السلطان صلاح الدين يطلب منه أن يكون معه كما كان مع أخيه مع إبقاء سروج والرها وحران والخابور ونصيبين بيده، لكن السلطان لم يجب على ذلك إذ هي له بتوقيع الخليفة وإنما جعلها بيد سيف الدين (المتوفي) بالشفاعة بشرط أن يقوي السلطان

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، القسم الاول ج8، ص360، الأصفهاني، سنا البرق الشامي، ص225-226 الأيوبي، مضمار الحقائق، ص51.

(2) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص417.

(3) أبو شامه، الروضتين، ج3، ص65-66.

(4) ابو شامة، الروضتين، ج3، ص66، ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص307.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، القسم الاول، ج8، ص363، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص318، المقريزي، السلوك، ج1، ص183.

بالعساكر[1] واستند السلطان صلاح الدين في رفضه هذا على التقليد والتفويض الذي أتاه مـــن الخليفة الناصر.

في سنة 577 هــ / 1181م توفي الملك الصالح اسماعيل بن نـــور الـــدين محمـــود صاحب حلب بها[2]. وكان قد استحلف قبل وفاته الأمراء، أن يكون الأمر من بعده إلـــى ابـــن عمه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي[3] خوفاً من استيلاء صلاح الدين عليها وجاء فـــي الوصية: "قد علمتم تغلب صلاح الدين على عامة بلاد الشام سوى ما بيدي ومعي، فإن سلمت حلب إلى عز الدين يعجز عن حفظها منه فإن ملكها صلاح الدين لا يبقى لأهلنا معـــه مقـــام، وإذا سلمتها إلى عز الدين أمكنه أن يحفظها لكثرة عساكره وبلاده وأمواله"[4] فوافق الأمـــراء على الاقتراح في حين كان يرى صلاح الدين أنه أحق بها لأنها من جملة اقطاعه بالتقليد الذي منحه إياه أمير المؤمنين المستضيء بأمر الله وإنما تركها بيد نور الـــدين لأجـــل أبيـــه والآن فليرجع كل إلى حقه وليقنع برقه[5].

ورأى صلاح الدين أن يراسل الخلافة في أمرها فكرر الإشارة إلى جهاده ثم إلـــتمس من الخلافة "بروز الأوامر الشريفة إلى صاحب الموصل بأن يلزم حده ولا يتجاوز حقه فـــلا ولاية له من خليفة تقترن بها المضاء ولا وراثه له في أرض الله، فإن الله يورث من يشاء فإن أطاع وأناب ورجع عن الخطأ وعاد إلى الصواب وإلا فما قصدنا إلا أن نقابلـــه وهـــو لأمـــر الخلافة المعظمة مخالف ونحن طائعون والمشار إليه متصامت ونحن سامعون"[6].

كان صلاح الدين خلال ذلك قد وزع قواته حول حلب ثـــم توجـــه نحـــو الموصـــل وحاصرها كما قام بإرسال رسالة أخرى للخليفة الناصر بعد تأخر الرد على رسالته الأولـــى، ولم ينفذ الموصل من السقوط في يده غير وصول رسل الخليفة سنة 578هــ / 1182م وهـــم

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، القسم الأول، ج8، ص365، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص192، ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص306.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، القسم الأول ج8، ص366، ابن العبـــري، تـــاريخ مختـــصر الـــدول، ص218، تاريخ الزمان، ترجمة إسحق أرملة، دار المشرق بيروت، 1986، ص197 وسيشار إليه لاحقاً ابن العبري تاريخ الزمان.

(3) الاصفهاني، سنا البرق الشامي، ص229، ابن شداد، النوادر السلطانية، ص124، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ص167.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص153-154 سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، القـــسم الأول، ج8، ص367.

(5) الاصفهاني، سنا البرق الشامي، ص234، الأيوبي، مضمار الحقائق، ص61.

(6) الأصفهاني، سنا البرق الشامي، ص235، الأيوبي، مضمار الحقائق، ص65.

شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير من أجل الصلح بين السلطان وصاحب الموصل، لكن تعنــت صاحب الموصل أدى إلى فشل المفاوضات بين الجانبين بالصلح[1].

وأقام السلطان على الموصل أياماً لكنه علم أنه بلد عظــيم لا يتحــصل منـــه شـــيء بالمحاصرة فقرر رفع الحصار عنها والتوجه إلى سنجار[2] ومعه رسل الخلافة الذين جـــاءوا من أجل الصلح، فحاصرها حتى استسلمت ودخلها في شعبان سنة 578هـ / 1182م[3].

وفي نفس السنة سار صلاح الدين إلى آمد فنزل عليها يوم الاربعاء لثلاث بقين مـــن ذي الحجة بعد أن استأذن الخليفة الناصر لدين الله أمير المؤمنين في ذلك فأذن له[4].

ثم دخل حلب في العام التالي 579هـ / 1183[5] وفيها كتب القاضي الفاضـــل إلـــى الخليفة الناصر يعلمه بما منّ الله عليه وعلى المسلمين من نصرة الدين وكان لا يفعل شيئاً ولا يريد أن يفعله إلا اطلع عليه الخليفة أدباً واحتراماً وطاعة واحتساباً[6].

وفي سنة 579هـ / 1183م طلب صاحب الموصل من الديوان العزيز إرسال شـــيخ الشيوخ للشفاعة والصلح مع السلطان فأرسل شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير ومعهما محـــي الدين الشهروزري من أجل الصلح بين السلطان وصاحب الموصل فأقاموا مده ورحلوا بغيـــر طائل[7].

وفي سنة 580هـ / 1184م توفي شيخ الشيوخ صدر الدين اسماعيل وكان قد ســـار من عند الخليفة إلى السلطان صلاح الدين في رسالة ومعه شهاب الدين بشير الخادم ليـــصلحا بين السلطان صلاح الدين وبين عز الدين مسعود صاحب الموصل فلم ينتظم الحـــال، واتفـــق

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص164، الأصفهاني سنا البرق الشامي، ص259، ابـــن العبـــري، تاريخ الزمان، ص198.

(2) مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة ايام وهي عامرة جداً وقدامها وادٍ فيه بساتين ذات أشجار ونخل أنظر ياقوت، معجم البلدان، ج3، ص262.

(3) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص126.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص134.

(5) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص129.

(6) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص314.

(7) الاصفهاني، سنا البرق الشامي، ص299، ابن شداد النوادر السلطانية، ص136، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، القسم الأول، ج8، ص378، ابن واصل، مفـــرج الكـــروب، ج2، ص155-156، المقريـــزي، السلوك، ج1، ص194، الأيوبي، مضمار الحقائق، ص162-163.

أنهما مرضا بدمشق وطلباً المسير إلى العراق وسارا في الحر فمات بشير بالسُخَنة[1] ومـــات صدر الدين شيخ الشيوخ بالرحبة[2] ودفن مشهد البوق[3].

وفي نفس السنة وصل رسل الخليفة ومعهم الخلع للسلطان صلاح الدين فلبسها وألبس أخاه الملك العادل وابن أسد الدين ناصر الدين محمد بن شيركوه خلعاً جاءت له[4].

وفي سنة 581هـ / 1185م كرر صلاح الدين حصاره الموصل وقد ســارت فـــي خدمته ابنة الملك نور الدين محمود ووالدة أتابك عز الدين وجماعة من أعيان الدولة يطلبـــون المصالحة فردهم خائبين وحاصر الموصل فبذل أهلها نفوسهم وقاتلوا أشد قتال، فندم وترحـــل عنها لحصانتها، ثم نزل على ميافارقين فأخذها بالامان، ووقع الصلح بينه وبين أهل الموصل على أن يخطبوا له وأن يكون صاحبها طوعه وأن يكون لصلاح الدين شهروز وحصونها[5].

وقد أورد السلطان صلاح الدين للخليفة الناصر حججاً تبرر حصاره للموصل منهـــا: "أن أهلها يواصلون الأعاجم (أي السلاجقة) ويخطبون لسلطانهم بل ونقشوا اسمه على الدنانير والدراهم وانهم يتعززون بالبهلوان (أتابك شمس الدين محمد بن أتابك ايلدكز البهلوان صاحب أصفهان وأذربيجان) ويعجزون إلا عن الطاعة والاذعان، وأنهم يراسلون الإفـــرنج ويقـــوون نفوسهم على قصد الثغور وتفريق الجمهور، وأنه ما جاء طمعاً في استضافة ملك ولا استزادة ملك ولا قلع ثبت قديم، ولا قطع أصل كريم، وإنما مقصوده الأصلي ومطلوبه الكلي ردهم إلى طاعة الإمام ونصرة الإسلام وقطعهم عن مواصلة الأعاجم وإلزامهم بما يجب عليهم من حفظ الجار وصلة الأرحام[6].

ولم يحل الخليفة الناصر بين صلاح الدين والموصل كما فعل في المرة السابقة، وبعد أن أحتلها صلاح الدين طلب تقليده بلاد الأرمن وديار بكر والموصل فجاءه التقليد بعدما فـــتح ميافارقين[7].

---

(1) بلده في برية الشام بين تدمر وعُرض وأراك يسكنها قوم من العرب أنظر ياقوت، معجـــم البلـــدان، ج3، ص196.
(2) قرية من قرى دمشق بينها وبين دمشق يوم كانت عامرة ثم خربت أنظر ياقوت، معجـــم البلـــدان، ج3، ص33-34.
(3) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص68، ومشهد البوق لم أجد لها تعريفاً في المصادر.
(4) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص140، ابن واصل، مفرج الكـــروب، ج2، ص162-163، المقريـــزي، السلوك، ج1، ص198.
(5) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص220.
(6) الاصفهاني، سنا البرق الشامي، ص326، أبو شامة، الروضتين، ج3، ص228.
(7) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص144.

يبدو أن الانتصارات التي حققها صلاح الدين والخطبة للخلافة رفعته في عين الخليفة الناصر مما جعل العلاقة بين الشخصين ودية.

وفي سنة 582هـ / 1186م ملك صلاح الدين مدينة طبريا وقلعتها وتقدم نحو عكا وأخذها ثم سار إلى قيسارية وحيفا وصفورية والناصرة ويافا وتبنين وصيدا وبيروت وعسقلان ولما فرغ من ذلك اقترب من بيت المقدس[1] وفي يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة 583هـ / 1187م وليلته ليلة الإسراء والمعراج أتم صلاح الدين تحرير بيت المقدس من أيدي الافرنج[2].

يعد فتح بيت المقدس فتحاً عظيماً ويوماً مشهوداً، فلقد عكست المصادر أهمية هذا الانتصار الكبير لأهمية تحرير بيت المقدس، وذكرت نقل البشارة إلى الخليفة الناصر لدين الله وأهم شيء أنه علا اسمه والدعاء إليه من فوق منابر بيت المقدس فذكر اسم أمير المؤمنين الناصر ثم اسم القائد صلاح الدين.

فيقول ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان يليق بنا أن نذكر الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل إلى الإمام الناصر لدين الله ابي العباس، تتضمن الفتوح فإنها بديعة بليغة في بابها، وقد اقتبست منها بعض الفقرات بسبب طولها: "أدام الله تعالى أيام الديوان الغزيز النبوي، ولا زال مظفر الجد بكل جاحد غنياً بالتوفيق عن رأي كل رائد...... كتب الخادم هذه الخدمة، تلو ما صدر عنه مما كان يجري مجرى التباشير لصبح هذه العزمة، والعنوان بكتاب وصف النعمة...

ولقد صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصايرها، وقد استتبت عقائد أهله على أبين بصائرها وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط، وصدق الله أهل دينه فلما وقع الشرط وقع المشروط فكان الدين غريباً فهو الآن في وطنه والفوز معروضاً.... وخفقت على الأقصى أعلامهم، وتلاقت على الصخرة قبلهم، وشفيت بها وأن كانت صخرة كما تشفى بالماء غُللهم.... وكان الخادم (صلاح الدين) لا يسعى سعيه إلا لهذه العظمى، ولا يقاسي تلك البؤس إلا رجاء هذه النعمة لتكون الكلمة مجموعة فتكون كلمة الله هي العظمى"[3].

ونتيجة لتحقيق هذا النصر الحاسم كتب صلاح الدين لوحة علقها على باب مدينة القدس جاء فيه: "ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون،

---

[1] ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص220.

[2] الأصفهاني، سنا البرق الشامي، ص400، الفتح القسي، ص85، ابن شداد، النوادر السلطانية، ص161.

[3] ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج7، ص179-186.

والحمد لله الذي انجز وعده ونصر عبده واقام خليفته القائم بحق الله سيد عتـرة رسـول الله، وثمره شجرته الطيبة المعرفة إليه أبا العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين أسـبغ الله ظله على الإسلام والمسلمين وشد عضده بولده وولي عهده ابي نصر محمد عدة الدنيا والدين وأعاد إليه تراثه وأصار إليه ميراثه من البيت المقدس على رغم أنف المشركين وهو المحمود المشكور على أن أجرى هذا الفتح على يدي محيي دولته وسيف نـصرته والقـائم بطاعتـه والمخلص في عبوديته والمجاهد تحت رايته يوسف بن أيوب معين أمير المؤمنين"[1].

فضلاً عن ذلك فإن صلاح الدين أرسل إلى الخليفة الناصر سنة 585هـ / 1189م عدداً من أسارى الفرنج بالاضافة للهدايا والتحف وتاج ملك الافرنج والصليب الذي كان فـوق صخرة بيت المقدس وأشياء كثيرة، فدفن الصليب تحت عتبة باب النوبى ببغداد وظل قسم منه بارزاً إلى الخارج فكان الناس يمرون عليه اعتزازاً بالنصر الذي حققته جيوش المسلمين على جيوش غرب أوروبا الغازية، وكان من نحاس مطلي بالذهب[2].

يعكس هذا الأمر دلالة واضحة على محاولة صلاح الدين إبراز انجازاته العسكرية في تحقيقه انتصارات ضد الفرنج، ومحاولة لإبراز بطولاته في الشام بالإضافة لمحاولته إشـراك الخلافة بهذه الانجازات لما تمثله من سلطه دينية وشرعية عند المسلمين.

وقد كتب السلطان إلى الديوان العزيز للبشارة بفتح القدس مع الرسول ضـياء الـدين الشهرزوري جاء فيه: "قد سبقت البشائر بما من الله به من الفتح العظيم، والنـصر العمـيم، والعرف الجسيم، والفضل الوسيم واليوم الأعز الكريم والشرف الذي ذخره الله لهـذا العـصر ليفضله على الأعصار وأراد تأخير الفخار إلى هذه الأيام ليكون بها تاريخ الفخار، فقد اعجـز الملوك عن اقتضاء نصرته وافتضاض عذرته، وخص من اجراه على يده بسمو قدره ونمـو قدرته وأعاد به القدس إلى قدسه وأظهره وطهره من رجس الكفر ووجسه، وقد رجع الإسـلام الغريب منه إلى داره... وشمل جماعة المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة، ما جمع للإسلام، فيه شملاً ورفعت الأعلام العباسية على منبره فأخذت من بره أوفى نصيب.... فالحمد لله الذي أبدل الايحاش بالايناس ونزع عنه بإفاضة خلع الرحمة عليه لباس الباس، وجعل عصر مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه على الاعصر مفضلاً وكمل بهذا الفتح الشريف شرف زمانـه فأصبح فخر الدين والدنيا به مكتملاً.... والقاضي ضياء الدين القسم الشهرزوري قـد توجـه

---

[1] ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص246، الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص281-282 وورد هذا النص لدى سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، القسم الأول، ج8، ص395-396 بصيغة أخرى.

[2] المقريزي، السلوك، ج1، ص215.

لهذه النعمة واصفاً وعندما يأمر به من أنهاء البشر بها واقفاً..... ويفتح على الإسلام أبـــواب الهناء بإنهاء ما تسنى من فتحه، ويحدث وهو الضياء بأسفار صحبه"[1].

وفي عام 584هـ / 1188م عندما تسلم صلاح الدين الكرك والشوبك والسلع وقلعـة صفد وكوكب كتب إلى الخليفة الناصر لدين الله يعلمه بهذه الفتوح[2]. هذا يؤكـد لنـا مـدى حرص السلطان صلاح الدين على إحاطة الخليفة بكل انتصاراته لما للخلافة من منزلة روحية لديه، وأنها انتصارات للخلافة العباسية نفسها خاصة وأن الأيوبيون يخطبون للخليفـة علـى منابرهم.

وفي عام 585هـ / 1189م وصل رسول دار الخلافة ضياء الدين عبد الوهاب بـن سكينه إلى السلطان صلاح الدين وكان سبب وصوله أن يخطب لولي العهد عدة الـدين أبـي نصر محمد ابن الإمام الناصر لدين الله فتلقاه السلطان بالابتهاج والانشراح ثم نـدب للرسـالة إلى الديوان العزيز في هذا الأمر ضياء الدين الشهرزوري القاسم بن يحيـى وسـيرت معـه الهدايا والتحف والطيب[3].

ومما يلفت للنظر أنه بالرغم من الصلات الودية التي ربطـت بـين صـلاح الـدين والخليفة الناصر، لم يحاول صلاح الدين الاستعانة بالخلافة لدعمه عسكرياً للتـصدي للغـزو الافرنجي بالرغم من أن صلاح الدين استعان بقوات أمراء الأطراف وتمثلت أشكال التعـاون بين الطرفين أن وصل رسول دار الخلافة فخر الدين نقيب العلويين بمـشهد التـين بالنجـدة والرحمة والرأفة واحتفل السلطان بقدومه ووصل ومعه حملان من النفط الطيار وحملان مـن القنا الخطار، وتوقيع بعشرين ألف دينار تقترض من التجار على الديوان العزيز وخمسة مـن الزراقين[4] والنفاطين المتقنين صناعة الإحراق بالنار أخذ السلطان المعونـة وشـكر عليـه الديوان ورد التوقيع عليه[5].

وقال: "كل ما معي من نعمة أمير المؤمنين، ولولا صرف أموال هذه البلاد للجهـاد، لكانت محمولة إلى الديوان"[6]. وأركب الرسول معه وآراه معارك القتال، ومصارع الرجـال،

---

(1) الاصفهاني، الفتح القسي، ص96-97.
(2) المقريزي، السلوك، ج1، ص214.
(3) الاصفهاني، الفتح القسي، ص172-174، ابن كثير، البداية والنهاية، ج2، ص332.
(4) الزراق والجمع زراقون وهو من يرمي النفط من الزراقة وهي أبنوبة خاصة يزرق بها النفط لبثقه علـى السفن والابراج الخشبية واحراقها، أنظر ابن شداد، النوادر السلطانية، ص212.
(5) الأصفهاني، الفتح القسي، ص222-223، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، القسم الأول، ج8، ص401، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص314.
(6) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص314.

ومجامع الابطال وأماكن البعوث حتى يشهد بما يشاهد، ويبين له المجتهد والمجاهد وأقام الرسول طويلاً، وأقام له السلطان من طوله دليلاً، ووفر له عطاء جزيلاً وعزماً جميلاً حتى استأذن في العودة فعاد واستصحب الشكر والاحماد[1].

ويبدو أن رفض صلاح الدين المساعدات المادية من الخلافة راجع إلى تخوفه من أن يقع تحت سيطرة الخليفة الكاملة، فاكتفى بالدعم المعنوي والتأييد الروحي واللجوء إلى الخلافة عند الأزمات لفض المنازعات التي قد تنشأ.

وربما أدرك صلاح الدين أن استعانته بجيش الخلافة يمكن أن يؤدي إلى تدخل الجيش بشؤون دولته، مما يمكن أن يؤدي إلى تعكير صفو العلاقة مع الخلافة.

وفي سنة 586هـ / 1190م أرسل كتابا يحمل البشارة، عندما أحرق للعدو أبراجه ورموه بالنفط وأن النار دبت إلى المنجنيقات والدبابات[2].

وفي سنة 588هـ / 1192م أرسل السلطان إلى الديوان العزيز كتاباً مضمونه شرح نوبة يافا ثم افضاء الأمر إلى عقد الهدنة مع الإفرنج[3]. وفي سنة 589هـ / 1193م يوم الأربعاء ليلة السابع والعشرين من صفر توفي السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب[4].

- الخلاف بين السلطان صلاح الدين والخليفة الناصر لدين الله (سببه وشكله):

لا يستبعد أن تكون انتصارات صلاح الدين المتوالية قد سببت حرجاً للخليفة الناصر إذا ما قيست بمشاكله الداخلية والخارجية، ثم إن هذه الانتصارات لم ترافقها هدايا قيمة للخليفة بل على العكس هدايا وضيعة أوجبت عتب الخليفة ولومه، فضلاً عن أن السلطان لما كسر الفرنج بحطين قد ندب للرسالة إلى الديوان العزيز في معنى البشارة شاب بغدادي من الاجناد كان قد هاجر إلى الأبواب السلطانية وكان ببغداد خاملاً كثير الادبار، يعرف بالرشيد البوشنجي[5].

فلما سيره السلطان في الرسالة إلى بغداد قامت القيامة بمراسلته، وأنكر ذلك على السلطان غاية الانكار، وقد استغل أعداء السلطان في عاصمة الخلافة التي تمنح الشرعية هذا الخطأ الدبلوماسي الذي وقع فيه، فتطرقوا إلى القول والقدح فيه وراموا إلى أبعاد السلطان

---

(1) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص212، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص314.
(2) الأصفهاني، الفتح القسي، ص227-228.
(3) المصدر نفسه، ص354-356.
(4) الأصفهاني، الفتح القسي، ص367، ابن شداد، النوادر السلطانية، ص421، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، القسم الأول،ج8، ص425.
(5) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص248، ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص327-328 أبو شامه، الروضتين، ج3، ص418.

وإيخال قلب الخليفة عليه فقالوا: "أنه أساء الأدب لإبقاء اسمه بالملك الناصر مضافاً للاسم الأشرف الذي هو الإمام الناصر، وأن مقصوده قلب الدولة والاستبدال بها، كما فعل بالمصريين فإنه يدل بما له من القوة والعساكر وكثرة الممالك، وقالوا في ذلك ما كثر واحنق الديوان"[1].

وقد أورد السيوطي في حوادث عام 577هـ/ 1181م معاتبة الخليفة الناصر للسلطان صلاح الدين في تسميته بالناصر فيقول: "أنه عوتب صلاح الدين في تسميته بالملك الناصر مع علمه أن الخليفة اختار لنفسه هذه التسمية"[2] كما أورد كذلك الذهبي في حوادث سنة 577هـ / 1881م فقال وفيها أرسل من الديوان إلى السلطان صلاح الدين يأخذ عليه في أشياء منها تسميته بالملك الناصر مع علمه أن الإمام اختار هذه التسمية لنفسه[3].

كان الخليفة العباسي في ذلك الوقت قد أجرى تعديلاً أساسياً في دولته وسياستها العامة: فبعدما كان يتقرب من الشيعة، بسبب تحكم ابن الصاحب في دولته، قام بالقضاء على ابن الصاحب وعين وزيراً جديداً هو عبيد الله بن يونس كما عين استاذاً جديداً لداره هو الكاتب المنشئ يحي بن سعيد بن زيادة الشيباني، ويبدو أن الوزير والكاتب الاستاذ، واعداء صلاح الدين في العراق قد استضعفوا هذه الهفوة، فبعثوا أخا العماد الكاتب في إجابة البشارة ومعه كتاب شديد اللهجة إلى صلاح الدين عددوا فيه الكثير من الأمور، ومنها الرسول المبعد عن العراق وكثرة الخوض في المذاهب وإحياء بدع القرامطة من قبل أخيه في اليمن ومراسلته التركمان والأكراد الذين لا يعرفون إلا أنهم رعية العراق، وحمل كتاب الخليفة تلميحاً بتهديد صلاح الدين بسحب الشرعية التي منحه إياها الخليفة[4].

وكان الهدف من وراء كل ذلك زعزعة الثقة بين السلطان صلاح الدين والخليفة الناصر لدين الله.

وهناك حادثة أشار إليها ابن الأثير في كتابه الكامل ربما تلقي الضوء على التوتر والخلاف الذي ذكر بين الخليفة الناصر والسلطان صلاح الدين، وقعت في عام 584هـ / 1188م. وكان الخليفة أرسل جيشاً بقيادة وزيره جلال الدين عبيد الله بن يونس إلى همذان لقتال سلطانها طغرل ليكف شغبه عن البلاد والتقى الجيشان وانهزم عسكر الخليفة وعاد إلى بغداد، ووصل خبر الهزيمة إلى الشام يصف ابن الأثير ردة فعل صلاح الدين بالقول:

---

(1) ابن واصل، ومفرج الكروب، ج2، ص249، أبو شامة، الروضتين، ج3، ص419.
(2) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص417.
(3) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ووفيات 571- 580هـ، ص44.
(4) أبو شامه، الروضتين، ج3، ص421.

"وكنت حينئذ بالشام في عسكر مع صلاح الدين يريد الغزاة، فأتاه الخبر من النجابيين بمسير العسكر البغدادي، فقال كأنكم وقد وصل الخبر بإنهزامهم فقال له بعض الحاضرين: وكيف ذلك؟ فقال: لا شك أن أصحابي وأهلي أعرف من الوزير وأطوع في العسكر منه. ومع هذا، فما أرسل أحداً منهم في سرية للحرب إلا وأخاف عليه، وهذا الوزير غير عارف بالحرب وقريب العهد بالولاية، ولا يراه الأمراء أهلاً أن يطاع، وفي مقابلة سلطان شجاع قد باشر الحرب بنفسه ومن معه يطيعه وكان الأمر كذلك، ووصل الخبر إليهم بانهزامهم فقال لأصحابه، كنت اخبرتكم بكذا وكذا وقد وصل الخبر بذلك"[1].

يلاحظ من هذا القول أن هناك ما يشبه الشماتة بوزير الخليفة الناصر وقلة خبرته في الحرب في حين قد أصبح صلاح الدين آنذاك بطل حطين ومحرر القدس وساحل بلاد الشام.

ونجد صلاح الدين قد برر للخليفة معتذراً عن تقصيره بأمور الهدايا بسبب انشغاله بأمور الحرب، أما لقب الناصر فإنه ليس بجديد وإنه من عهد الإمام المستضيء بنور الله أمير المؤمنين والآن ما يشرفني به أمير المؤمنين من السمة فهو اسمي الذي أتشرف به وأعرف، وما غرضي إلا استكمال الفتوح لأمير المؤمنين وقطع دابر الكفر[2].

ويورد المؤرخ القلقشندي عهد ديوان الإنشاء ببغداد لصلاح الدين بتقليده مصر والشام واليمن والذي ورد فيه تلقيبه بالناصر "ولما كان الملك الأجل السيد صلاح الدين، ناصر الإسلام عماد الدولة جمال الملة"[3].

إلا أن صلاح الدين كما يبدو لم يتلقب بهذا اللقب بداية وتلقب به لاحقاً لما قد يسببه من كدر للخليفة الناصر، إلا أن تكدر الصلات بين الاثنين دفعت صلاح الدين إلى التلقب به حيث يقول القلقشندي "كان الخليفة الناصر متغيراً على صلاح الدين حين تلقب بالملك الناصر لما في ذلك من مضاهاة لقب الخليفة"[4].

لذا يمكن القول بأن حمل اللقب كان فيه نوعٌ من التحدي للخليفة الناصر إلا أن عتاب الناصر واحترام صلاح الدين وتقديره له دفعت صلاح الدين إلى التروي في موقفه فأعتذر من الخليفة وتأدب معه[5].

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص197–198.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص420، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص250، ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص327–328.

(3) الاصفهاني، الفتح القسي، ص119، القلقشندي، مآثر الانافة، ج3، ص86–87.

(4) القلقشندي، مآثر الانافة، ج3، ص86.

(5) ابن كثير، البداية والنهاية ج12، ص327–328.

بالاضافة إلى ما ذكر في استشهاد الأمير شمس الدين بن المقدم[1] ففي سنة 583هـ / 1187م بينما كان السلطان صلاح الدين يتنقل بين صور وعكا مدافعاً للعدو وصله نعي شمس الدين بن المقدم أمير الحج الشامي الذي راح ضحية غرور أمير الحج العراقي طاشتكين، فتألم صلاح الدين وبالتالي تأكدت الوحشة بينه وبين الخليفة الناصر[2].

ومع هذه الأسباب التي ذكرت لتوتر العلاقة بين الخليفة الناصر والسلطان صلاح الدين ألا أن هناك أسباباً خفية ربما تعود إلى ظهور اسم صلاح الدين كبطل محرر يقاتل الممالك الأفرنجية ويهزمها الأمر الذي ساهم في زرع بذور التنافس على الزعامة ودور كل فريق في تسجيل الانتصارات باسمه.

ويذكر أنه في فترة لاحقة وتحديداً منذ سنة 583هـ / 1187م حصلت الفتوحات الكثيرة وسقطت العديد من الممالك الفرنجية في بلاد الشام، فيذكر السيوطي في تاريخه أخذ السلطان صلاح الدين الكثير من البلاد الشامية التي كانت بيد الفرنج، وأعظم ذلك بيت المقدس، وكان بقاؤه في يد الفرنج إحدى وتسعين سنة[3].

أو ربما يعود ذلك على ما يبدو لشعور الخليفة بأن صلاح الدين وانتصاراته ستسهم في زيادة شعبيته على حساب الخلافة، وانشغال الخلافة في صراعاتها مع السلاجقة والخوارزميين في الشرق والتي استدعت اهتمام الخليفة في المقام الأول، بالإضافة إلى أن الوصاية السلجوقية كانت وما تزال حاضرة في الأذهان ، فكان لدى الخليفة حساسية خاصة إزاء تعاظم دور الأمراء المجاورين التي لم تكن حدود بلادهم أو مناطق نفوذهم واضحة التحديد[4].

يذكر مصطفى الحياري أن أساس التوتر بين الجانبين يعود لرغبة الخليفة لاخضاع دولة صلاح الدين الكلي له والتي كانت مهتمة بأكثر من الشكليات والمراسيم الدبلوماسية التي ولدت فجوة بينهما كان لها أثرها على هيبة السلطان في نظر حلفائه الذين عمل كثيراً على اكتسابهم خاصة في المناطق الشرقية من حدوده ومناطق نفوذه[5].

---

(1) هو شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم صاحب بعلبك من كبراء أمراء الدولتين النورية، والصلاحية، أنظر الاصفهاني، الفتح القسي، ص120.

(2) الاصفهاني، الفتح القسي، ص120، ابن شداد، النوادر السلطانية، ص166، أبو شامة الروضتين، ج3، ص425.

(3) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص418.

(4) كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ص195.

(5) مصطفى الحياري، صلاح الدين القائد وعصره، ص295-296.

وفي محاولة من صلاح الدين لإعادة المياه إلى مجاريها مع الخليفة أرسل له رسالة جاء فيها "يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين" "أدام الله أيام المجلس السامي القوامي أدامه تؤذن بتشديد معاليه وتشمل بيمنها وبركتها حاضر وقته وتاليه، وتؤيد من يواليه وتخلد معها ناضر وقته وحاليه ويتكافأ بها ترادف النصر وتواليه وتزينه بمحاسن الصفات وتحليه" ثم يعاتبه في هواده "في سالف الوقت قيل فيمن سارع للائم إليه وأعجله رب ملوم لا ذنب له وأن كان أعلى الله كلمته أعنف في النصيحة وأوضح فقد أنهى الجروح وأوسع وربما بالغ الطبيب في إغراق المبضع واشتد الألم وإن لم يلم"[(1)] ولم تلبث الأمور بين الجانبين أن تحسنت وعادت إلى سابق ما كانت عليه.

وهكذا يتضح لنا أن علاقة صلاح الدين بالخليفة الناصر كانت وثيقة سادتها روح التعاون والاحترام والاعتراف بالسيادة الدينية للخليفة العباسي رغم القوة التي وصلتها دولة بني أيوب في عهده (صلاح الدين) مما أرسى هذه العلاقات على أسس قوية مترابطة.

فلقد كان صلاح الدين واحداً من النماذج القيادية الفذة التي ظهرت على مسرح التاريخ العربي الإسلامي ويكمن سر نجاحه في حنكته السياسية وقدرته العسكرية بالاضافة إلى طابع شخصيته القوية.

وبالتالي نجد صلاح الدين موالياً للخلافة العباسية بشكل عام وللخليفة الناصر بشكل خاص، معارضاً للتفكك والانقسام بين أقاليم الدولة ظهر هذا جلياً حين بادر بتهنئة الخليفة الناصر عندما نصب خليفة للمسلمين، ورد الخليفة عليه بإرسال التشريف والتقليد فكانت علاقة كل منهما بالآخر علاقة ودية ظفرت بالتضامن والتفاهم بين الطرفين وتستمر العلاقات الودية والطيبة والتعاون المتبادل ما بين كرسي الخلافة ببغداد والدولة الايوبية في مصر والشام حتى بعد وفاة السلطان صلاح الدين، بل أن هيبة الخلافة تزداد قوة ونفوذه يزداد اتساعاً حيث نرى أن أولاده وورثته يسارعون إلى إعلان الولاء للخلافة وطلب التقليد والتأييد من الخلافة.

- الخليفة الناصر لدين الله وملوك الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين

بعد وفاة صلاح الدين توزعت المملكة الايوبية بين أولاده، فملك الأفضل دمشق الساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وغيرها، وبالديار المصرية وما ينسب إليهما الملك العزيز عماد الدين عثمان وبحلب وبلادها الملك الظاهر غياث الدين غازي وباليمن عمهم الملك العزيز، وبالكرك والشوبك الملك العادل بحماة والمعرة ومنبج ناصر الدين محمد

---

(1) السوداني، العلاقات الخارجية للخلافة العباسية في عهد الخليفة الناصر، مجلة المورد، ص98.

وبحمص والرحبة وتدمر أسد الدين شيركوه، وببعلبك وأعمالها الملك الامجد، وبصرى بيد الملك الظافر[1].

حاول الأفضل الذي تولى دمشق بعد والده أن تكون له زعامة الأيوبيين فأسرع بإبلاغ الخلافة خبر الوفاه، ثم ندب الضياء الشهرزوري في حمل رسالة إلى بغداد بعد أن استشار أخويه وعمه في مصر والشام وأعلمهم بإرسال الرسول حتى لا يظن أنه انعزل بالعمل[2] وقد ضمنت رسالته ما يلي:

"أصدر العبد هذه الخدمة وصدره مشروح بالولاء، وقلبه معمور بالصفاء ويده مرفوعة إلى السماء للابتهال بالدعاء، ولسانه ناطق بشكر العلماء، وجنانه ثابت بين المهابة والمحبة على الخوف والرجاء وطرفه مفضي من الحياء وهو للأرض مقبل، وللغرض متقبل، وهو يمت بما قدمه واسلفه سلفه من الخدمات وذخره ذخر الأقوات لهذه الأوقات، وقد أحاطت العلوم الشريفة بأن الوالد السعيد، الشهيد الشديد السديد المبيد للشرك المبيد، لم يزل أيام حياته وإلى ساعة وفاته مستقيماً على جدد الجد متمنياً في صون فريضة الجهاد إلى بذل الجهد ومصر بل الامصار باجتهاد في الجهاد شاهده والانجاد في الأغوار في نظر عزمه واحده والبيت المقدس من فتوحاته والملك العقيم من نتائج عزماته وهو الذي ملك ملوك الشرك وغل اعناقها، وأسر طواغيت الكفر وشد خناقها، وقمع عبدة الصلبان وقصم اصلابها وجمع كلمة الإيمان وعصم جنابها ونظم أسبابها وسد الثغور، وسدد الأمور، وقبض وعدله مبسوط، وأمره محوط ووزره محطوط وعمله بالعلاج منوط، وما خرج من الدنيا إلا وهو في حكم الطاعة الأمامية داخل، وبمتجرها الرابح إلى دار المقامة راحل ولم تكن له وصية إلا بالاستمرار على جادتها والاستكثار، وإن مضى الولد على طاعة إمامه فالمماليك أولاده وأخوته في مقامه"[3].

وقد أرسل الملك الأفضل عند تسلمه للسلطة في دمشق إلى بغداد رسوله وفي صحبته لأمة الحرب التي لصلاح الدين وسيفه ودرعه وحصانه الذي كان يحضر عليه الغزوات بالإضافة إلى الهدايا والتحف والخيل العراب ودينار واحد وسته وثلاثون درهماً، لم يخلف من المال سواها[4].

كذلك أرسل بهدايا سنية منها صليب الصلبوت الذي استله أبوه من الفرنج يوم حطين وفيه من الذهب ما ينيف على عشرين رطلاً مرصعاً بالجواهر النفيسة، وأربع جوارٍ من بنات

---

[1] ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص3-4.
[2] الأصفهاني، الفتح القسي، ص380، المقريزي السلوك، ج1، ص228.
[3] الاصفهاني، الفتح القسي، ص381، ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص5-6.
[4] الأصفهاني ، الفتح القسي، ص 380، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 419.

ملوك الفرنج، وأنشأ له العماد كتاباً حافلاً يذكر فيه التعزية بأبيه والسؤال من الخليفة أن يكون في الملك من بعده فأجيب إلى ذلك[1].

هذه الأمور تؤكد لنا استمرار التبعية الأيوبية للخلافة العباسية بعـد وفـاة الـسلطان صلاح الدين.

على أن الأفضل لم يستطع أن يحافظ على زعامة الأسرة بسبب عمه العـادل (596-615هـ/ 1200-1218م) الذي كان يعتقد أنه أولى بها لكبر سنه وسابق جهـاده، علـى أن العادل استطاع أن يسيطر على الأمور سنة 596هـ/1200م ووضعت البلاد تحـت حكمـه وحلف الجميع له[2].

ودبت الصراعات والخلافات الداخلية بينهم وبين أبناء عمومتهم، مما أضـفى تبعـات جديدة على الخلافة العباسية في علاقتها مع الأيوبيين، على اعتبارها صاحبة الرئاسة العليـا، وهي التي تمنحهم التفويض بحكم البلاد التي تحت أيديهم من الناحية الشرعية.

ففي سنة 592هـ/1195م عندما اشتد الصراع في دمشق بين الأخوة الأفضل والعادل كتب الملك الأفضل إلى الخليفة الناصر يشتكي إليه اغتصابهما ميراثه من أبيه جاء فيه:

مـولاي أن أبـا بكـر وصـاحبه   عثمان قـد أخـذا بالـسيف ارث علـي
فانظر إلى حظ هذا القـسم كيـف بقـي   من الأواخـر مـا لاقـي مـن الأول[3]

وفي نفس المعنى

امـا آن للـسعد الـذي أنـا طالـب   لإدراكـه يومـا يُـرى وهـو طـالبي
ترى هل يريني الـدهر أيـدي شـيعتي   تمكن يوماً مـن نواصـي النواصـب[4]

فأجابه الناصر

وافـى كتابـك يـابن يوسـف معلنـاً   بـالود يخبـر أن أصـلك طـاهر
غـصبوا عليـا حقـه إذا لـم يكـن   بعـد النبـي لـه بيثـرب ناصـر
فأبـشر فـإن غـدا يكـون حـسابهم   واصـبر فناصـرك الإمـام الناصـر[5]

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 8.
(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص 111-112.
(3) يريد بأبي بكر عمه وبعثمان أخاه وبعلي نفسه.
(4) يريد بالشيعة أصحابه لأن اسمه علي، وبالنواصب أصحاب العادل أبي بكر والعزيز وعثمان، ص50..
(5) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 237، ابن واصل، مفرج الكـروب، ج3، ص 69، أبـو الفـداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص93 القلقشندي، مآثر الانافة، ج2، ص63 المقريزي، السلوك، ج1. ص340.

ولم يلق الأفضل من الخليفة سوى التأييد الكلامي، فلم يكن رده قوياً من الناحية العملية كما كان من الناحية الشعرية العقائدية، لأن صلاته مع الملك العادل كانت على احسن ما يكون، ففي سنة 599هـ/1202م أرسل إليه الخليفة الناصر الخلع وسراويلات الفتوة له ولأولاده[1].

يذكر ضياء الدين ابن الأثير في رسائله عن الملك الظاهر غازي بن يوسف أنه أرسل في سنة 602هـ/1205م، كتاباً إلى دار الخلافة ببغداد يلتمس به من الخليفة ارسال سراويل الفتوة وهذا الأمر يوضح لنا مدى العلاقة الطيبة مع ديوان الخلافة.

وفي سنة 604هـ/1207م بعث العادل استاذ دراه الامير ألدكز العادلي، وقاضي العسكر نجم الدين خليل المصمودي، إلى الخليفة في طلب التشريف والتقليد بولاية مصر والشام والشرق وخلاط، فلما وصلا إلى بغداد اكرمهما الخليفة الناصر وأحسن إليهما وأجابهما، وسير الشيخ شهاب الدين أبا عمر بن محمد بن عموية السهروردي ومعه التشريف الخليفي والتقليد[2].

وخلع للصاحب صفي الدين بن شكسر، وخلع لأولاد العادل وهم الملك المعظم والملك الأشرف و الملك الكامل وعندما قارب الشيخ أبو حفص حلب خرج الملك الظاهر بعساكره إلى لقائه وأكرم نزله[3].

وفي ثالث يوم من نزوله أمر بكرسي فنصب له، وجلس عليه للوعظ وجلس الظاهر ومعه الأعيان فصدع بالوعظ حتى وجلت القلوب، ودمعت العيون، وأخبر الشيخ في وعظه بأن الخليفة أطلق في بغداد وغيرها من المؤن والضرائب ما مبلغه ثلاثة آلاف ألف دينار ثم سار من حلب ومعه القاضي بهاء الدين بن شداد وقد دفع إليه ثلاثه آلاف دينار برسم النثار، إذا لبس عمه العادل خلعه الخليفة، وبعث الملك المنصور من حماه أيضاً مبلغاً للنثار وخرج العسكر من دمشق للقائه ثم خرج العادل بابنيه الأشرف موسى والمعظم عيسى وبرز سائر الناس لمشاهدة ذلك فكان يوماً مشهوداً، ولما دخل الشيخ أبو حفص دمشق، جلس العادل في دار رضوان وأفيضت عليه الخلع وهي جبه سوداء واسعة الكم بطراز مذهب، وعمامه سوداء بطراز ذهب، وطوق ذهب بجوهر ثقيل، وقلد العادل أيضاً بسيف محلى جميع قرابه من ذهب

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص34، الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ووفيات 591-600.

(2) الحموي، التاريخ المنصوري، ص58، ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص 180، ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص49.

(3) الحموي، التاريخ المنصوري، ص58، ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص 180، المقريزي، السلوك، ج13، ص283-284.

واركب حصاناً أشهب بركب ذهب ونشر على رأسه علم أسود مكتوب عليه بالبياض ألقاب الخليفة مركب من قصبه ذهب(1).

وبعد وصول الخلع خوطب العادل "بالملك العادل شاهنشاه ملك الملوك وخليل أمير المؤمنين"(2).

وقرين ذلك خلع على الملك الأشرف والملك المعظم ابنا العادل بعمامة سوداء وثوب أسود واسع الكم وكذلك الوزير صفي الدين بن شكر، وركب العادل ومعه ابناه ووزيره بالخلع الخليفيه(3).

وفي سنة 606هـ/1208م جدد للملك العادل قصد سنجار لتخلف صاحبها عن وصوله بنفسه عندما كاتب الملوك بوصوله إلى حران والجمع عليه، فخاف صاحب سنجار فأرسل نساءه في الاستشفاع في حقه وذلك برأس عين خابور، فما قبل ذلك ولا أجاب فسير ولده الملك الاشرف والملك المنصور صاحب حماة وبصحبتهما العساكر فأخذوا نصيبين، فلما قارب سنجار جاء إلى السلطان من سأله في تسليم سنجار إليه بشرط العوض عنها فأجابهم إلى ذلك ثم ما بدا لهم إلا الحصار فضيق السلطان عليهم فحاصرهم ونزل عليهم وقطعت أشجارهم وأخذت الملوك منازلهم ونصبوا المجانيق وقاتلوهم وضايقوهم واقطع السلطان الخابور جميعه وفرقه على الملوك الذين كانوا في خدمته مثل الملك المنصور صاحب حماه والملك المجاهد صاحب حمص وغيرها فلما أشرف السلطان على أخذها عنوه بعث صاحبها قطب الدين محمد(4) إلى الخليفة الناصر يستنجد به فجاءت رسل الخليفة وهو هبه الله بن الضحاك(5) يشفع في ترك سنجار على صاحبها وأخذ الخابور ونصيبين وما يتعلق بذلك قائلاً

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص 181، القلقشندي، مآثر الأنافة، ج2، ص 59، المقريزي، السلوك، ج1، ص 283-284.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص 182، أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص 109، القلقشندي، مآثر الاناقة، ج3، 59.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص 182، القلقشندي، مآثر الأنافة، ج2، ص 59، المقريزي، السلوك، ج2، ص 283-284.

(4) قطب الدين محمد بن زنكي بن مودود بن زنكي، (ت 616هـ/1219م) كان كريما حسن السيرة في رعيته لكنه كان عاجزاً عن حفظ بلده مسلماً الأمور إلى نوابه، أنظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص328.

(5) هبه الله بن المبارك بن الضحاك، استاذ الدار وهو من خواص مماليك الخليفة وكبارهم، توفي سنة 627هـ كان شيخاً ديناً فاضلاً أديباً ورتب ناظر ديوان الجوالي وكذلك رتب أستاذ دار الخلافة انظر ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص 216.

على لسان الخليفة: "بحياتي يا خليلي ارحل" وعاد العادل إلي حران وتفرقت عساكره منفذاً طلب الخليفة الناصر[1].

وفي سنه 612هـ/1215م وصل إلى حلب الشيخ شهاب الدين السهروردي رسولاً من الخليفة الناصر لدين الله إلى الملك الظاهر ومعه تشريف جليل "فرجيه فرو سمور مغشاه بثوب وسيف محلى"، واسمع عن الخليفة كتاب "روح العارفين" المشتمل على الأحاديث النبوية الذي تقدم ذكره، وجلس الملك الظاهر وأكابر دولته بين يدي الشيخ شهاب الدين، وكان كلما جرى ذكر الخليفة قام الملك الظاهر على رجليه اجلالاً واحتراماً[2].

احتلت الخلافة العباسية في نفوس الأيوبيين مكانه كبيرة وكانت كلمتها نافذه فيهم بحكم إنقسامهم وحاجتهم إلى تأييدها المتواصل، وكانت رسل العادل إلى الديوان العزيز لا تنقطع حامله الهدايا والالطاف حتى تجد الترحيب والتقدير وكانت شفاعته عندهم مقبوله[3]

وفي سنة 615هـ/1218م وصل ابن شيخ الشيوخ وصحبته رسل الخليفة الناصر إلى الملك الكامل على دمياط، من أجل إلباس الكامل لباس الفتوة من قبل الخليفة الناصر وأن يرمي له البندق ويكون هو (أي الناصر) قبلته في الرمي[4].

وفي سنة 617هـ/1220م بعث الملك الكامل شيخ الشيوخ صدر الدين محمد رسولاً إلى الخليفة العباسي للاستنجاد به على الفرنج إلا أنه توفي في العام نفسه بالموصل[5].

وقد نجح شيخ الشيوخ صدر الدين محمد في تأدية مهمته السياسية التي كلف بها لكن موقف الخلافة من تقديم يد العون والمساعدة كان سلبياً واكتفى الخليفة بإرسال الكتب والأوامر إلى الممالك يأمرهم فيها بنجدة الملك الكامل[6].

وفي سنة 622هـ/1225م وصل الشيخ شهاب الدين السهروري رسولاً من الخليفة الناصر لدين الله إلى الملك الاشرف بالرقه بهدايا وتحف وأشياء ما سمع خلفاء بني العباس لأحد من ملوك الأطراف من أقوال جميلة وطرق جليلة[7].

---

(1) الحموي، التاريخ المنصوري، ص 59-60، ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص 288، ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص 197.
(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص 232-233.
(3) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص 259-260.
(4) الحموي، التاريخ المنصوري، ص 70.
(5) أبوشامة، الذيل على الروضتين، ص190.
(6) الحموي، التاريخ المنصوري، ص72.
(7) المصدر نفسه، ص 90.

ويلاحظ أن الخليفة الناصر قوى علاقاته مع ملوك بني أيوب إلا أنه لم يتــدخل فـــي الشؤون الداخلية لدولة وملوك بني أيوب لذا كسب ود واحترام أغلبهم.

أما الدولة الأيوبية بعد وفاة الملك الكامل سنة 635هـ/1238م أخذت بالانهيار حتـــى سيطر المماليك على الوضع في مصر سنة 648هـ/1250م.

الفصل الرابع

- علاقة الخلافة بالدول المجاورة
  - علاقتها مع سلاجقة العراق (إيران)
  - علاقتها مع سلاطين الغوريين
  - علاقتها مع أمراء الإمارة العيونية في البحرين.
  - علاقتها مع سلاجقة الروم.
  - علاقتها مع اليمن والمغرب

علاقة الخلافة العباسية بسلاجقة العراق (إيران):

عمل الخليفة الناصر لدين الله منذ توليه الخلافة على النهوض بدولته، والعمل على توسيع رقعتها واستغلال ضعف السلاجقة وانقسام دولتهم، فعمل على قطع دابر سلاطينهم[1].

وقد كان كل زعيم سلجوقي يسعى لاستعادة مكانة السلاجقة القديمة في بغداد من أجل إكساب حكمه صفة شرعية والتخلص من المنافسين له.

شجع موت السلطان سنجر آخر سلاطين السلاجقة الكبار، أمراء الأقاليم للاستقلال بأتابكياتهم وأبرز هؤلاء الأتابكة الأتابك أرسلان إيلدكز صاحب أذربيجان وإيران الذي استطاع أن يجمع حوله قوة كبيرة، سعى بها إلى دار الخلافة يلتمس الفوز بالسلطنة والاعتراف بشرعية الحكم والخطبة له على المنابر فأثارت الخلافة عليه الأمراء الآخرين وشغلته بحروب لا تنتهي[2].

بعد وفاة ايلدكز سنة568هـ / 1172م حل محله جهان بهلوان، وسيطر على شقيقه أرسلان حتى توفي أرسلان سنة 571هـ / 1175م[3]. فحل محله ابنه طغرل وهو في السابعة من العمر[4]. فأنقاد لصغر سنه وطفولته لعمه جهان بهلوان، وعندما توفي جهان بهلوان سنة 582هـ / 1186م حل محله شقيقه قزل أرسلان في كفالة السلطان طغرل[5].

بدأ الاحتكاك بين الخليفة الناصر والسلطان طغريل الثالث بعد وفاة جهان بهلوان سنة 582هـ / 1186م حيث خلفه أخوه قزل أرسلان، فقام طغريل بالتمرد على قزل بن الدكز والذي بدوره أرسل يستنجد بالخليفة الناصر لدين الله على طغريل ويحذره عاقبة أمره[6]. فكتب كتاباً إلى الدار الخلافة جاء فيه: "أنه مملوك وابن مملوك لهذه الدار العزيزية وأنه ما زال يدخر حسن رأي أمير المؤمنين فهو لمثل هذه الأوقات والآن فلا عطر بعد عروس، قد أفضى الأمر بنا إلى ما قد علم أمير المؤمنين، وغدر بنا من العساكر من أطرح الوفاء ومال إلى الغدر والجفاء، وصاروا مع ركن الدين طغرل ومتى لم تحسم مادة هذا الفساد يفضي الأمر إلى حالة لا ينادي وليدها ويعجز عن أحرار الدولة وعبيدها، فإن رأى أمير المؤمنين أن

---

(1) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص245، الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص281.
(2) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص153.
(3) المصدر نفسه، ص168.
(4) المصدر نفسه، ص171.
(5) المصدر نفسه، ص172،
(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص195، أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص73 القلقشندي، مآثر الأنافة، ج2، ص58.

يجهز العساكر من صوب بغداد، ويصل المملوك من صوب أذربيجان، كان ذلك مما يفت في عضد الخصم، وملك العراق كله يعود إلى أولياء الدولة تجري فيه الأحكام الشريفة كما تجري في بغداد وسائر الأعمال"[1].

فأجابوه إلى ذلك وأرسل إليه الخليفة الناصر بجيش كبير سنة 583هـ / 1187م جعل المقدم عليه وزيره جلال الدين عبيد الله بن يونس، وسيرهم لمساعدة قزل أرسلان وكانوا على موعد مع أتابك مظفر الدين قزل أرسلان أن يجتمع بهم لكنه تأخر عنهم فقال الوزير: ايش الحاجة إلى اتابك مظفر الدين قزل أرسلان نحن نمضي بمفردنا ونأخذ همذان، فالتقوا واقتتلوا مما أدى إلى هزيمة جيش الخليفة وأسر جلال الدين أبي المظفر، وأخذ ما معه من سلاح ودواب وغير ذلك فعاد العسكر إلى بغداد متفرقين[2].

وتكمن أسباب الهزيمة إلى قوة السلطان طغرل بعد خضوع الكثير من الأقاليم إلى حكمه، وتواطيء الكثير من التركمانية والأكراد في جيش الخلافة مع السلطان[3].

مما قوى نفس السلطان طغرل فأرسل في سنة 583هـ/ 1187م إلى ديوان الخلافة يطلب أن تعمر دار السلطنة، ليجيئ إليها ويسكنها وأن يسمى في الخطبة فأمر الخليفة بهدم دار السلطنة فهدمت إلى الأرض وعفي أثرها، وأخرج رسول السلطان طغريل مهاناً بغير جواب[4].

تصرف الخلافة هذا يؤكد قوتها وعزمها على مواجهة طموح السلطان طغرل، ظهر هذا جلياً بقيام الخلافة بإرسال خلعه شريفة إلى الأتابك قزل أرسلان والعهد إليه بولاية تيم روز والطلب منه الانضمام لجيش الخليفة الذي سوف يرسل لنجدته[5].

ولأن الخليفة الناصر لا يريد أن يعيد التسلط السلجوقي على الخلافة من جديد، ويريد أن يقضي عليهم نهائياً فلم تثنِهِ هذه الهزيمة عن عزمه بل جهز جيشه مرة ثانية، وجعل المقدم

---

(1) الحسيني أخبار الدولة السلجوقية، ص 176-177.

(2) الراوندي، راحة الصدور، ص480-481، الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص177، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص197-198، ابن الطقطقي، الفخري في الأداب السلطانية، ص309، الذهبي، العبر، ج4، ص252، سير أعلام النبلاء، ج 22/ ص203، Bosworth, The Cambridge. History of Iran, Vol5, p180

(3) الراوندي، راحة الصدور، ص481، الحسني، أخبار الدولة السلجوقية، ص177.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص195، الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص281، الذهبي سير أعلام النبلاء، ج22، ص207، العبر، ج4، ص248-249، تاريخ الإسلام، حوادث سنة 581-590، ص17، اليافعي، مرآة الجنان، ج3، ص322، Bosworth, The Cambridge History of Iran, Vol5, p180.

(5) الراوندي، راحة لصدور، ص480. Bosworth, The Cambridge history of Iran, Vol 5, P180

عليهم الأمير مجاهد الدين خالص، فخرج إلى همذان سنة 584هـ / 1188م. وتمكن من دخولها بدون قتال لأن طغرل غادرها عندما علم بقدوم جيش الخلافة[1]..

وتمكن قزل ارسلان من هزيمة قوات السلطان طغرل واسر السلطان فحبسه في قلعة بأذربيجان بالقرب من تبرير [2].

وعندما دخل العسكر إلى همذان أقام بها أياماً، فوصل إليهم الأتابك مظفر الدين قزل أرسلان فالتقوه وأكرموه وأوصلوا إليه مراسم أمير المؤمنين الناصر لدين الله وتسليم الولاية إليه نيابة عن أمير المؤمنين الناصر، وخاطبوه بالملك نصير أمير المؤمنين وأنهم مأمورون بمعاضدته، وأن العساكر تنقاد إلى مشورته والانتهاء إلى حكمه وطاعته، وانزلوه في خيمة مجاهد الدين خالص الخاصة وخلعوا عليه خلعاً سنية[3].

وفي سنة 586هـ،/ 1190م دخل ألب أرسلان ابن السلطان طغرل إلى بغداد وهو صبي صغير وعليه كفن وبيده سيف مشهور كأنه يطلب عفو الخليفة وجاء فنزل بباب النوبي وقبل العتبة فبكى أهل بغداد ورق له الخليفة وأنزله دار ابن العطار مقابل المخزن وأكرمه وأحسن نزله وعفا عن جرائم أبيه ثم استدعاه إلى باب الحجرة وخلع عليه خلعه السلطنة وطوقه بطوق من ذهب[4] وبالتالي أظهر الناصر لدين الله مقدرة كبيرة بإرساله لجيش الخلافة مرتين في نفس العام لمحاربة السلاجقة، ليبرهن لهم أن الخلافة تبدي إصراراً على محاربتهم واستئصال أثرهم.

ونتيجة للانتصار الذي حققه قزل أرسلان بمساعدة الخلافة، وقيامه باعتقال السلطان طغرل ازدادت هيبته واستولى على البلاد ودخل العاصمة همذان[5]، وقام باختيار سنجر ابن سليمان شاه ليكون واجهة له، فأخرجه من القلعة ونصبه سلطاناً على السلاجقة. ولكن عندما جاءته موافقة الخليفة الناصر بأن يتولى السلطنة بنفسه، قام بخلع سنجر وإعادته إلى القلعة ونصب نفسه سلطاناً سنة 587هـ / 1191م، وأصدر مراسيم جديدة بذلك[6].

ويعد هذا الأمر تحولاً جديداً في العلاقة بين السلطنة والخلافة، فقد أصبح في عهد الخليفة الناصر الخليفة هو الذي يعين السلطان السلجوقي ويخلعه ويمنحه التقليد بذلك بعدما

---

(1) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص178.
(2) الراوندي، راحة الصدور، ص500.
(3) الحسيني، أخبار الدواء السلجوقية، ص178.
(4) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص180، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، القسم الأول، ج8، ص400-401.
(5) الراوندي، راحة الصدور، ص500-501.
(6) المصدر نفسه، ص501.

كان بالعكس، يدل هذا على قوة الخلافة من جهه ودرجة الضعف التي وصلت إليها السلطنة السلجوقية من جهة أخرى.

لم يلبث قزل أرسلان في السلطنة طويلاً، إذ سرعان ما لقي مصرعه على أثر مؤامرة دبرتها زوجته مع ابنها قتلغ اينانج بن جهان بهلوان، وعدد من الأمراء السلاجقة الذين حقدوا على قزل، ويعزو المؤرخون سبب قتله إلى سلوكه السيئ مع زوجته وانصرافه عنها[1].

ونتيجة لوفاة قزل أرسلان نشب النزاع بين الأمراء الصغار على عرش السلطنة وانتشرت القلاقل والاضطرابات التي استغلها طغرل فهرب من سجنه سنة 588هـ / 1192م بمساعدة أعوانه[2].وأقره على ذلك كثير من حكام الأطراف وتمكن من أن يجمع له جيشاً من جديد وينتصر على مخالفيه وعاد إلى همذان وجلس على عرش السلطنة، واستولى على مدينة الري سنة 589هـ/ 1193م[3].

لكن الأمور لم تستقم له، حيث دب النزاع بينه وبين خوارزم شاه تكش وجرت الحرب بينهم والتي انتهت بانتصار طغرل وقتل عدد كبير من جيش تكش[4]. ويعد هذا الانتصار بداية العداء بينه وبين الخوارزميين.

وعندما ارتأى الخليفة الناصر لدين الله الاتصال بالخوارزميين الذين ظهر نفوذهم بقوة في المشرق، وظهر خطرهم على مقربة من سلطنة طغرل ، قرر الخليفة الاستعانة بهم للقضاء على السلطان طغرل، فتحالف تكش مع الخليفة بعد أن وعده (الخليفة) بإقطاعه كافة الأراضي التي سيستولي عليها من طغرل والعراق العجمي[5].

فسار خوارزم شاه تكش على رأس جيشه للقاء سلطان السلاجقة فالتقى الجيشان في معركة فاصلة سنة 590هـ / 1193م[6]. ولقى طغرل بنفسه صفوف الجيش الخوارزميين

---

(1) الراوندي،، راحة الصدور، ص502، الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص180-181.

(2) الحسيني، اخبار الدولة السلجوقية، ص182.

(3) المصدر نفسه، ص182.

(4) الراوندي، راحة الصدور، ص506، Bosworth, The Cambridge History of Iran, Vol5, p .182

(5) للمزيد من التفاصيل ارجع إلى الفصل الخاص بعلاقة الخلافة مع الخوازميين.

(6) الراوندي، راحة الصدور، ص514-513، الحسيني، أخبار الدول السلجوقية، ص193.

فأحاطوا به وقتلوه[1]. وحملوا رأسه إلى الخليفة الناصر لـــدين الله فأرســـل الخلـــع والتقليـــد لخوارزم شاه تكش ملك خوارزم وهمذان[2].

كان مقتل السلطان طغرل بن أرسلان، وهو آخر ملوك الدولة السلجوقية إيذانا بإنتهاء سلطنة السلاجقة، في العراق وإيران وزوالها عن الوجود لتحل محلها الدولة الخوارزمية.

وبالتالي نجد أن الخليفة الناصر لدين الله عمل على إنهاء السلاجقة في همـــذان عـــن طريق خفي هو الاستعانة والاتصال بالخوارزميين الذين كانوا ألد أعدائهم، وبالتـــالي اتفقـــت مصلحة الخلافة مع الخوارزميين ولكن هذا الاتفاق لم يدم إذ سرعان مـــا وجهـــوا نظـــراتهم وسيوفهم نحو الخلافة العباسية.

علاقة الخلافة بالدولة الغورية

ظهرت هذه الدولة في منطقة جبال الغور حول مدينة فيروز كـــره مـــستغله ضـــعف الغزنويين وانهيارهم ثم انقسام السلاجقة[3].

يرتبط تاريخها الحقيقي بالأخوين غياث الدين (ت599هـــ/1202م) وشـــهاب الـــدين (602هـــ/1205م) أولاد بهاء الدين سام (543هـــ/1148م) الـــذين تولـــوا الـــسلطنة ســـنة 558هـــ/1162م بعد وفاة ابن عمهما سيف الدين محمد بن الحسين[4].

كانت الفترة الأولى من عمر هذه الدولة فترة صراع مع بقايا الغزنويين والسلاجقة من أجل الاستقلال، ثم انصرف الأخوان إلى تثبيت سلطانهما في البلاد أولاً ثم التوسع نحو بـــلاد النيل ثانياً[5].

أكسبهم عملهم هذا احترام المسلمين وتقدير الخلافة وأبعدهم عن المنازعات الـــسياسية والعسكرية التي كانت قائمة بين بقايا السلاجقة والخوارزميين.

لم يلعب الغوريين دوراً بارزاً في الخلافة الا بعد أن اختفى الـــسلاجقة وزال أثـــرهم، وحرص الخوارزميون على أن يرثوا نفوذ هؤلاء في دار الخلافة، حيث لعبوا دوراً مهماً فـــي منع تكش من قصد خوارزم[6]. فبعد تجرؤه على الخلافة وطلبه السلطنة و الخطبـــة ببغـــداد

---

[1] الحسيني، أخبار الدولـــة الـــسلجوقية، ص193، Bosworth, The Cambridge History of Iran, Vol5, p 182.

[2] الحسيني، أخبار الدول السلجوقية، ص193، ابن الساعي، الجـــامع المختـــصر، ج9، ص35. الأربلـــي، خلاصة الذهب المسبوك، ص281، ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص9.

[3] أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص24 – 26.

[4] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص82.

[5] أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص106–107.

[6] ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص119–120.

ورفض الخليفة الناصر ذلك، بدأ الخليفة يبحث عن نصير له يكف عادية هؤلاء الخوارزميين خاصة بعد هزيمة الجيش الذي كان بقيادة ابن القصاب في توكيد هيبة الخلافة وتسلم نصيب من مخلفات السلاجقة[1].

فأرسل إلى غياث الدين ملك الغور يطلب منه قصد ومهاجمة أراضي خوارزم شاه ليبعده عن مهاجمة العراق[2] فلم يتردد غياث الدين في تنفيذ طلب الخليفة خاصة أنه كانت له أطماع في معظم خراسان، فأرسل بدوره رسالة إلى خوارزم شاه يقبح فيها فعلته بالتعرض للخلافة[3].فلم يجد خوارزم شاه أمام هذا التحالف إلا أن وجد حليفاً آخر فراسل الخطا كما ذكرنا سابقاً[4].وقد جرت بينهم وبين الخلافة عدة مراسلات، ففي سنة 597هـ / 1200م قدم القاضي مجد الدين يحيى بن الربيع مدرس النظامية من الرسالة مع حاج خراسان وكان نفذ في رسالة إلى شهاب الدين الغوري[5].

وفي سنة 600هـ/1203م وصل رسول ملك غزنة المجد أبي الفتوح بن أبي نصر الغزنوي فأذن له في الجلوس بباب بدر الشريف للوعظ وتقدم إلى الناس الحضور عنده فتكلم في الوعظ وأكثر الدعاء للخدمة الشريفة الناصرية وذكر طاعة مرسله شهاب الدين وإخلاصه في عبودية الديوان العزيز وقال في أثناء كلامه:

"يا أهل بغداد طوبى لكم ما أعطيتموه وما أنعم الله عليكم من قربكم من أمير المؤمنين صلوات الله عليه وحسن نظره الشريف لكم..." ثم أنشد

ألا قُلْ لسكان وادي الحبيب   هنيئاً لكم في الجنان الخلود
أفيضوا علينا من الماء فيضا   فنحن عطشا وأنتم ورود

ثم شرف وأذن له في العودة إلى مرسله ولكنه توفي في الطريق[6].

كذلك أبو جعفر عمر بن إبراهيم بن عثمان التركستاني الأصل الواسطي المولد قد نفذ رسولاً من الديوان العزيز إلى شهاب الدين محمد، وأقام هناك مدة وعاد ولم يحمد الديوان أمره[7].

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص230.
(2) المصدر نفسه، ص241.
(3) المصدر نفسه، ص241.
(4) للمزيد أنظر فصل الخاص بالخوارزميين.
(5) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص45.
(6) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص119-120.
(7) المصدر نفسه، ص184.

وفي سنة 602هـ/1205م كان الشيخ مجد الدين أبو علي بن الربيع الفقيه الشافعي مدرس النظامية قد ورد رسولاً إلى شهاب الدين فقتل شهاب الدين وهو هناك[1].

من ذلك نستطيع أن نلمس أن العلاقة بين الطرفين قائمة على الاحترام والطاعة لما يرى الغوريون من أن طاعة الخلافة فرض واجب، وما يمتازون به من تمسك. بشعائر الدين وما لرسل الخلافة من مكانه في بلاط هؤلاء الملوك[2].

واستمرت العلاقة حسنة حتى نهاية الدولة الغورية، حيث كانت وفاة الأخوين الحاكمين نهاية لدولة الغورية، وبدأ الانقسام بين الأمراء على الحكم، مما أفسح المجال أمام الخوارزميين على القضاء عليهم سنة 605هـ/1208م وأزالتهم عن طريقهم[3].

علاقة الخلافة العباسية بالإمارة العيونية في البحرين:

بدأ الحكم العيوني في البحرين في العقد السابع من القرن الخامس الهجري ومر بعدة مراحل، كان في الأولى منها قوياً متماسكاً خلال حكم مؤسسه عبد الله بن علي العيوني وولده الفضل وحفيده أبي سنان، ثم بدأ ضعيفاً متداعياً في المرحلة الثانية، بعد أن تنافس الأمراء العيونيون بعد موت أبي سنان، ثم المرحلة الثالثة وهي مرحلة القوة والامتداد على يد محمد بن أبي الحسين بن الفضل ثم تلتها مرحلة ضعيفة وتأخر وصراع بين أمرائها مما أطمع الأعداء فيها، وبالنهاية غابت شمس هذه الاماره إلى الأبد في العقد الرابع من القرن السابع الهجري[4].

والمعلومات الواردة عن تلك العلاقة قليلة ومختصرة ولعل السبب في ذلك كما قال البلوشي، انعدام أهمية دور سكان البحرين أو خمول نشاطهم فمشاركة أهل البحرين في الفتوحات الإسلامية وهجراتهم أثر في تفريغ المنطقة من سكانها نسبياً ومن الأنشطة التي تلفت نظر الكتاب[5].

ويضيف الخضيري أسباب أخرى أهمها اقتصار الدولة العيونية على منطقة البحرين وعدم تهديدها للحواضر الإسلامية في العراق والشام، و عدم تبنيهم لمعتقدات تخالف إجماع

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص275.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص275، ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص174.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص294.

(4) الخضيري، علي بن عبد العزيز الخضيري، علي بن المقرب العيوني حياته وشعره، ط1، مؤسسة الرسالة بيروت، 1981م، ص29 وسيشار إليه لاحقاً الخضيري، علي بن المقرب.

(5) البلوشي، إبراهيم عطا الله البلوشي، بلاد البحرين في العصر العباسي الثاني، ط1، المجمع الثقافي أبو ظبي، 2002م، ص11، وسيشار إليه لاحقاً البلوشي، بلاد البحرين في العصر العباسي الثاني.

المسلمين وغيرها[1]. وقد سميت الإمارة العيونية بهذا الاسم نسبة إلى مكان سكنهم حيث سكنوا واحة العيون الصغيرة الواقعة شمال الإحساء وسمو لذلك بالعيونيين[2].

بدأ العلاقة بين الطرفين الأمير محمد بن أحمد بن الفضل (587 – 605هـ / 1191–1208م)، والذي يعتبر المؤسس الثاني للإمارة العيونية. فقد وصلت الدولة العيونية في عهده إلى قمة مجدها، مما ساعد على نشأة علاقات وصلات ودية بينه وبين الخليفة الناصر لدين الله[3].

ويظهر أن الأمير العيوني محمد قد تمكن بحكمته ودهائه وشجاعته أن يجمع حوله قلوب القبائل العربية، ليس فقط في البحرين وإنما في أطراف نجد وحدود العراق حتى أن تاثيره كان قوياً، خاصة على الخليفة الناصر مما جعله يجله ويكرمه وبالتالي عهد إليه بخفارة قوافل الحجيج وفرض له في كل عام من بغداد ألفاً ومائتي ثوب من عمل مصر، كما فرض له من البصرة كل سنة ألفين وخمسمائة حمل من التمر والحبوب مدى حياته[4].

وقد نمت هذه العلاقة بينه وبين الخليفة بعد نجاحه في القضاء على قطاع الطرق الذين يعترضون الحجاج في طريقهم إلى مكة، فكان يتعقبهم، ويوقع بهم حتى أمن الناس شرهم[5].

وجرت بين الطرفين صلات سنة 598هـ / 1101م عندما سار بنو الجراح ومعهم دهمش بن سند بن أجود وبعض القبائل العربية بالشام إلى أراضي بني عقيل واعترضوا الحجاج وقوافلهم ونهبوا أموالهم، فرفع الأمر إلى الخليفة الناصر وقام هو بدوره بإرسال رسولٍ إلى الأمير العيوني محمد بن أبي الحسن يحثه على النهوض إليهم والتصدي لهم فلبى النداء وخرج على رأس قبائل البحرين إلى العراق وانضمت إليه قبائل خفاجة وعباده والتقى بدهمش وجموعه بظاهر الكوفة وجرى بين الطرفين قتال أدى إلى هزيمة جموع دهمش[6].

فقام المنهزمون بمناشدته الرحمة والقرابة فأجارهم جميعاً إلا دهمش الذي اعتصم في مشهد علي كرم الله وجهه، ففرض الأمير محمد حول المشهد حراسه مشددة ينتظر أمر الخليفة

---

(1) الخضيري، علي بن المقرب، ص28.

(2) البلوشي، بلاد البحرين في العصر العباسي الثاني، ص146.

(3) الخضيري، علي بن المقرب، ص38–39، الملا، عبد الرحمن بن عثمان بن محمد آل ملا، تاريخ الإمارة العيونية في شرق الجزيرة العربية، مؤسسة جائزة عبد العزيز بن سعود البابطين للإبداع الشعري، 2002م، ص187 وسيشار إليه لاحقاً الملا، تاريخ الإمارة العيونية.

(4) البلوشي، بلاد البحرين في العصر العباسي الثاني، ص172.

(5) الملا، تاريخ الإمارة العيونية، ص188، الخضيري، علي بن المقرب، ص39.

(6) الخضيري، علي بن المقرب، ص40.

حيث أنه لم يرد أن يقضي عليه داخل المشهد الذي جعله الخليفة الناصر آمناً لمن لاذ به وهذا يدل على حكمته ومدى رغبته في إظهار الالتزام بأمر الخليفة وتنفيذ توجيهاته[1].

وقد أوفد الخليفة الناصر حرساً من دار الخلافة إلى دهمش فدخلوا عليه داخل مأمنه واصطحبوه إلى دار الخلافة ببغداد حيث استتابه الخليفة وعفا عنه[2].

أما فيما يتعلق بعلاقات العيونيين مع الخلافة العباسية في عصر الانهيار والسقوط (605-636هـ / 1208-1239م) فبعد مقتل الأمير محمد قام ابنه الأكبر الفضل بن محمد (606-616هـ / 1209-1219م) والذي توجه إلى بغداد لمقابلة الخليفة الناصر وطلب منه العون والمساعدة بالمال والسلاح والرجال، فوافق الخليفة على طلبه وأمده بالأموال والسلاح مثل النفط المحرقة والمنجنيقات[3]. والرجال المدربين على الأسلحة المتنوعة بينهم قوم يرمون بالسهام وآخرون يزرقون بالنفط[4]. وقد شارك الشاعر علي بن المقرب في احضار المؤن من الخليفة إلى الفضل سنة 606هـ / 1210م[5].

كان ذلك من أجل أن يثأر الأمير الفضل لدم أبيه ويسترد الإمارة من خصومه بعد ما قتل على يد الشيخ راشد بن عميره العامري على أثر اتفاق بينه وبين أحد أفراد الأسرة الطامعين في السلطة وهو الأمير عزيز بن حسن بن شكر بن علي بن عبد الله العيوني وقد حصل ذلك سنة 603هـ / 1206[6].

ويذكر البلوشي أن الخليفة الناصر لم يكتف بإمداد الفضل بالمال والسلاح بل أنه نصحه بمقابلة حاكم جزيرة قيس والاتفاق معه والتنسيق من أجل أن يتولى الملك غياث الدين شاه امداده بقوات إضافية لإسناد موقفه في استرداد القطيف[7].

وبالتالي نلاحظ أن العلاقة بين الطرفين اتسمت بطابع الود والمصالح المشتركة فسادت علاقة وثيقة بين الأمراء العيونيين والخليفة الناصر لدين الله لاتفاق أهدافهم في توفير الأمن وتحقيق الاستقرار للمناطق الخاضعة لهم.

ورأى الخليفة الناصر أن التعاون مع الأمير محمد العيوني يحقق الأمن والأمان لطرق الحجاج المارة بمنطقة البحرين خاصة مع قوة هذا الأمير والنفوذ الذي كان يتمتع به.

---

(1) البلوشي، بلاد البحرين في العصر العباسي الثاني، ص174.
(2) البلوشي، بلاد البحرين في العصر العباسي الثاني، ص174، الملا، تاريخ الإمارة العيونية، ص188.
(3) البلوشي، بلاد البحرين في العصر العباسي الثاني، ص178.
(4) الملا، تاريخ الإمارة العيونية، ص193.
(5) الخضيري، علي بن المقرب، ص40.
(6) البلوشي، بلاد البحرين في العصر العباسي الثاني، ص176.
(7) المصدر نفسه، ص176.

- **علاقة الخلافة مع سلاجقة الروم**

يعتبر سلاجقة الروم من أهم الأسر السلجوقية، استمر حكمهم مدة 220 عاماً من سنة 470هـ/1078م إلى 702هـ / 1302م تولى خلالها السلطنة أربعة عشر سلطاناً ويرجع أصلهم إلى جد هذه الدولة ومنشئها سليمان بن قتلمش بن أرسلان (إسرائيل) بن سلجوق الذي كان حاكماً على الموصل وديار بكر والشام حيث أخضعها لنفوذه[1].

كانت علاقة هذه الدولة بالخلافة العباسية في عهد الخليفة الناصر لدين الله علاقة ودية كما تدل الأخبار القليلة الواردة عنها، فقد كان تبادل الهدايا مستمراً بين الجانبين واقتصرت العلاقة في أغلب أحيانها على التفويض الذي تمنحه الخلافة لسلاطينها.

فقد جاء عن السلطان عز الدين كيكاوس بن كيخسرو كيكاوس الأول (608-616هـ / 1211-1219م) أنه لبس لباس الفتوة من حضرة الخليفة الناصر لدين الله، وشرب كأس المروءة من حانه[2].

ونجد السلطان عز الدين كيكاوس كذلك يرسل الشيخ مجد الدين اسحاق إلى دار الخلافة لإعلام الخليفة بفتح سينوب، وبعد إبلاغ الخبر المبارك طلب منه سروال الفتوة.

نجد الخليفة الناصر بدوره يوافق على طلب السلطان عز الدين كيكاوس لباس الفتوة فيرسل له مع رسول السلطان لباس الفتوة والمكون من سروال العصمة والطهارة وكتاب الفتوة مع العمامة الميلاء كالعمامة السوداء والدراعة مشفوعاً بالمقدمة ومنشور السلطنة بالتوصيه بإقامة حدود الشريعة[3].

ومما يدل على العلاقة الودية بين الجانبين تبادل الهدايا، فقد أرسل السلطان عز الدين مع الشيخ مجد الدين إسحاق الهدايا للخليفة العباسي الناصر لدين الله وهي عبارة عن حلي أو تحف من الجواهر والبسط المنسوجة بخيوط الذهب والصلبان الذهبية وأواني الفضة[4].

نجد الخليفة الناصر يرسل كذلك الهدايا للسلطان عز الدين وهي عبارة عن خمسة بغال سريعة السير منعلة بنعال النضار مع الطوق واللجام، وخمسة من الخيول العربية

---

(1) دائرة المعارف الإسلامية، مج13، ص33.
(2) ابن بيبي، اخبار سلاجقة الروم المسمى عصر سلجوقنامة، ترجمة محمد السعيد جمال الدين جامعة قطر، الدوحة 1994م، ص55 وسيشار إليه لاحقاً ابن بيبي، أخبار سلاجقة الروم.
(3) ابن بيبي، أخبار سلاجقة الروم، ص71-72.
(4) ابن بيبي، أخبار سلاجقة الروم، ص71-72.

المبرقعة ببراقع من أطلس أسود مخيط بالذهب بالاضـــافة لعـــشرة مـــن الإبـــل الحجازيـــة وغيرها[1].

وهذا أن دل يدل على مدى الود المتواصل بين الجانبين واعتراف كل منهما بـــالآخر ومدى الحُسن الذي يسود العلاقة بينهما.

وحينما وصل خبر جلوس علاء الدين كيقباد (616–634هـــ / 1219–1237م) على ملك الروم، إلى مسامع الخليفة الناصر، قام بإرسال منشور السلطنة ونيابـــة حكومـــة ممالـــك الروم والخلعة السلطانية مع شهاب الدين السهروردي إلى علاء الدين[2].وهذا يدل علـــى أنـــه بمثابة تفويض من الخليفة لسلطنة علاء الدين كيقباد.كذلك أرسل له خلعة الخلافة وهي العمامة التي توضع على الرأس وعلى ملأ من الناس أتوا بمقربة الحدود وأجروها على ظهر السلطان أربعين ضربة وهذا تقليد من تقاليد دار الخلافة بالسلطنة[3].

ومما يدل على مدى العلاقة الودية بين الجانبين قيام الخليفة الناصر بإرســـال محـــي الدين بن الجوزي إلى السلطان علاء الدين كيقباد حاملاً رسالة مفادها طلب المساعدة وإرسال جيش لأجل محاربة المغول، واستجابة علاء الدين لطلب الخليفة وقيامه بإرسال هذا الجيش[4].

علاقة الخلافة مع اليمن

كانت علاقة الخلافة مع اليمن جيدة منذ سيطر الأيـــوبيين عليهـــا ســـنة 569هـــــ / 1173م[5] وتأكد ذلك عندما أحكم صلاح الدين سيطرته عليها سنة 578هـــ / 1182م وذلـــك نتيجة لاضطراب أحوال البلاد، فبعد وفاة شمس الدولة سنة 576هـــــ / 1180م اضـــطربت أحوال البلاد وكثرت الفتن فرأى صلاح الدين أن يرسل أخاه سيف الإســـلام طغتكـــين ســـنة 578هـــ / 1182م إلى اليمن وأمره بتملكها وقطع الفتن بها وفوض إليه أمرها، فـــنجح فـــي إعادة السيطرة على البلاد والقضاء على الفتن والثورات[6].

كان يخطب فيها للخليفة العباسي، ولكن العلاقات انقطعت وانقطعـــت الخطبـــة فيهـــا للعباسيين فترة خمس سنوات (593هـــ / 1196م – 598هـــ / 1201م) وذلك نتيجـــة لوفـــاة سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخو صلاح الدين وصاحب اليمن ســـنة 593هـــــ / 1196م

---

(1) ابن بيبي،اخبار سلاجقة الروم، ص 71–72.
(2) المصدر نفسه، ص116.
(3) المصدر نفسه، ص108.
(4) المصدر نفسه، ص130–135.
(5) أبو شامه، الروضتين، ج1، ص271–274.
(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص155–156.

وتولي ابنه إسماعيل والذي كان أهوج كثير التخليط فأدعى أنه قرشي من بني أميـــة وخطـــب لنفسه بالخلافة[1].

فأنكر الخليفة الناصر عليه هذا العمل، وكذلك عمه العادل عندما سمع بـــالخبر ســـاءه ذلك وأهمه وكتب إليه يلومه ويوبخه ويأمره بالعودة إلى نسبه الصحيح ويترك ما ارتكبه فلـــم يتلفت إليه ولم يرجع وأضاف إلى ذلك أنه أساء السيرة مع أجناده وأمرائه فوثبوا عليه وقتلـــوه سنة 598هــ / 1201م[2].وملكوا بعده أميراً من مماليك أبيه، وأعيدت الخطبة العباسية مـــرة أخرى[3].

علاقة الخلافة مع المغرب:

خطب للعباسيين للملك الناصر في المغرب وذلك عندما تمكـــن علـــي بـــن اســـحق المعروف بإبن غانية[4]من السيطرة على بلاد أفريقيا سنة 581هــ/1185م فخطـــب للناصـــر لدين الله فيها، وأرسل إليه يطلب الخلع والأعلام السود وتقليداً بالسلطنة[5].

وفي سنة 596هــ / 1199م وصل رسول إلى الديوان العزيز في بغداد من يحيى ابن غانية المايرقي الداعي إلى الدولة القاهرة العباسية ببلاد المغرب وقضيت أشغاله، وأرسل معه رسولاً عند عودته من جانب الديوان العزيز[6].

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص239 اليماني، تاج الدين عبد الباقي اليماني (ت743هــ/1343م)، بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق مصطفى حجازي، دار العودة بيروت، دار الكلمة صـــنعاء 1965، ص80 وسيشار إليه لاحقاً اليماني، بهجة الزمن.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص239، ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص96–97.

(3) ابن الساعي، الجامع المختصر ج9، ص96–97.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص171.

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص171، الذهبي، العبر، ج9، ص242.

(6) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص211، والرسول هو أبو الفضل عبد المنعم بـــن عبـــد العزيـــز النظروني مالكي المذهب الإسكندراني كان شيخاً عالماً وفاضلاً أنظر ابن الساعي الجـــامع المختـــصر، ج9، ص210.

الخاتمة

يمثل عصر الخليفة الناصر لدين الله(575–622هـ/1179–1225م) مرحلة مهمة في تاريخ الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة، تولى حكم الخلافة العباسية في فتـرة الاضـطراب والفوضى وحكم ما يقارب نصف قرن من الزمان استطاع خلالها أن ينهض بالأمة ويعيد لهـا حضورها وهيبتها بعد وطأة التسلط الاجنبي عليها، فتأتي هـذه الرسـالة لدراسـة العلاقـات السياسية للخلافة العباسية في عهده.

وفي ختام الرسالة لخصت الدراسة الى ما يلي:

أولاً: محاولة الخليفة الجادة في التقريب بين فئات المجتمع البغدادي بمختلف أطيافه من سـنة وشيعة، وسعيه الى توحيد حركات الفتوة في حركة واحدة منظمة ليحقق بها أهدافـه الطامحة الى إعادة إحياء الخلافة حيث عمل على وضع الأسس والقواعد التي تـسير عليها هذه الحركة فأصبحت حركة منظمة لها مبادئها وتعاليمها وقوانينها التي تحـتكم إليها.

ثانياً: كشفت الدراسة أن الرواية التي وجهت للخليفة الناصر لدين الله حول تحالفه مع المغول غير دقيقه وفق دراسة الروايات التي ذكرت في المصادر ووفـق دراسـة الاسـباب الأخرى التي ذكرت عن سبب مجيئهم الى ديار الاسلام.

ثالثاً: استطاعة الخليفة النهوض بالخلافة والقضاء على التسلط السلجوقي الذي ناصب الخلافة قرون عدة فأعاد لها صحوتها ونهض بالامة وأعاد حضورها من خـلال الـسياسات التي اتبعها في حكمه.

رابعاً: كشفت الدراسة أن علاقة الخلافة العباسية مع الدولة الايوبية في هذه الفتـرة الزمنيـة كانت علاقة ود وتعاون عادت علـى العـرب والمـسلمين بأطيـب الثمـار وأروع النجاحات.

فنحن امام خليفة كانت مساعيه تمثل أبرز محاولةلإعادة النهوض والانتعاش للخلافـة العباسية. فيعد الخليفة الناصر لدين الله من خلفاء بني العباس المتأخرين الذي حقـق مكاسـب مهمة للخلافة العباسية وأحيا هيبتها في نفوس المتسلطين.

قائمة المصادر والمراجع

1. المصادر

– ابن الأثير، ضياء الدين (ت 637هـ / 1239م).

* **ديوان رسائل ابن الأثير**، تحقيق هلال ناجي ونوري حمودي القيسي، منشورات جامعة الموصل.

– ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد (ت 630هـ / 1232م).

* **الكامل في التاريخ**، دار الكتاب العربي، بيروت، 1968.

– الأربلي، عبد الرحمن سنبط قنيتو (ت717هـ / 1317م).

* **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك**، تصحيح مكي السيد جاسم، مكتبة المثنى بغداد، ط2، 1964.

– الأزدي، جمال الدين ابي الحسن علي بن ظاهر (ت623هـ / 1226م).

* **أخبار الدول المنقطعة**، تحقيق عصام هزايمة ومحمد محافظة ومحمد طعاني وعلي عبابنة، مؤسسة حمادة للنشر، إربد، ط1، 1999.

– الأصفهاني، عماد الدين الكاتب (ت597هـ / 1200م).

* **الفتح القسي في الفتح القدسي**، قدم له إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م.

* **سنا البرق الشامي**، تحقيق رمضان ششن، اسطنبول، 2004.

– البنداري، أبو الفتح علي بن محمد (ت643هـ/1245م).

* **تاريخ دولة آل سلجوق**، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت.

– ابن بيبي، حسين بن محمد الجعفري الرغدي **أخبار سلاجقة الروم "عصر سلجوقامة"**، تحقيق جمال الدين، الدوحة، 1994.

– ابن تغري بردي الأتابكي جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت874هـ / 1469م).

* **النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة**، تقديم محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1992.

– ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد الكتاني الأندلسي (ت614هـ/1217م).

* **رحلة ابن جبير**، تعليق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م.

– ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت597هـ / 1200م).

* **المنتظم في تاريخ الملوك والأمـم**، مطبعة دار المعـارف العثمانيـة، حيـدر آبـاد، ط1، 1359هـ / 1941م.

- ابن القلانسي، أبي يعلي حمزة بن القلانسي.

* **تاريخ أبي يعلي المعروف بذيل تاريخ دمشق**، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت 1908م.

الحسيني، صدر الدين أبو الحسن علي بن ناصر (ت622هـ / 1225م).

* **زبدة التواريخ (أخبار الأمراء والملوك الـسلجوقية)**، تحقيق محمد نور الـدين، دار إقـرأ للنشر بيروت، ط2، 1986م.

* **أخبار الدولة السلجوقية**، تصيح محمد إقبال، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، 1933.

- الحموي، أي الفضائل محمد بن علي (ت644هـ / 1246م).

* **تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان المعروف بالتاريخ المصوري**، تحقيق أبو العيد دودو، المؤسسة الوطنية للكتاب.

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (808هـ / 1405م).

* **تاريخ ابن خلدون**، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1971م.

- ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن أحمد (ت681 هـ/ 1282م).

* **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بروت.

- ابن الدبيثي، محمد بن سعيد بن محمد (ت637هـ / 1239م).

* **المختصر المحتاج إليه**، تحقيق مصطفى جواد، مطبعة المعارف، بغداد، 1951.

- ابن دقماق.

* **الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين**، تحقيق محمد كمال الدين عـز الـدين عـالم الكتب، بيروت، ط1، 1985م.

- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت748هـ / 1347م).

* **سير أعلام البنلاء**، تحقيق بشار عواد معروف ومحيي هلال السرحان، مؤسسة الرسـالة، ط1، 1985م.

* **العبر في خبر من غبر**، تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت، 1984.

* **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق عمر عبد السلام تـدمري، دار الكتـاب العربي بيروت، ط1، 1996م.

- الراوندي، محمد بن سليمان (ت61=01هـ / 1204م).

* **راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية،** ترجمه عن الفارسية إبراهيم الشواربي عبد المنعم حسنين، وفؤاد الصياد، دار القلم، القاهرة، ط1، 1960م.

– ابن الساعي، أبو طالب علي بن انجب (ت674هـ / 1275م).

* **الجامع المختصر في عنوان التواريخ والسير،** تحقيق مصطفى جواد، المطبعة السريانية الكاثوليكية، بغداد، 1934م.

* **نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والأماء،** تحقيق مصطفى جواد، دار المعارف، ط2.

– سبط ابن الجوزي، أبو المظفر يوسف بن قراوغلي (ت645هـ / 1256م).

* **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان،** مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، الهند، 1951م.

– السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت 911هـ / 1505م).

* **تاريخ الخلفاء،** نظر فيه وزاد حواشيه محمد كمال الدين علي، عالم الكتب، بيروت، ط1، 2003م.

– ابو شامه، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت662هـ / 1266م)

* **الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية،** تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1997.

* **تراجم رجال القرنيين السادس والسابع المعروف بذيل علي الروضتين،** تحقيق محمد زاهد الكوثري، دار الجيل، بيروت، ط1، 1947، ط2، 1974.

– ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع (ت632هـ / 1234م).

* **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين الأيوبي،** تحقيق أحمد ايبش، الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق، ط2، 2005م.

– الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي.

* الوافي بالوفيات، فرانز شتايز، ط2، 1982م.

– ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (ت709هـ / 1309م).

* **الفخري في الآداب السلطانية،** دار صادر، بيروت.

– عبد اللطيف بن يوسف البغدادي، موقف الدين أبو محمد (ت629هـ / 1231م).

* **كتاب الإفادة والاعتبار والمشاهدة في حوادث المعاينة بأرض مصر**، تحقيق أحمد غسان سبانو، دار قتيبة، دمشق، ط1، 1983.

- ابن العبري، غريغورس أبي الفرج بن أهرون الملطي (ت685هـ / 1286م).

* **تاريخ مختصر الدول.**

* **تاريخ الزمان**، ترجمة إسحاق أرمله، دار المشرق، بيروت، 1986.

- ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت660هـ / 1261م).

* **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1996.

- العسقلاني، أحمد بن إبراهيم (ت876هـ / 1471م).

* **شفاء القلوب في مناقب بني أيوب**، تحقيق مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، 1996م.

- ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (ت1089هـ / 1678م).

* **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، دار المسيرة، بيروت، ط2، 1979.

- ابن أبي عذيبة، شهاب الدين أحمد محمد، (ت856هـ).

* **إنسان العيون في مشاهير سادس القرون**، تحقيق إحسان الثامري ومحمد القدحات دار ورود للنشر، إربد، ط1، 2007م.

- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل (ت732هـ / 1331م).

* **المختصر في أخبار البشر المعروف بتاريخ أبي الفداء**، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

- ابن الفوطي، ابو الفضل عبد الرزاق (ت723هـ / 1323م).

* **الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة**، دار الفكر الحديث للطباعة، بيروت، 1987م.

- القرماني، أحمد بن يوسف (ت1019هـ / 1610م).

* **أخبار الدول وآثار الأول**، عالم الكتب، بيروت.

- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت821هـ / 1418م).

* **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، شرحه وعلق عليه يوسف علي طويل، دار الفكر للطباعة والنشر، ط1، 1987م.

* **مآثر الأنافة في معالم الخلافة**، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، عالم الكتـب، بيـروت ط1، 1964.

- ابن الكازروني، ظهر الدين علي بن محمد البغدادي (ت697هـ / 1297م).

* **مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس**، تحقيق مـصطفى جـواد، مطبعة الحكومة، بغداد، 1970م.

- ابن كثير، أبي الفداء، الحافظ (ت774هـ / 1372م).

* **البداية والنهاية في التاريخ**، مكتبة المعارف، بيروت، ط7، 1988م.

- الماوردي، أبو الحسن علي محمد بن حبيب (ت450هـ / 1058م).

* **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1985م.

- المرتضى الزبيدي (ت1205هـ / 1790م).

* **ترويح القلوب، في ذكر ملوك بني أيوب**، تحقيق صلاح الدين المجد، دار الكتاب الجديـدة بيروت، ط2، 1983.

- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ / 1442م).

* **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**، تحقيق محمد حلمي أحمد، القاهرة، 1973م.

* **السلوك لمعرفة الدول والملوك**، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997م.

- الناصري أبو العباس شهاب الدين أحمد (ت 131هـ).

* الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق محمد عثمان، دار الكتب العلمية بيـروت، ط1، 2007م.

- النسوي، محمد بن أحمد (الفه بعد سنة 639هـ / 1241م).

* **سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي**، تحقيق حافظ أحمد حمدي، مطبعة الاعتقـاد، مـصر 1953م.

- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت732هـ / 1232م).

* **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004.

- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت697هـ / 1297م).

* **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق جمال الدين الشيال، الاسكندرية، 1980.

- ابن الوردي، زين الدين عمر (ت749هـ / 1348م).

* **تتمة المختصر في أخبار البشر المعروف بتاريخ ابن الـوردي**، تحقيـق أحمـد رفعـت البدراوي، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1970.

– الوطواط، رشيد الدين (ت573هـ / 1177م)

* **مجموعة الرسائل العربية**، جميع وترتيب محمد أفندي فهمي، مطبعة المعارف، مصر، ط1 1897م.

* **حدائق السحر ودقائق الشعر**، تعريف إبراهيم أمين الـشواربي، مطبعـة لجنـة التـأليف والترجمة والنشر ط1، 1645.

– ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (ت626هـ / 1228م).

* **معجم البلدان**، دار الكتاب العربي، بيروت.

– اليافعي، أبي محمد عبد الله بن أسعد (ت 768هـ / 1366م).

* **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، وضع حواشيه خليـل المنصور دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997م.

– اليماني، تاج الدين عبد الباقي بن عبد الجليل (ت743هـ / 1343م).

* **تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن**، تحقيق مصطفى حجازي، دار العـودة بيروت، دار الكلمة، صنعاء، 1965.

– الأيوبي، محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه.

* **مضمار الحقائق وسر الخلائق**، تحقيق حسن حبشي، عالم الكتب، 1968.

2. المراجع العربية والمعربة

– إقبال، عباس.

* **الوزارة في عهد السلاجقة**، ترجمة أحمد كمال الدين حلمي، 1984.

– أحمد، محمد عبد العال.

* **الأيوبيون في اليمن**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1980.

– اسفنديار، بهاء الدين محمد بن حسن.

* **تاريخ طبرستان**، ترجمة أحمد محمد نادي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2002م.

– آل ملا، عبد الرحمن بن عثمان بن محمد.

* **تاريخ الإمارة العيونية في شرق الجزيرة العربية**، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، 2002م.

– بارتولد، فاسيلي فلاديمير.

* **تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي**، ترجمه عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت، ط1، 1981.

– البلوشي، إبراهيم عطا الله.

* **بلاد البحرين في العصر العباسي الثاني**، أبو ظبي، ط1ن 2002م.

– بواعنه، لؤي.

* **دور العلماء المسلمين في مقاومة الغزو الإفرنجي للمشرق الإسلامي**، دار اليازوري للنشر، عمان، 2006م.

– البسياني، مجير الدين عبد الرحيم.

* **رسائل القاضي الفاضل**، تحقيق علي نجم عيسى، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م.

– الجميلي رشيد عبد الله.

* **تاريخ الدولة العربية الإسلامية**، الجامعة المستنصرية، ط1، 1989م.

– حلمي، أحمد.

* **السلاجقة في التاريخ والحضارة**، دار البحوث العلمية، الكويت، ط1، 1975م.

– حسن، حسن إبراهيم.

***تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، دار الأندلس للطباعة، بيروت ط1، 1967.

- حسنين، عبد المنعم.

* **سلاجقة إيران والعراق،** مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط2، 1970م.

- حسين، جميل حرب محمود.

* **الحجاز واليمن في العصر الأيوبي،** الناشر تهامة – جدة – السعودية، ط1، 1985م.

- حمادة، محمد ماهر.

* **الوثائق السياسية الإدارية للعهود الفاطمية والاتابكية والأيوبية،** مؤسسة الرسالة بيروت، ط1، 1980م.

* **وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي،** مؤسسة الرسالة، بيروت ط1، 1980م.

- الحياري، مصطفى.

* **صلاح الدين القائد وعصره،** دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1994م.

- الخضيري، علي بن عبد العزيز.

* **علي بن المقرب حياته وشعره،** مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1981.

- حمدي، حافظ.

* **الدولة الخوارزمية والمغول،** دار الفكر العربي للطباعة والنشر.

- زامباور.

* **معجم الإنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي،** ترجمة زكي محمد حسن وحسن أحمد محمود، مطبعة جامعة فؤاد الأول، 1951م.

- الصياد، فؤاد عبد المعطي:

* **المغول في التاريخ،** دار النهضة العربية للطباعة، بيروت، 1980م.

- شبولر، برتولد.

* **العالم الإسلامي في العصر المغولي،** ترجمة خالد أسعد ، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق ط1، 1982م.

- صبره، عفاف.

* **التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية،** دار الكتاب الجامعي، القاهرة، ط1، 1987م

- طقوش، سهيل.

* **تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وأقليم الجزيرة،** دار النفائس، بيروت، ط1، 1999م.

- طقوش، محمد سهيل

* **تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى**، دار النفائس، للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2002م.

- عبد الحليم، رجب محمد.

* **انتشار الإسلام بين المغول**، دار النهضة العربية للطبع والنشر.

- عبد الرؤوف، عصام الدين.

* **بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي**، دار الفكر العربي للطباعة والنشر.

- العبود، نافع توفيق.

* **الدولة الخوارزمية**، مطبعة الجامعة، بغداد، 1987م.

- العريني، الباز.

* **المغول**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1986.

- الغامدي، سعد بن محمد.

* **أوضاع الدول الإسلامية في الشرق الإسلامي**، جامعة الرياض، ط1، 1981م ط2، 1983م.

- فهد، بدري محمد.

* **تاريخ العراق في العصر العباسي**، بغداد، 1974م.

- فوزي، فاروق عمر.

* **تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية الإسلامية**، مكتبة النهضة، بغداد.

* الخلافة العباسية السقوط والإنهيار، دار الشروق للنشر والتوزيع،عمان، 1998م.

- القدحات، محمد عبدالله.

* **الحياة الاجتماعية في بغداد في العصر العباسي الأخير**، دار البشر للطباعة، عمان، 2005م.

- القزاز، محمد صالح.

* **الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير**، مطبعة القضاء، النجف، 1971.

- كاهن، كلود.

* **الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية**، ترجمة أحمد الشيخ، سينا للنشر، القاهرة، ط1، 1995م.

* تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ترجمة بدر الدين القاسم، دار الحقيقة للنشر، بيروت، ط2، 1977م.

– لسترانج، كي.

* بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة بيروت، ط2، 1985م.

– النجار، محمد رجب.

* حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي، عالم المعرفة، الكويت، 1981م.

– نويهض، وليد.

* صلاح الدين الأيوبي سقوط القدس وتحريرها، دار ابن حزم.

– مقدسي، جورج.

* **خطط بغداد في القرن الخامس الهجري**، ترجمة صالح أحمد العلي، مطبعة المجتمع العلمي العراقي، 1984.

– البستاني.

* **دائرة المعارف**، دار المعرفة، بيروت.

– **دائرة المعارف الإسلامية.**

* يصدرها باللغة العربية أحمد الشنتناوي وإبراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس.

3. الرسائل الجامعية

– البلوشي، محمد بن إسماعيل.

* **الإمارة العيونية في البحرين دراسة تاريخية في العلاقات الخارجية والأحوال الحضارية**، رسالة ماجستير، جامعة السلطان قابوس، 2006م.

– حسين، يحيى أحمد.

* **الفتوة في بغداد في العصر العباسي الأخير**، رسالة ماجستير، إشراف عبد العزيز الدوري الجامعة الأردنية، كلية الدراسات العليا، 1992م.

– الجالودي، عليان عبد الفتاح.

* **تطور مفهوم السلطنة وعلاقتها بالخلافة خلال العصر السلجوقي**، رسالة دكتوراه، إشراف عبد العزيز الدوري، الجامعة الأردنية، كلية الدراسات العليا، 1996م.

– عقلة ، عصام مصطفى.

* **الخلافة العباسية في ضوء رسائل أمين الدولة**، رسالة ماجستير، إشراف محمد عبد القادر خريسات، كلية الدراسات العليا، 1997م.

– النقيب، أحلام حسن.

* **سياسة الخليفة الناصر لدين الله الداخلية**، رسالة ماجستير، إشراف حمدان الكبيسي، جامعة بغداد، 1988م.

4. المقالات العربية والمعربة

– بيات، فاضل مهدي.

* **السياسة السلجوقية في العراق**، مجلة المؤرخ العربي، ع17–18، 1981م، ص97–121.

– تشسيز، فرانز.

* **الفتوة والخليفة الناصر، فصل ضمن كتاب المنتقى من دراسات المستشرقين**، ج1، ترجمة صلاح الدين المنجد، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1955، ص189–207.

– جواد، مصطفى.

* **الفتوة وأطوارها**، مجلة المجتمع العلمي العراقي، المجلد الخامس، 1985م.

– زالينغر، جيرارد

* **الفتوة هل هي الفروسية الشرقية**، فصل من كتاب دراسات إسلامية، ترجمة أنيس فريحة، كمال اليازجي، نقولا زيادة، دار الأندلس للطباعة، بيروت، 1960م، ص 213–244.

– السوداني، صادق حسن.

* **العلاقات الخارجية للخلافة العباسية في عهد الخليفة الناصر**، مجلة المورد العراقية، ع4، السنة 2، 1973، ص85–102.

– العبود، نافع توفيق.

* **جهود الخلافة للتحرر من النفوذ السلجوقي خلال القرن السادس الهجري**، مجلة المورد العراقية المجلد 19، ع1، 1990م، ص48–55.

– فوزي، فاروق عمر.

* **صلاح الدين الأيوبي والتحدي**، مجلة المورد العراقية، المجلد 16، ع3، 1987م ص80–91.

– كاهن، كلود

* **ترجمة الخليفة الناصر**، مجلة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، 1970م، ضمن كتاب الإفادة والاعتبار، ص101–128.

– المشهداني، محمد جاسم

* **نهاية النفوذ السلجوقي في العراق**، مجلة المؤرخ العربي، ع25، 1984، ص195–209.

5. المصادر الأجنبية

– Bartold. V.V

* **Caliph and Sultan, Translated by N.S Doniash. Islamic Quarterly**, Vol, 7. 1963. pp117-135.

* **The Cambrid history of Iran** Volume 5. 1968.

قائمة الملاحق

1. نص منشور الفتوة الذي أصدره الناصر لدين الله سنة (604هـ) كما أورده ابن الساعي في كتابه الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير.
2. رسالة كتبها القاضي الفاضل من السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى الخليفة الناصر لدين الله يتضمن البشارة بفتح بيت المقدس.
3. رسالة الملك الأفضل إلى الخليفة الناصر لدين الله يخبره بوفاة والده صلاح الدين.
4. نسخة عهد لقضاء القضاة في بغداد كُتب بهِ عن الخليفة الناصر لدين الله للقاضي محي الدين أبي عبدالله محمد بن فضلان.

الملاحق رقم (1)

نص منشور الفتوة الذي أصدره الناصر لدين الله سنة (604هـ) كما أورده ابن الساعي في كتابه الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير

بسم الله الرحمن الرحيم، من المعلوم الذي لا يتمارى في صحته ولا يرتاب في براهينه وأدلته أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب –ك– هو أصل الفتوة ومنبعها ومنجم أوصافها الشريفة ومطلعها وعنه تروى محاسنها وآدابها ومنه تشعبت قبائلها واحزابها وإليه دون غيره تنتسب الفتيان وعلى منوال مؤاخاته النبوية الشريفة نسج الرفقاء والإخوان وأنه كان عليه السلام مع كمال فتوته ووفور رجاحته يقيم حدود الشرع على اختلاف مراتبها ويستوفيها من أصناف الحسبات على تباين جنايتها ومللها ونحللها ومذاهبها غير مقصر عما أمر به الشرع المطهر وقرره ولا مراقب في ما رتبه من الحدود وقرره امتثالاً لأمر الله تعالى في إقامة حدوده وحفظاً لمناظم الشرع وتقويم عموده فإنه عليه السلام فعل ذلك بمرأى من السلف الصالح ومسمع ومشهد من أخبار الصحابة ومجتمع فلم يسمع أن أحداً من الأمة لأمه ولا طعن عليه طاعن في حد إقامة وحقيق بمن أولاه الله مقامه ونـاط بـه شرائع الإسلام وأحكامه وانتمى إليه عليه السلام في أفعاله ويحتذى فيما استرعاه الله تعالى واضح مثاله غير ملوم في ما يأتيه من ذلك ولا معارض فتوة ولا شرعاً فيما يورده ويصدره وقد رسم –أعلى الله مقامه– المراسم العلية المقدسة النبوية الأمامية وزادها نفاذاً معضوداً بالصواب وتأييداً ممتد الاطناب محكم الأسباب على كل من تشرف بالفتوة برفاقه الخدمة الشريفة المقدسة المعظمة الممجدة المكرمة الطاهرة الزكية النبوية الأمامية الناصرة لدين الله تعالى شرف الله مقامها وخلد أيامها وأعلى كلمتها ونصر رايتها: أنه من قتل له رفيق نفساً نهى الله تعالى عن قتلها وحرمها وسفك دماً حقنه الشرع المطهر وعصمه وصار بذلك مما قال الله تعالى في حقه حيث ارتكب هذا المحرم واحتقب عظيم هذا المأثم ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا﴾ النساء: ٩٣ الآية أن ينزل عنه في الحال في جمع الفتيان عند تحققه لذلك ومعرفته ويبادر إلى تغيير رفقته مخرجاً له بذلك عن دائرة الفتوة التي كان متسماً بها مسقطاً

لها من عداد الرفاقة التي لم يقم نواحيها؛ ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم، وأن كل فتى يحوي قاتلاً ويخفيه ويساعده على أمره ويؤويه ينزل كبيره عنه ويغير رفاقته ويتبرأ منه وأن من حوى ذا عيب فقد عاب وغوى ومن آوى طريد الشرع فقد ضل وهوى والنبي عليه السلام يقول: "من أوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً" ولا حدث أكبر من قتل النفس عدواناً وظلماً ولا ذنب أعظم منه وزراً وإثما فإن الفتى متى قتل فتى من حزبه سقطت فتوته ووجب أن يؤخذ منه القصاص عملاً بقوله: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ وأن قتل فتى عوناً من الأعوان أو متعلقاً بديوان في بلد سيدنا أو مولانا الإمام المفترض الطاعة على كافة الأنام الناصر لدين الله أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين فقد عيب هذا القاتل في حرم صاحب الحزب بالقتل فكأنما عيب على كبيره فسقطت فتوته بهذا السبب الواضح ووجب أخذ القصاص منه عند كل فتى راجع وليعلم الرفقة الميمونة ذلك وليعملوا بموجبه وليجروا الأمر في أمثال ذلك على مقتضى المأمور به وليقفوا عند المحدود في هذا المرسوم المطاع ويقابلوه بالانقياد والاتباع إن شاء الله تعالى.

ابن الساعي ص223، 224، 225.

الملحق رقم (2)

رسالة كتبها القاضي الفاضل من السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى الخليفة الناصر لدين الله يتضمن البشارة في فتح بيت المقدس

أدام الله تعالى أيام الديوان العزيز النبوي، ولا زال مظفر الجد بكل جاحد، غنياً بالتوفيق عن رأي كل رائد، موقوف المساعي على اقتناء مطلقات المحامد، مستيقظ النصر والنصل في جفنه راقد، وارد الجود والسحاب على الأرض غير وارد، متعدد مساعي الفضل وإن كان لا يلقى إلا بشكر واحد، ماضي حكم العدل بعزم لا يمضي إلا بنبل غوي وريش راشد، لا زالت غيوث فضله إلى الأولياء أنواء إلى المراتع وأنواراً إلى المساجد، وبعوث رعبه إلى الأعداء خيلاً إلى المراقب وخيالاً إلى المراقد.

كتب الخادم هذه الخدمة، تلو ما صدر عنه مما كان يجري مجرى التباشير لصبح هذه العزمة، والعنوان لكتاب وصف النعمة، فإنها بحر للأقلام فيه سبح طويل، ولطف لحمل الشكر فيه عبء ثقيل، وبشرى للخواطر في شرحها مآرب، ويسرى للأسرار في إظهارها مسارب، ولله تعالى في إعادة شكره رضا، وللنعمة الراهنة به دوام لا يقال معه: هذا مضى. ولقد صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصايرها، وقد استتبت عقائد أهله على أبين بصائرها، وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط، وصدق الله أهل دينه فلما وقع الشرط وقع المشروط، وكان الدين غريباً فهو الآن في وطنه، والفوز معروضاً فقد بذلت الأنفس في ثمنه، وأمر أمر الحق وكان مستضعفاً، وأهل ربعه وكان قد عيف حين عفا، وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمة، وأدلجت السيوف إلى الآجال وهي نائمة، وصدق وعد الله في إظهار دينه على كل دين، واستطارت له أنوار أبانت أن الصباح عندها جنان الجنين، واسترد المسلمون تراثاً كان عنهم آبقا، وظفروا يقظة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفاً على النأي طرقاً، واستقرت على الأعلى أقدامهم، وخففت على الأقصى أعلامهم، وتلاقت على الصخرة قبلهم، وشفيت بها وإن كانت صخرة كما تشفى بالماء غللهم، ولما قدم الدين عليها عرف سويداء قلبه، وهنأ كفوها الحجر الأسود بيت عصمتها من الكافر بحرية.

وكان الخادم لا يسعى سعيه إلا لهذه العظمى، ولا يقاسي تلك البؤسى إلا رجاء هذه النعمى، ولا يناجز من يستمطله في حربه، ولا يعاتب بأطراف القنا من يتعادى في عتبه، إلا لتكون الكلمة مجموعة فتكون كلمة الله هي العيا، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا، وكانت الألسن ربما سلقته فأنضج قلوبها بالاحتقار، وكانت الخواطر ربما غلت عليه مراجلها فأطفأها بالاحتمال والاصطبار، ومن طلب خطيراً خاطر، ومن رام صفقة رابحة

جاسر، ومن سما لأن يجلي غمرة غامر، وإلا فإن القعود يلين تحت نيوب الأعـداء المعـاجم فبعضها، ويضعف في أيديها مهز القوائم فيفضها، ولا يوفى به واجب التقليد الـذي يطوقـه الخادم من أثمه قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون، وخلفاء كانوا في مثل هذا اليـوم يـسألون، لا جرم أنهم أورثوا سرهم وسريرهم خلفهم الأطهر، ونجلهم الأكبر، وبقيتهم الشريفة، وطليعـتهم المنيفة، وعنوان صحيفة فضلهم لا عدم سواد القلم وبياض الصحيفة، فما غابوا لما حضر، ولا غضوا لما نظر، بل وصلهم الأجر لما كان به موصولاً، وشاطروه العمل لما كان عنه منقولاً ومنه مقبولاً، وخلص إليهم إلى المضاجع فاطمأنت به جنوبها، وإلى الصحائف ما عبقـت بـه جيوبها، وفاز منها بذكر لا يزال الليل به سميراً، والنهار به بصيراً، والشرق يهتدي بـأنواره بل إن بدا نور من ذاته هتف به الغرب بأن واره، فإنه نور لا تكنه أغساق السدف، وذكـر لا توازيه أوراق الصحف.

وكتب الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدو الذي تشظت قناته شققا، وطارت فرقـه فرقـاً، وفل سيفه فصار عصا، وصدعت حصاته وكان الأكثر عدداً وحصى، وكلت حملاتـه وكـان قدراً يضرب فيه العنان بالعنان، وعقوبة من الله ليس لصاح يديها يدان، وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة، وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كثيفة، ونام جفن سيفه وكانـت يقظته تريق نطف الكرى من الجفون، وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت شامخة بـالمنى أو راعفة بالمنون، وأصبحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث، والرب الفـرد الواحـد وكان عندهم الثالث، وبيوت الكفر مهدومة، ونيوب الشرك مهتومة، وطوائفة المحامية، مجمعة على تسليم القلاع الحامية، وشجعانه المتوافية، مذعنة لبذل القطائع الوافية، لا يرون في مـاء الحديد لهم عصره، ولا في نار الأنفة لهم نصرة، قد ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وبـدل الله مكان السيئة الحسنة، ونقل بيت عبادته من أيدي أصحاب المشأمة إلى أيدي أصحاب الميمنة.

وقد كان الخادم لقيهم اللقاة الأولى فأمده الله بمداركته، وأنجده بملائكته، فكسرهم كسرة ما بعدها جبر، وصرعهم صرعة لا ينتعش بعدها بمشيئة الله كفر، وأسر منهم من أسرت بـه السلاسل، وقتل منهم من قتلت به المناصل، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والـسلاح والكفار، وعن أصناف يخيل بأنه قتلهم بالسيوف الأفلاق والرماح والأكسار، فنيلوا بثار مـن السلاح ونالوه أيضاً بثار، فكم أهلة سيوف تقارضن الضراب بها حتى عادت كالعراجين، وكم أنجم قنا تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين، وكم فارسية ركض عليها فارسها الشهم إلى أجل فاختلسه، وفغرت تلك القوس فاها فإذا فوها قد نهش القرن على بعد المـسافة وافترسـه فكان اليوم مشهوداً، وكانت الملائكة شهوداً، وكان الضلال صارخاً وكـان الإسـلام مولـوداً

وكانت ضلوع الكفار لنار جهنم وقوداً. أسر الملك وبيده أوثق وثائقه، وأكـد وصـله بالـدين وعلائقة، وهو صليب الصلبوت، وقائد أهل الجبروت، ما دهموا قط بأمر إلا وقام بين دهمائهم يبسط لهم باعه، وكان مد اليدين في هذه الدفعة وداعه، لا جرم أنهم يتهافت على ناره فراشهم، ويجتمع في ظل ضلاله خشاشهم، ويقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب سـوراً تحفـر حـوافر الخيل خندقه، وفي هذا اليوم أسرت سراتهم، ودهيت دهاتهم، ولم يفلـت مـنهم معـروف إلا القومص، وكان لعنه الله مليا يوم الظفر بالقتال، ومليأ يوم الخذلان بالاحتيال، فنجا ولكن كيف، وطار خوفاً من أن يلحقه منسر الرمح أو جناح السيف، ثم أخذه الله تعالى بعـد أيـام بيـده، وأهلكه لموعده، فكان لعدتهم فذلك، وانتقل من ملك الموت إلى مالك.

وبعد الكسرة مر الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية العباسية السوداء صبغاً، البيضاء صنعاً، الخافقة هي وقلوب أعدائها، الغالبة هي وعزائم أوليـائهم، المستـضاء بأنوارها إذا فتح عينها النشر، وأشارت بأنامل العذبات إلى وجه النصر، فافتتح بلاد كذا وكذا، وهذه كلها أمصار ومدن، وقد تسمى البلاد بلاداً وهي مزارع وفدن، كل هـذه ذوات معاقـل ومعاقر، وبحار وجزائر، وجوامع ومنابر، وجموع وعـساكر، يتجاوزهـا الخـادم بعـد أن يحرزها، ويتركها وراءه بعد أن ينتهزها، ويحصد منها كفراً ويزرع إيمانـاً، ويحـط مـن جوامعها صلباً ويرفع أذاناً، ويبدل المذابح منابر والكنائس مساجد، ويبوئ أهل القرآن بعد أهل الصلبان للقتال عن دين الله مقاعد، ويقر عينه وعيون أهل الإسلام أن يعلق النصر منه ومن عسكره بحار ومجرور، وأن يظفر بكل سور، ما كان يخاف زلزاله ولا زياله إلى يوم الـنفخ في الصور.

ولما لم يبق إلا القدس وقد اجتمع إليه كل طريد منهم وشريد، واعتصم بمنعتهـا كـل قريب منهم وبعيد، وظنوا أنها من الله مانعتهم، وأن كنيستها إلى الله شافعتهم، فلما نزلها الخادم رأى بلداً كبلاد، وجمعاً كيوم التناد، وعزائم قد تألبت وتألفت على الموت فنزلـت بعرصـته، وهان عليها مورد السيف وان تموت بغصته، فزاول البلد من كل جانب، فإذا أوديـة عميقـة، ولجج وعر غريقة، وسور قد انعطف عطف السوار، وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقر الدار، فعدل إلى جهة أخرى كان للطالع عليها معرج، وللخيل فيها متولج، فنزل عليها وأحاط بها وقرب منها، وضرب خيمته بحيث يناله السلاح بأطرافه، ويزاحمه السور بأكنافه، وقابلها ثم قاتلها، ونزلها ثم نازلها (وبرز إليها ثم بارزها) وحاجزها ثم ناجزها، وضمها ضمة ارتقب بعدها الفتح، وصدع جمعها فإذا هم لا يصبرون على عبودية الحد عن عنق الصفح، فراسـلوه ببذل قطيعة إلى مدة، وقصدوا نظرة من شدة وانتظاراً لنجده فعرفهم الخادم في لحن القـول،

وأجابهم بلسان الطول، وقدم المنجنيقات التي تتولى عقوبات، الحصون عصيها وحبالها، وأوتر لهم قسيها التي ترمى ولا تفارقها سهامها ولكن تفارق سهامها نصالها، فصافحت السور فـإذا سهمها في ثنايا شرفاتها سواك، وقدم النصر نسراً من المنجنيق يخلد إخلاده إلى الأرض ويعلو علوه إلى السماء، فشج مرادع أبراجها، وأسمع صوت عجيجها صم أعلاجها، ورفـع منـار عجاجها، فأخلى السور من السيارة، والحرب من النظارة، وأمكن النقاب، أن يـسفر للحـرب النقاب، وأن يعيد الحجر إلى سيرته الأولى من التراب، فتقدم إلى الصخر فمضغ سرده بأنياب معوله، وحل عقده بضربه الأخرق الدال على لطافة أنمله، وأسمع الـصخرة الـشريفة أنينـه واستغاثته إلى أن كادت ترق لمقتله، وتبرأ بعض الحجارة من بعض، وأخذ الخـراب عليهـا موثقاً فلن تبرح الأرض، وفتح من السور باباً سد من نجاتهم أبواباً، وأخذ ينقب في حجره فقال عنده الكافر: يا ليتني كنت ترابا، فحينئذ يئس الكفار من أصحاب الدور، كما يئس الكفار مـن أصحاب القبور، وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور، وفي الحال خرج طاغية كفرهم، وزمـام أمرهم، ابن بارزان سائلاً أن يؤخذ البلد بالسلم لا بالعنوة، وبالأمان بالسطوة ، وألقى بيده إلـى التهلكة، وعلاه ذل الهلكة بعد عز المملكة، وطرح جنبه على التراب وكان جنبـاً لا يتعاطـاه طارح، وبذل مبلغاً من القطيعة لا يطمح إليها أمل طامح، وقال: ها هنـا أسـارى مـسلمون يتجاوزون الألوف، وقد تعاقد الفرنج على أنهم إن هجمت عليهم الدار، وحملت الحرب علـى ظهورهم الأوزار، بدئ بهم فعجلوا وثني بنساء الفرنج وأطفالهم فقتلوا، ثم استقتلوا بعد ذلـك، فلا يقتل خصم إلا بعد أن ينتصف، ولا يفل سيف من يد إلا بعد أن تقطع أو ينقصف، فأشـار الأمراء بأخذ الميسور، من البلد المأسور، فإنه لو أخذ حرباً فلابد أن يتقحم الرجال الأنجـاد، ويقال كفوا عنها في آخر أمر قد نيل من أوله المراد، وكانت الجراح في العساكر قد تقدم منها ما اعتقل الفتكات، وأثقل الحركات، فقبل منهم المبذول عن يد وهم وصاغرون، وانصرف أهل الحرب عن قدرة وهم ظاهرون، وملك الإسلام خطة كان عهده بها دمنه سكان، فخدمها الكفر إلى أن صارت روضة جنان، لا جرم أن الله تعالى أخرجهم منها وأهبطهم، وأرضـى أهـل الحق وأسخطهم، فإنهم خذلهم الله، حموها بالأسل والصفاح، وبنوها بالعمد والصفاح، وأودعوا الكنائس بها وبيوت الديوية والاسبتارية فيها بكل غريبة من الرخام الـذي يطـرد مـاؤه، ولا ينطرد لألاؤه، قد لطف الحديد في تجزيعه، وتفنن في توشيعه، إلى أن صار الحديد الذي فيـه بأس شديد، كالذهب الذي فيه نعيم عتيد، فما ترى إلا مقاعد كالرياض لها من بياض التـرخيم رقراق، وعمداً كالأشجار لها من التنبيت أوراق.

وأوعز الخادم برد الأقصى إلى عهده المعهود، وأقام له من الأئمة مـــن يوفيـــه ورده المورود، وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شعبان فكـــادت الـــسموات يتفطـــرن للـــسجود لا للوجوم، والكواكب منها تنتثر للطرب لا للرجوم، ورفعت إلى الله كلمة التوحيد وكانت طريقها مسدودة، وطهرت قبور الأنبياء وكانت بالنجاسات مكدودة، وأقيمت الخمـــس وكـــان التثليـــث يقعدها، وجهرت الألسنة بالله أكبر وكان سحر الكفر يعقدها، وجهر باسم أمير المـــؤمنين فـــي وطنه الأشرف من المنبر، فرحب به ترحيب من بر بمن بر، وخفق علماه في حفافيـــه، فلـــو طار سروراً لطار بجناحيه.

وكتاب الخادم وهو مجد في استفتاح بقية الثغور، واستشراح ما ضاق بتمادي الحرب من الصدور، فإن قوى العساكر قد استنفدت مواردها، وأيام الشقاء قد مردت مواردها، والبلاد المأخوذة المشار إليها قد جاست العساكر خلالها، ونهبت ذخائرها وأكلت غلالها، فهـــي بـــلاد ترفد ولا تسترفد، وتجم ولا تستنفد، ينفق عليها ولا ينفق منها، وتجهز الأساطيل لبحرها، وتقام المرابط بساحلها، ويدأب في عمارة أسوارها ومرمات معاقلها، وكل مشقة بالإضافة إلى نعمة الفتح محتملة، وأطماع الفرنج بعد ذلك غير مرجئة ولا معتزلة، فإن يدعوا دعوة يرجو الخادم من الله أنها لا تسمع، ولن يكفوا أيديهم من أطراف البلاد حتى تقع وهذه البشائر لها تفاصيل لا تكاد من غير الألسنة تتشخص، ولا بما سوى المشافهة تتخلص، فلـــذلك نفـــذ الخـــادم لـــساناً شارحاً، ومبشراً صادحاً، يطالع بالخبر عل سياقته، ويعرض جيش المسرة من طليعتـــه إلـــى ساقته، وهو فلان والله الموفق.

ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ص180-186.

الملحق رقم (3)

رسالة الملك الأفضل إلى الخليفة الناصر لدين الله يخبره بوفاة والده صلاح الدين

أصدر العبد هذه الخدمة وصدره مشروح بالولاء، وقلبه معمور بالصفاء، ويده مرفوعة إلى السماء للابتهال بالدعاء، ولسانه ناطق بشكر النعماء، وجنانه ثابت من المهابة والمحبة عن الخوف والرجاء، وطرفه مغض من الحياء، ووجهه مقبل نحو قبلة الاستجداء، وهمته في العبودية فارعة ذروة العلاء، وهو للأرض مقبل، وللفرض متقبل، وبالطاعة ماثل، وللاستطاعة باذل، وللجهد والإخلاص، عارض ضارع، وفجر فخره من الصحة والمناصحة صادق صادع، وهو يمت بما قدمه من الموات، وأسلفه من الخدمات، وذخره الأقوات لهذه الأوقات، واتخذه عصمه من النائبات، وعوذه من الطارقات، وعدة عند الملمات، وعمدة لدى الخطوب الكارثات، ومصرفاً لصرف الحادثات، ومؤلفاً للشمل عند شمول الشتات وعروة للاعتصام بها في أزمن الأزمات وسلوة من الأسى وأسواً لجراح المصيبات، ولا خفاء بما أخافه، وفاض له من بحر البرح وضافه وأغاض نطافه، وعاق أوان رجاء جنى النجاح قطافه، لولا أن الله تداركه بفضله وأولاه ألطافه، فإنه دهمه ما هدمه وفجأة ما فجعه، وبغته من الرزء ما صد عنه العيش وصدعه ونابه ما رابه، وجرعه مصابه صابه، ووافاه من وفاة والده رحمه الله ما كدر صفو الحياة ومحا عن صفحة صبحه آية الآيات وألم بألم الأمل، وأحال الحلى إلى العطل، وحلاء عن النهل والعلل، وأذهب بهجة الأيام، وأشمت الكفر بالإسلام وسر الشرك منه ما ساء التوحيد، وقرب من إشفاق القلوب وإشفاء الكروب البعيد، وعطل الجهاد وأراح الحديد، وشب حقود العداة على أنها ما شبت إلا لتخمد، وشام حدود العتاة على أنها ما شيمت إلا لتغمد، وهذا الحادث أرجف المرجفون بحديثه، وآثاروا كوامن النار وحركوا سواكن الأوتار بتأثيره وتأريثه، وأخرج أهل النفاق رؤوسهم من كل نفق، وعاد ثبات ثباتهم إلى نفار وقلق، ومن كان مستمسكاً من ولاء الدار العزيزة بالعروة الوثقى، مستلئماً من عدد أيامها ومدد إنعامها بالدرع الأقوى الأوقى، فإنه لا يحتفل بحفول أخلاق أهل الخلاف، ولا يتحلحل طود حجاه الراسي وحصاه الراسخ لعواصف ذوي الإحجاف، وقد أحاطت العلوم الشريفة مجدها الله بأن الوالد السعيد الشديد السديد، المبير للشرك المبيد، لم يزل أيام حياته، وإلى ساعة وفاته، مستقيماً على جدد الجد، مستنيماً في صون فريضة الجهاد إلى بذل الجهد، مستنفذاً في كل ما يحوز به المراضي الشريفة وسعه، مستفرغاً طاقته في الشغل الديني الذي يهدي بصره وسمعه، فكم قبض يداً بسطتها بالفتنة الفئة العادية، وكم فرض سنة أعلت سناها للمجتلين وأحلت جناها للمجتدين الدعوة الهادية، ولكم أخرس دعاة الأدعياء وحرس ولايات الأولياء

وكانت بكتائبه وكتبه سيوفه وأقلامه للأقاليم أقاليد، ولم تزل جنود الشيطان وجموع الطغيان في الممالك بمماليك الدار العزيزة وعبيدها عباديد وأمطر بلاد الكفر من دماء أهلها شآبيب، وأقام بها منار الإسلام ومنابره لما أناب عن أعوادها أنابيب وأسعرها من كماة الوغى وحماة الورى بمساعير وأنجدها بضوامره ضوامن الظافر بمضامير، وهذه فتوحه تفوح بنشر النصر ونضوع، وعقوده تروق في سلك الملك وتروع، ومصر بل الأمصار باجتهاده في الجهاد شاهدة والأنجاد والأغوار في نظر عزمه واحدة، ولبيت المقدس من فتوحاته، والملك العقيم من نتائج عزماته، وتوفره على العبودية لمالك رقه سيدنا أمير المؤمنين أوفر حسناته وكل ذلك في طاعته ومناصحته وبركاته، وما زال ظاهراً على العدا، ناصراً للهدى، معلياً معالم العلى، محيياً مواسم التقى ، مسنيا سنن الشرع وفروضه، مديماً بأعباء الطاعة بقدر الطاقة نهوضه، وهو الذي ملك ملوك الشرك وغل أعناقها، وأسر طواغيت الكفر وشد وثاقها، وقمع عبدة الصلبان وقصم أصلابها، وجمع كلمة الإيمان وعصم جنابها، ونظم أسبابها وسد الثغور وسدد الأمور، وأذل للدار العزيزة كل عدو، واخذ لها على يد كل ذي عتو، واستمرت على الأيام مساعيه في الخدمة ناجحة، ومعانيه على موازين الموازين راجحة، وسيرته حسنة وحسناته سائرة، ومحاسنه ظاهرة، وسريرته طاهرة، وختم الله له بالسعادة وتوفاه على الوفاء بالعبودية والعبادة، وقضى وقد قض من آرائه آرابه وقدم بين يديه أعماله الصالحة ووفاه حسابه، وقبض وعدله مبسوط، وأمره محوط، ووزره محطوط، وعمله بالصلاح منوط، وأمله بالنجاح مشروط، وملكه بحفظ الله وكلاءته مضبوط، والمذاهب مهذبة والمراتب مرتبة، والأسباب محكمة والأحكام مسببه، والأحوال حالية، والأعمال راضية، والمصالح مصونة، والمناجح مضمونة، والرعية مرعية، والعوائد مرضية، والقواعد متأثلة، والمقاصد متحصلة، والثغور مسدودة والخطوب مصدودة، وأصول الدولة ثابتة، وفروع الدوحة نابته، وما ترك أمراً بعده غير مستقيم ولا نجاً غير قويم، ولا خلف لمن خلفه ما يحتاج إلى تقريبه وتقريره، ولا أبقى لمن بقى له يفتقر إلى ترتيبه وتدبيره، وما خرج من الدنيا إلا وهو في حكم الطاعة الإمامية داخل، وبمتجرها الرابح إلى دار المقامة راحل، ولم تكن له وصية إلا بالاستمرار على جادتها، والاستكثار من مادتها، والاستسعاد بسعادتها، والاستعداد لعبادتها، والاستجارة بظلالها والاستنارة بجلالها، والاستعاذة بفضلها والاستزادة من أفضالها، وما بنيت القواعد إلى على أساس وصاياه، ولا أمضيت العوائد إلى على قياس سجاياه، ولا أبرم إلا ما عقده، ولا أحكم إلا ما أكده.

واقتفيت آثاره، واجتليت أنواره، واتبع إيثاره، وائتمرت في ائتمار الأوامـر الـشريفة أوامره، ومن كان في نصرة الدولة الإمامية الناصرية فإن الله ناصره، وما يفتخر العبد إلا بما ورثه في ولائها من الفخار، وبعثه من آلائها الغزار، ونعشه برفعه من العثار، وعرفه بعرفـه المبر المبار، ولا يتسم بالملك إلا من يتسامى بأنه لها مملوك، ولا يوصل إلى السعادة الأبديـة إلا مسلك إلى رضاها مسلوك، ولئن مضى الوالد على طاعة إمامه، فالمماليك أولاده وأخـواه في مقامه، والأمر في كل مكان بالأمن والسكون جار على نظامه، والكفـر مفلـول الغـرب، مخذول الحزب، مجبول على الرعب، مغلول بقيد السلم عن الحرب، فإن الله أجرى المشركين مع كثرتهم على حكم القلة وخصهم لإبقاء عزة الثغور الإسلامية بالذلة، وقد استمرت الحـال إلى الآن على الهدنة وهم لا يؤمنون إذا حسوا بالمكنة، فإن الغدر في طباعهم مركوز، والسوء في غرائزهم مغروز، والعبد آخذ بالحزم عائذ بتأييد الله في العزم متيقظ لمخـوف غـدرهم، متحفظ من مكر مكرهم، مستعد بكل إمكان، مستجد كل ما يفتقر إليه من نجدة وقوة بكل مكان، مستظهر بما تأكد له من مظاهرة المواقف المقدسة في أموره، مستبشر وجه وجاهتـه منهـا بسفوره، ظاهر بقوته من أيدها وأياديها قوي بظهوره، مدل بما لـه مـن المـوات الأكيـدة، والسوابق الحميدة، والشوافع المقبولة، والذرائع الموصولة، موقن أن الرعايـة تدركـه، وأن العناية تملكه، وأن اختصاصه بفضيلة المائة القديمة يجد له فضل الاختـصاص، وأن فاتحـة الحمد منه والإخلاص تفتح له باب الأحماد والاستخلاص.

ولما قصر رجاءه على طوله بذلك الطول وأنه يزداد بما يزدان به مـن الاصـطفاء والاستطاع حسن الحلية وقوة النصرة والحول عول على القاضي ضياء الـدين فـي المثـول بالخدمة الشريفة وإنهاء حاله، والانتهاء إلى مناجح آماله، والسفارة فيما يـسفر عـن صـبح المراشد، ونجح المقاصد ونصح العقائد، وشرح الأحوال في المصادر والموارد، وان بلاغتـه وصية بالإبلاغ، ملية بإشباع القول في اعتفاء الطول الملي وبالأسباغ، وقد فاوضه فيما فوضه إليه، واعتمد في استنجازه واستنجاحه عليه، لا زالت أيادي الدار العزيزة دارة غزيرة، سـارة أولياءها وبإحياء موات مواتها جديرة، إن شاء الله تعالى.

الأصفهاني، الفتح القسي، ص381-383

الملحق رقم (4)

نسخة عهد لقضاء القضاة لبغداد كُتب بهِ عن الخليفة الناصر لدين الله للقاضي محي الدين أبي عبدالله محمد بن فضلان

نسخة عهد بقضاء القضاة بحاضرة بغداد وسائر الأعمال، كتب به عن الإمام الناصر لدين الله للقاضي محي الدين أبي عبد الله محمد بن فضلان، من إنشاء عضد الدين ابن الضحاك.

هذا ما عهد عبد الله وخليفته في العالمين، المفترض الطاعة على الخلق أجمعين، أبو العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين، إلى محمد بن يحيى بن فضلان، حين سبر خلاله واستقراها، واعتبر طرائقه واستبراها، فألفاه رشيداً في مذاهبه، سديدا في أفعاله وضرائبه، موسوما بالرصانه، حاليا بالورع والديانة، مبرزاً من العلوم في فنونها، عالما بمفروض الشريعة المطهرة ومسنونها، مدرعا ملابس العفاف، قد أناف على أمثاله في بوارع الأوصاف، فقلده قضاء في مدينة السلام وجميع البلاد والأعمال، والنواحي والأمصار، شرقاً وغرباً، وبعدً وقربا، سكوناً إلى ما علم من حاله، واضطلاعه بالنهضة المنوطة به استقلاله، وركونا إلى قيامه بالواجب فيما أسند إليه، ونهوضه بعبء ما عول في حفظ قوانينه عليه، واستنامة إلى حلول الاصطناع عنده، ومصادفته منه مكانا تبواه بالاستحقاق وحده، والله تعالى يعضد أمير المؤمنين بمزيد التوفيق في جميع الأمور، ويحسن له الخيرة فيما من مناظم الدين وصلاح الجمهور، وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكل وإليه ينيب.

أمره بتقوى الله تعالى في إعلانه وإسراره، وتقمص شعارها في إظهار أمره وإضماره، فإنها العروة الوثقى، والذخر الأبقى، والسعادة التي ما دونها فوز ولا فوقها مرقى، وهي حيلة الأبرار، وسيما الأخيار، والمنهج الواضح، والمتجر الرابح، والسبيل المؤدى إلى النجاة، والخلاص، يوم لا وزر ولات حين مناص، وأنفع العدد والذخائر، وخير العتاد يوم تنشر الصحف وتبلى السرائر، يوم تشخص الأبصار، وتعدم الأنصار قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾

ولا ينجو من عذاب الله يومئذ إلا من كان زاده التقوى، وتمسك منها بالسبب الأقوى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

وأمره أن يجعل كتاب الله تعالى إماما يهتدي بمناره، ويستصبح ببواهر أنواره، ويستضئ في ظلم المشكلات بمنير مصباحه، ويقف عند حدود محظوره ومباحه، ويتخذه مثالاً يحتذيه، ودليلاً يتبع أثره فيهديه، ويعمل به في قضاياه وأحكامه، ويقتدي بأوامره في نقضه وإبرامه، فإنه دليل الهدى ورائده، وسائق النجح وقائده، ومعدن العلم ومنبعه، ومنجم الرشاد ومطلعه، وأحد الثقلين اللذين جعلهما، رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأمة، والذكر الذي جعله الله تبياناً لكل شيء وهدى ورحمه، فقال عز من قائل قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾.

وأمره باتباع الآثار النبوية صلوات الله على صاحبها وسلامه، والاهتداء بشموسها التي تنجلي به دجنة كل مشكل وظلامه، والاقتداء بسنة الشريعة المتبوعة، وتصفح الأخبار المسموعة، والعمل منها بما قامت أدلة صحته من جميع جهاته، فاستحكمت الثقة بنقلته عنه –عليه السلام– ورواتهن وسلمت أسانيده من قدح، ورجاله من ظنه وجرح، فإنها التالية للقرآن المجيد في وجوب العمل بأوامره، والانتهاء بروادعه وزواجره، وهو عليه الصلاة والسلام الصادق الأمين، الذي ما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، وقد قرن الله (سبحانه) طاعته بطاعته، والعمل بكتابه والأخذ بسنته، فقال عز من قائل: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾.

وأمره بمجالسه العلماء، ومباحثه الفقهاء، ومشاركتهم في الأمور المشكلة، وعوارض الحكومات المعضلة، ليستبين سبل الصواب، ويعرى الحكم من ملابس الشبه والارتياب، ويخلص من خطا الانفراد وغوائل الاستبداد، فالمشورة باليمن مقرونه، والسلامة في مطاويها مضمونه، وقد أمر الله تعالى بها نبيه صلى الله عليه وسلم مع شرف منزلته، وكمال عصمته،

وتأييده بروحه وملائكته، فقال سبحانه: ﴿ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾ آل عمران: ١٥٩ .

وأمره بفتح بابه، ورفع حجابه، وأن يجلس للخصوم جلوساً عاماً، وينظر في أمـــورهم نظراً حسنا تاماً، مساوياً بينهم في نظره ولحظه، وإصغائه ولفظه، ومحترزا مـــن ذي اللـــسن وجرأة جنانه، متأنياً بذي الحصر عند إقامة برهانه، فربما كان أحد الخصمين ألحن بحجتـــه، والآخر ضعيفاً عن مقاومته، هذا مقام الفحص، والاستفهام، والتثبت في إمضاء الأحكام، ليسلم من خديعة محتال، وكيد مغتال، مائلا في جميع ذلك مع الواجب (سالكاً طريق العدل اللاحب) غير فارق في إمضاء الحكم بين القوى والضعف، والمشروف والشريف، والمالك والمملـــوك، والغني والصعلوك، قال الله تعـــالى: ﴿ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ ﴾ وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾

وأمره بتصفح أحوال الشهود، المسموعة أقوالهم في الحقوق والحدود، المرجوع إلـــى أمانتهم، المعمول بشهادتهم، الذين بهم تقام الحجج وتدخص، وتبرم الأحكام وتـــنقض، وتثبـــت الدعاوى وتبطل، وتمضى القضايا وتسجل، مجتهداً في البحث عن طرائقهم وأحوالهم، وانتقاد تصاريفهم وأفعالهم واستشفاف سجاياهم وعرفان مزاياهم، مخصصا بالتمييز من كـــان حميـــد الخلال، مرضى الفعال، راجعا إلى ورع ودين، متمسكا من الأمانة والنزاهة بالسبب المتـــين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ ﴾

وأمره بالنظر في أمور اليتامى وأموالهم، ومراعاة شؤونهم وأحـــوالهم، وأن يرتـــب بسبب اتساق مصالحهم الثقات الأعفاء، والأمناء الأتقياء، ممن ظهرت ديانته، وحسنت سيرته، واشتهر باللطف والعفاف، والتنزه عن الطمع والإسفاف (ويأمرهم بحفظها من خلل يتخللهـــا، ويد خائنه تدخلها، وليكن عليهم حدبا، وفي فرط الحنو أبا، وخلفا من آبـــائهم فـــي الإشـــفاق) عليهم، وحسن الالتفات إليهم، فإنه عنهم مسؤول، والعذر عند الله تعالى فـــي إهمـــالهم غيـــر مقبول، وأن يأذن لهم في الإنفاق عليهم بالمعروف من غير إسراف ولا تقتير، ولا تضييق ولا

تبذير، فإذا بلغ أحدهم النكاح، وآنس منه أمارات الرشد والصلاح، دفع ماله إليه، وأشهد بقبضه عليه، على الوجه المنصوص، غير منقوص ولا منغوص، ممتثلاً أمر الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ .

وأمره بتزويج الأيامى اللواتي لا أولياء لهن من أكفائهن، بمهور أمثالهن، وأن يشمل ذوات الغنى والفقر منهن بعدله، ويتحرى لهن المصلحة في عقده وحله.

وأمره أن يستنيب فيما بعد عنه من البلاد ودنا، وقرب منه ونأى، كل ذي علم واستبصار، وتيقظ في الحكم واستظهار، ونزاهة شائعة، وأوصاف لأدوات الاستحقاق جامعة، ممن يتحقق نهوضه بذلك واضطلاعه، ويؤمن استنزاله وانخداعه، وأن يعهد إليهم في ذلك بمثل ما عهد إليه فلا يألوهم تنبيها وتذكيرا، وإرشادا وتبصيرا، قال الله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ ﴾ .

وأمره بإمضاء ما أمضاه من قبله من الحكام، من القضايا والأحكام، غير متعقب أحكامهم بنقض وتبديل، ولا تغيير ولا تأويل، إذا كانت جائزة في بعض الأقوال، ممضاة على وجه من وجوه الاحتمال، غير خارقة للإجماع، عارية من ملابس الابتداع، وإن كان ذلك منافياً لمذهبه، جاريا على خلاف معتقده قال الله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

وأمره أن يتخذ كاتباً قيما بشروط القضايا والسجلات، عارفا بما يتطرق نحوها من الشبه والتأويلات، ويتداخلها من النقص والتلبيسات، متحرزاً في كل حال، متنزها عن ذميم الأفعال، وأن يتخير حاجبا نقي الجيب، مأمون المشهد والغيب، مستشعرا للتقوى، في السر والنجوى، سالكا للطريقة المثلى، غير متجهم للناس، ولا معتمد ما ينافي بسط الوجه والإيناس، فإنه وصلتهم إليه، ووجهه المشهود قبل الدخول عليه، فلينتخبه من بين أصحابه، ومن يرتضيه من أمثاله وأضرابه.

وأمره بتسلم ديوان القضاء والحكم، والاستظهار على ما في خزائنه بالإثبات والختم، والاحتياط على ما به من المال والسجلات، والحجج والمحاضر والولايات، والقبوض،

والوثائق والأثبات والكفالات، بمحضر من (العدول) الأمناء الثقات، وأن يرتب لـــذلك خازنـــا يؤدي الأمانة فيه، ويتوخى ما توجبه الديانة وتقتضيه.

وأمره بمراعاه (أمر) الحسبة فإنها من أكبر المصالح وأهمها، وأجمعها لمنافع الخلـــق وأعمها، وأدعاها إلى تحصين أموالهم، وانتظام أحوالهم، وأن يأمر المستناب فيها باعتبار سائر المبيعات، وما فيها من الأقوات، وغيرها في عامة الأوقات، وتحقيق أسباب الزيادة والنقصان في الأسعار، والتصدي لذلك على الدوام والاستمرار، وأن يجري الأمر فيها بحسب ما تقتضيه الحال الحاضرة، والموجبات الشائعة الظاهرة، واعتبار الموازين والمكاييل، وإعـــادة الزائـــد والناقص منها إلى التسوية والتعديل، فإن اطلع لأحد من المتعاملين على خيانة في ذلك وفعـــل ذميم، أو تطفيف عدل فيه عن الوزن بالقسطاس المستقيم، ناله من التأديب وأسباب التهـــذيب، بما يكون له رادعا، ولغيره زاجرا وازعا، قال الله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحجته عند الله تعالى عليك، قد أولاك من صنوف النعم والآلاء، وجزيل النعم والحباء، ما يوجب عليك الاعتراف بقدره، واستيزاع شكره، ووقف بك على محجة الرشاد، وهداك منهج الحق وسنن السداد. ولم يألـــك تثقيفـــا وتبـــصيرا، وتنبيهـــا وتذكيرا، فتأمل ذلك متدبرا، وقف عند حدود أوامره ونواهيه مستبصرا، وأعمل به في كل ما تأتيه وتذره، وتورده وتصدره، وكن للمخيلة في ارتبادك محققا، والمعتقد فيك مصدقا، تفـــز من خير الدارين بمعلى القداح، وإحماد السرى عن الصباح، وحسب أمير المؤمنين الله ونعـــم الوكيل إن شاء الله تعالى.

القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص140−150

Abstract

The Abbasid Caliphate Political Relations during the Period of the Caliph AL-Naser LedeenAllah (575-622H / 1179-1225AD).

The current study discussed the Political relations for the Abbasid Caliphate during the Period of the Caliphate AL-Naser Ledeenallah (575-622H / 1179-1225AD). This issue is with a great importance, however it hasn't been studied in a comprehensive and deep manner as most of the current studies had discussed it within the aspect of the Caliphate relations with a certain state.

The Introduction Included study of the Abbasid Califate statns under the Saljuqi control before the period of Al- Naser ledeen Allah by taking look on the arigion of Saljuqi then the relation between Saljuqi Saladin and the abbasid Califates who were before Al-Naser ledeen Allah Califate.

Chapter discussed One the character of the Caliph AL-Naser Ledeenallah and his internal polices especially adopting Fotwa System in order to revive the caliphate The chapter traced the most important organizations of the state in his period .

Chapter two discussed the relation of the Abbasid Caliph with the Khawrzmic State, tracing this relation from the beginning of Al Sultan Kharezm Sah Teksh (568-596H/1172-1199AD) then Alaadeen Kharezm Teksh(596-617H/1199-1220AD) and finally the last caliph of this state Jalal Aldeen Mankbrti(617-628H/1220-1230AD). The researcher explained this relation though friendship or enmity aspects. Moreover, the researcher discussed the accusation of contacting Mongol by the Caliphate Al-Naser ledeen Allah.

The Third chapter was allocated to the discussion of the Caliphs' relation with the Ayyubid State starting from Salaheldeen Al-Ayyubi by mentioning his message with Caliphate Al-Naser ledeen Allah where there was a disagreement between them moving to all Ayyubid caliphs in his Period.

Chapter Four discussed the relation of the Abbasid caliph with neighboring Powers starting from Seljuq state in Iraq through discussing their appearance until their demolish by the Kharzmi state in 590H/1193AD. Then his relation with Al-Gohr Sultans, Eooni Emirates in Bahrain and with other Roman Seljuqs, Yemen and Morocco.

The study concluded that the Character of the Caliphate Al-Naser ledeen Allah and his policy contributed in an important role in forcing the Prestige of the Caliphate and maintaining its independence in a turbulence period witnessing many attempts by Seljuqs and kharezmians to overcome the Abbasid Caliphate.

Furthermore, the study reveled that the accuse pointed to the Caliphate Al-Naser ledeen Allah about connecting Mongols according to references and studies was an impossible accuse as a Muslim caliph can't deal with such invaders to Islam states.

We are in front of a great Caliph who has a great role in facing all enemies of Abbasid Caliphate since his main objective was eliminating Seljuqs power, this aim was achieved and many countries followed him earning loyalty by many Muslim sultans.